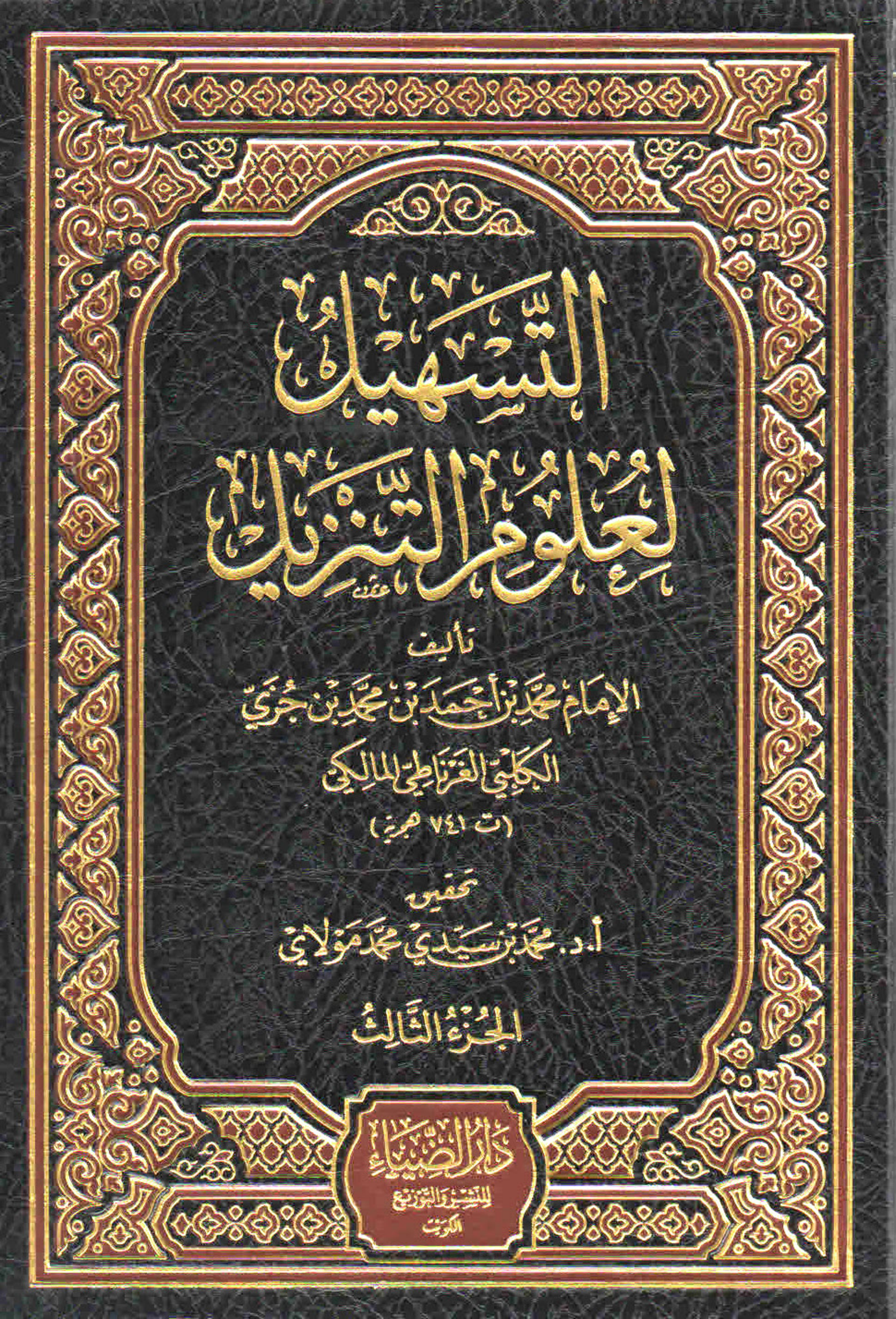


التسهيل
لعلوم التنزيل
تأليف
الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جزي
الكلبي الغرناطي المالكي
(ت ٧٤١ هجرية)
تحقيق
أ.د. محمد بن سيدي محمد مولاي
الجزء الثالث
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

دار الضياء
للنشر والتوزيع - الكويت
الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب : ١٣٤٦ حولي
الرمز البريدي : ٣٢٠١٤
تلفاكس : ٢٢٦٥٨١٨٠ (+٩٦٥)
نقال : ٩٩٣٩٦٤٨٠ (+٩٦٥)





الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

التجليد الفني
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد
بيروت

www.daraldheya.com

dar_aldheyaa@yahoo.com

الموزعون المعتمدون

دولة الكويت:

دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي	تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠	نقال: ٩٩٣٩٦٤٨٠

المملكة العربية السعودية:

دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة	هاتف: ٦٣١١٧١٠	فاكس: ٦٣٢٠٢٩٢
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض	هاتف: ٤٩٢٥١٩٢	فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
المكتبة المكية - مكة المكرمة	هاتف: ٥٣٤٠٨٣٢	فاكس: ٥٣٦٦٢٩٩٠
مكتبة العبيكان - جميع فروعها في المملكة	هاتف: ٩٠٠٢٠٠٢٠٢٠٩	

الجمهورية التركية:

مكتبة الارشاد - اسطنبول	هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٣٤	فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠
المكتبة الهاشمية - اسطنبول	هاتف: ٠٢١٢٥٢٠٢٥٣٣	فاكس: ٠٢١٢٥٢٠١٥٩٦

الجمهورية اللبنانية:

دار إحياء التراث العربي - بيروت	هاتف: ٥٤٠٠٠٠	فاكس: ٨٥٠٧١٧
شركة دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان	هاتف: ٧٠٢٨٥٧	فاكس: ٧٠٤٩٦٣
شركة التمام - بيروت - كورنيش المزرعة	هاتف: ١٧٠٧٠٣٩	

الجمهورية العربية السورية:

دار الفجر - دمشق - حلبوني	هاتف: ٢٢٢٨٣١٦	فاكس: ٢٤٥٣١٩٣
دار الكلم الطيب - دمشق - حلبوني	هاتف: ٢٤٥١٢٣٦	فاكس: ٢٢٢٧٦٠٢

جمهورية مصر العربية:

دار البصائر - القاهرة - زهراء مدينة نصر	تليفاكس: ٠٢٢٤١١١٤٤١	محمول: ٠١٠٠٢٤٣٦٢٦٣

المملكة الأردنية الهاشمية:

دار الرازي - عمان - العبدلي	تلفاكس: ٤٦٤٦١١٦	
دار محمد دلدمن للنشر والتوزيع - عمان	هاتف: ٦٤٦٥٣٣٩٠	تلفاكس: ٦٤٦٥٣٣٨٠

الجمهورية اليمنية:

مكتبة تريم الحديثة - تريم	هاتف: ٤١٧١٣٠	فاكس: ٤١٨١٣٠

الجمهورية الإسلامية الموريتانية:

شركة الكتب الإسلامية - نواكشوط	هاتف: ٠٠٢٢٢٥٢٥٣٤٦١	

مملكة البحرين:

جمعية الإمام مالك بن أنس - المحرق	هاتف: ١٧٣٣٤٢٥٠	فاكس: ١٧٣٣٤٣٦٠



التسهيل لعلوم التنزيل

تأليف

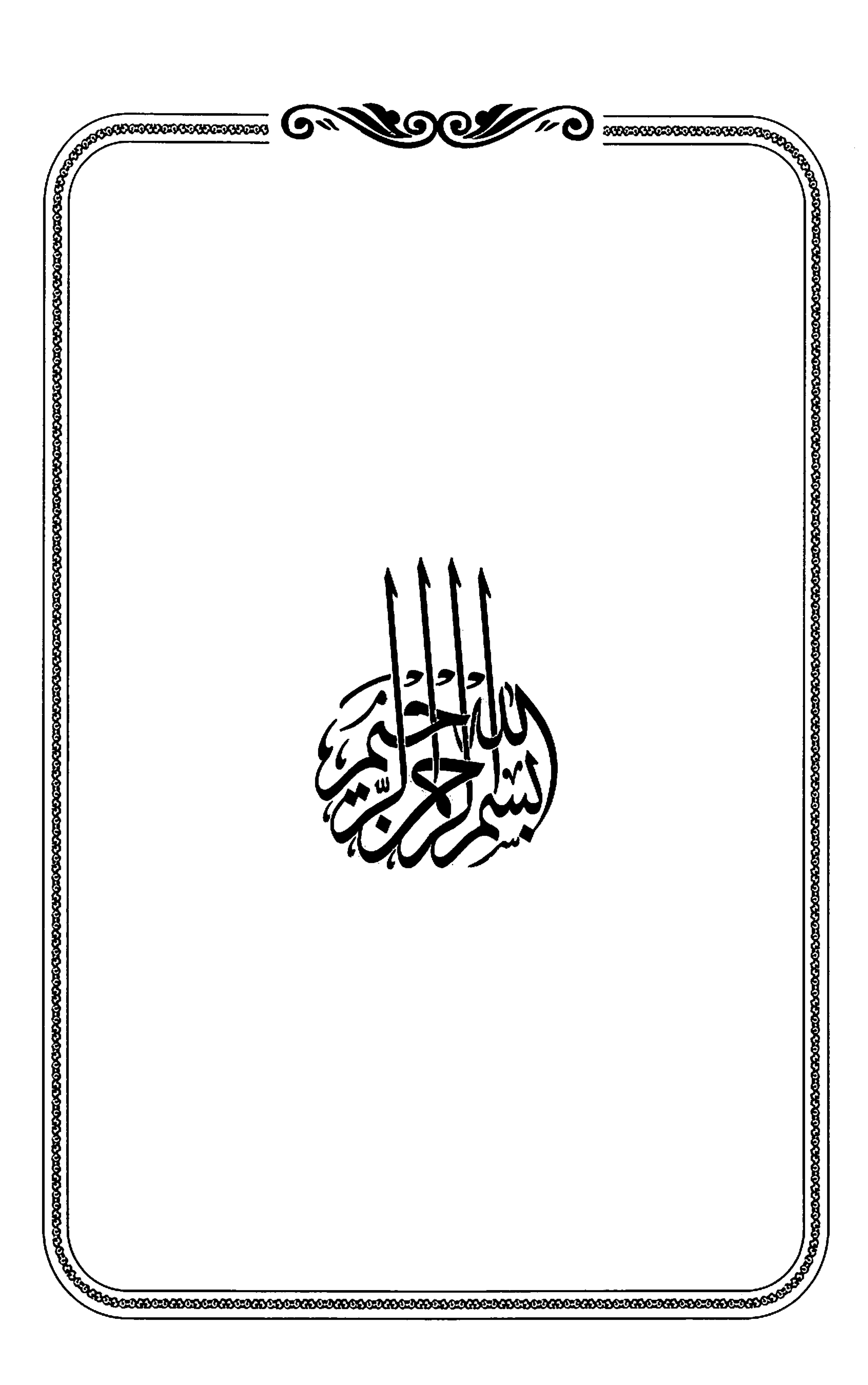
الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جُزيّ
الكلبي الغرناطي المالكي
(ت ٧٤١ هجرية)

تحقيق

أ.د. محمد بن سيدي محمد مولاي

الجزء الثالث

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

سورة الحج

﴿اتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ تكلمنا على التقوى في أول البقرة. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أي شدتها وهولها كقوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أو تحريك الأرض حينئذ كقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ والجملة تعليل للأمر بالتقوى، واختلف هل الزلزلة والشدائد المذكورة بعد ذلك في الدنيا بين يدي القيامة أو بعد أن تقوم القيامة؟ والأرجح أن ذلك قبل القيامة لأن في ذلك الوقت يكون ذهول المرضعة ووضع الحامل لا بعد القيامة.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ العامل في الظرف تذهل والضمير للزلزلة، وقيل: الساعة وذلك ضعيف لما ذكرنا إلا أن يريد ابتداء أمرها. ﴿تَذْهَلُ﴾ الذهول هو الذهاب عن الشيء مع دهشة. ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ إنما لم يقل مرضع لأن المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبي، والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقال مرضعة ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي حينئذ. ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ تشبيه بالسكارى من شدة الغم. ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ نفي لحقيقة السكر وقرئ[1] سكرى والمعنى متفق.

---

(١) ﴿سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿سكري﴾ بفتح السين وإسكان الكاف من غير ألف فيهما، وقرأ الباقون بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها وهم في الإمالة على أصولهم. النشر: ٢/٣٦٥.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ نزلت[1] في النضر بن الحارث، وقيل: في أبي جهل[2] وهي تتناول كل من اتصف بذلك. ﴿شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي شديد الإغواء، ويحتمل أن يريد شيطان الجن أو الإنس.

﴿كُتِبَ﴾ تمثيل لثبوت الأمر كأنه مكتوب، ويحتمل أن يكون بمعنى قضى كقولك: كتب الله ﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله وفي ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ عطف عليه، وقيل: تأكيد. ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي تبعه أو اتخذه وليا والضمير في عليه وفي أنه في الموضعين وفي تولاه للشيطان وفي يضله ويهديه للمتولي له، ويحتمل أن تكون تلك الضمائر أولاً لمن يجادل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ الآية معناها إن شككتم في البعث الأخروي فزوال ذلك الشك أن تنظروا في ابتداء خلقتكم فتعلموا أن الذي قدر على أن خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة، وأن الذي قدر على إخراج النبات من الأرض بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم. ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إشارة إلى خلق آدم، وأسند ذلك إلى الناس لأنهم من ذريته وهو أصلهم. ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾ العلقة قطعة من دم جامدة. ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي قطعة من لحم. ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ المخلقة التامة الخلقة، وغير المخلقة الغير التامة كالسقط، وقيل: المخلقة المسواة السالمة من النقصان. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام تتعلق بمحذوف، تقديره: ذكرنا ذلك لنبين لكم قدرتنا على البعث. ﴿وَنُقِرُّ﴾ فعل مستأنف. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني وقت وضع الحمل، وهو مختلف، وأقله ستة أشهر إلى ما فوق ذلك. ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أفرده لأنه أراد الجنس أو أراد نخرج كل واحد منكم طفلا ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ هو كمال القوة والعقل والتمييز، وقد

---

(١) مرسل أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٢٤٧٤/٨، واللباب، ص: ١٣٤، ويورده المفسرون بدون سند.

(٢) لم أجده مسندا، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٢٩/٤.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥)

ثمن

اختلف فيه من ثماني عشرة سنة إلى خمس وأربعين. ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ذكر في النحل. ﴿هَامِدَةً﴾ يعني لا نبات فيها. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات وتخلخلت أجزاؤها لما دخلها الماء. ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت. ﴿زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي صنف عجيب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك المذكور من أمر الإنسان والنبات شاهد بأن الله هو الحق. هكذا قدره الزمخشري والباء على هذا سببية وبهذا المعنى أيضا فسره ابن عطية، ويلزم على هذا أن لا يكون قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ معطوفًا على ذلك؛ لأنه ليس بسبب لما ذكر فقال ابن عطية قوله: أن الساعة ليس بسبب لما ذكر، ولكن المعنى أن الأمر مرتبط بعضه ببعض، أو على تقدير: والأمر أن الساعة، وهذان الجوابان اللذان ذكر ابن عطية ضعيفان أما قوله: إن الأمر مرتبط بعضه ببعض فالارتباط هنا إنما يكون بالعطف والعطف لا يصح، وأما قوله على تقدير الأمر أن الساعة فذلك استئناف وقطع للكلام الأول، ولا شك أن المقصود من الكلام الأول هو إثبات الساعة فكيف يجعل ذكرها مقطوعا مما قبله، والذي يظهر لي أن الباء ليست بسببية وإنما يقدر لها فعل تتعلق به ويقتضيه المعنى وذلك أن يكون التقدير ذلك الذي تقدم من خلقة الإنسان والنبات شاهد بأن الله هو الحق، وأنه يحي الموتى وبأن الساعة آتية فيصح عطف «وأن الساعة» على ما قبله بهذا التقدير، وتكون هذه الأشياء المذكورة بعد قوله ذلك مما استدل عليها بخلقة الإنسان والنبات.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت فيمن نزلت فيه الأولى، وقيل: في الأخنس بن شريق.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ كناية عن المتكبر المعرض. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ إن كانت في النضر بن الحارث فالخزي أسره ثم قتله، وكذلك قتل أبي جهل.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي يقال له ذلك بما فعلت وبعدل الله لأنه لا يظلم العباد.

﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ نزلت في قوم من الأعراب كان أحدهم إذا أسلم فاتفق له ما يعجبه في ماله وولده قال هذا دين حسن، وإن اتفق له خلاف ذلك تشاءم به وارتد عن الإسلام، فالحرف هنا كناية عن المقصد وأصله من الانحراف عن الشيء، أو من الحرف بمعنى الطرف أي أنه في طرف من الدين لا في وسطه. ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ خسارة الدنيا بما جرى عليه فيها وخسارة الآخرة بارتداده وسوء اعتقاده.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ يعني الأصنام ويدعو بمعنى يعبد في الموضعين.

﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فيها إشكالان:

الأول: في المعنى وهو كونه وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع ثم وصفها بأن ضرها أكثر من نفعها فنفى الضر ثم أثبته، والجواب: أن الضر المعني أولا يراد به ما يكون من فعلها وهي لا تفعل شيئا، والضر الثاني يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره.

والإشكال الثاني: دخول اللام على من وهي في الظاهر مفعول واللام لا تدخل على المفعول وأجاب الناس عن ذلك بثلاثة أوجه:

أحدها: أن اللام مقدمة على موضعها، كأن الأصل أن يقال يدعو من لضره

أقرب من نفعه فموضعها الدخول على المبتدإ.

وثانيها: أن يدعو هنا كرر تأكيدا ليدعو الأول وتم الكلام عنده ثم ابتدأ قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ فمن مبتدأ وخبره ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾.

وثالثها: أن معنى يدعو يقول يوم القيامة هذا الكلام إذا رأى مضرة الأصنام فدخلت اللام على مبتدإ في أول الكلام.

﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هنا بمعنى الولي. ﴿ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب فهو من العشيرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية لما ذكر أن الأصنام لا تنفع من عبدها قابل ذلك بأن الله ينفع من عبده بأعظم النفع وهو دخول الجنة.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ السبب هنا الحبل والسماء هنا سقف البيت وشبهه من الأشياء التي تعلق فيها الحبال، والقطع هنا يراد به الاختناق بالحبل، يقال قطع الرجل إذا اختنق، ويحتمل أن يراد به قطع الرجل من الأرض بعد ربط الحبل في العنق وربطه في السقف، والمراد بالاختناق هنا ما يفعله من اشتد غيظه وحسرته، أو طمع فيما لا يصل إليه كقوله للحسود: مت كمدا أو اختنق، فإنك لا تقدر على غير ذلك، وفي معنى الآية قولان:

الأول: أن الضمير في ينصره لسيدنا محمد ﷺ والمعنى على هذا: من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمدا فليختنق بحبل فإن الله ناصره ولا بد على غيظ الكفار، فموجب الاختناق هو الغيظ من نصرة سيدنا محمد ﷺ.

والقول الثاني: أن الضمير في ينصره عائد على من، والمعنى على هذا من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق على هذا القنوط والسخط من القضاء وسوء الظن بالله حتى ييئس من نصره، ولذلك فسر بعضهم أن لن ينصره الله بمعنى أن لن يرزقه وهذا القول أرجح من الأول لوجهين:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

أحدهما: أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف لأنه إذا أصابته فتنة انقلب وقنط حتى ظن أن الله لن ينصره فيكون هذا الكلام متصلا بما قبله ويدل عليه قوله قبل هذه الآية: إن الله يفعل ما يريد أي الأمور بيد الله فلا ينبغي لأحد أن يتسخط من قضاء الله ولا ينقلب إذا أصابته فتنة.

والوجه الثاني: أن الضمير في ينصره على هذا القول يعود على ما تقدمه وأما على القول الأول فلا يعود على مذكور قبله لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر قبل ذلك بحيث يعود الضمير عليه ولا يدل سياق الكلام عليه دلالة ظاهرة.

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ الكيد هنا يراد به اختناقه وسمي كيدا لأنه وضعه موضع الكيد إذ هو غاية حيلته، والمعنى إذا خنق نفسه فلينظر هل يذهب ذلك ما يغيظه من الأمر أي ليس يذهبه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الضمير للقرآن، أي مثل هذا أنزلنا القرآن كله. ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ قال ابن عطية: أن في موضع خبر الابتداء، والتقدير: الأمر أن الله، وهذا ضعيف لأن فيه تكلف إضمار وقطع للكلام عن المعنى الذي قبله، وقال الزمخشري: التقدير: لأن الله يهدي من يريد أنزلناه كذلك آيات بينات، فجعل أن تعليلا للإنزال، وهذا ضعيف للفصل بينهما بالواو والصحيح عندي أن قوله (وأن الله) معطوف على آيات بينات لأنه مقدر بالمصدر، فالتقدير: أنزلناه آيات بينات وهدى لمن أراد الله أن يهديه.

﴿وَالصَّابِينَ﴾ ذكر في البقرة وكذلك الذين هادوا. ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم الذين يعبدون النار ويقولون إن الخير من النور والشر من الظلمة. ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم الذين يعبدون الأصنام من العرب وغيرهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ هذه الجملة هي خبر إن الذين آمنوا والذين هادوا الآية وكررت مع الخبر للتأكيد، وفصل الله بينهم بأن يبين لهم أن الإيمان هو الحق وسائر الأديان باطلة وبأن يدخل الذين آمنوا الجنة ويدخل غيرهم النار.

﴿يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ دخل في هذا من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الملائكة والجن ولم يدخل الناس في ذلك لأنه ذكرهم في آخر الآية إلا أن يكون ذكرهم في آخرها على وجه التجريد وليس المراد بالسجود هنا السجود المعروف لأنه لا يصح في حق الشمس والقمر وما ذكر بعدهما وإنما المراد به الانقياد، ثم إن الانقياد يكون على وجهين:

أحدهما: الانقياد لطاعة الله طوعا.

والآخر: الانقياد لما يجري الله على المخلوقات من أفعاله وتدبيره شاؤوا أو أبوا.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ إن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لطاعة الله فيكون كثير من الناس معطوفا على ما قبله من الأشياء التي تسجد ويكون قوله وكثير حق عليه العذاب مستأنفا يراد به من لا ينقاد للطاعة ويوقف على قوله وكثير من الناس وهذا القول هو الصحيح وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاء الله وتدبيره فلا يصح تفصيل الناس على ذلك إلى من يسجد ومن لا يسجد لأن جميعهم يسجد بذلك المعنى، وقيل: إن قوله ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ معطوف على ما قبله، ثم عطف عليه كثير حق عليه العذاب فالجميع على هذا يسجد، وهذا ضعيف لأن قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يقتضي ظاهره أنه إنما حق عليه العذاب بتركه للسجود، وتأوله

الزمخشري على هذا المعنى بأن إعراب ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاعل بفعل مضمر، تقديره: يسجد سجود طاعة، أو مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، تقديره: مثاب وهذا تكلف بعيد.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم، ويدل على ذلك ما ذكر قبلها من اختلاف الناس في أديانهم، وهو قول ابن عباس[١] وقيل: نزلت[٢] في علي ابن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث، حين برزوا يوم بدر لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فالآية على هذا مدنية إلى تمام ست آيات، والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة، والمراد به هنا الجماعة والإشارة بهذان إلى الفريقين. ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه وفي صفاته، والضمير في اختصموا لجماعة الفريقين. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية حكم بين الفريقين بأن جعل للكفار النار وللمؤمنين الجنة المذكورة بعد هذا. ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصلت على قدر أجسادهم وهو مستعار من تفصيل الثياب. ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء الحار. ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي يذاب، وذلك أن الحميم إذا صب على رؤوسهم وصل حره إلى بطونهم فأذاب ما فيها، وقيل: معنى يصهر ينضج. ﴿مَّقَامِعُ﴾ جمع مقمعة أي مقرعة. ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ يضربون بها، وقيل: هي السياط.

﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل من المجرور قبله. ﴿وَذُوقُوا۟﴾ التقدير يقال لهم ذوقوا.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ من لبيان الجنس أو للتبعيض وفسرنا الأساور في الكهف. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب[٣] مفعول بفعل مضمر أي يعطون لؤلؤا، أو معطوف

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٥٨٩/١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (٣٧٤٧).

(٣) ﴿ولؤلؤا﴾ قرأ المدنيان وعاصم ويعقوب بنصب الهمزة الثانية، وغيرهم بخفضها، وأبدل الهمزة=

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

ثمن

على موضع من أساور إذ هو مفعول، وبالخفض معطوف على أساور، أو على ذهب.

﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قيل: هو لا إله إلا الله، واللفظ أعم من ذلك. ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي صراط الله، فالحميد اسم الله، ويحتمل أن يريد الصراط الحميد، وأضاف الصفة إلى الموصوف، كقولك: مسجد الجامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خبره محذوف يدل عليه قوله: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل: الخبر يصدون على زيادة الواو، وهذا ضعيف، وإنما قال يصدون بلفظ المضارع ليدل على الاستمرار على الفعل. ﴿سَوَآءً﴾ بالرفع مبتدأ أو خبره مقدر، والجملة في موضع المفعول الثاني، لجعلنا وقرئ[1] بالنصب على أنه المفعول الثاني والعاكف فاعل به. ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ العاكف: المقيم في البلد، والبادي: القادم عليه من غيره، والمعنى: أن الناس سواء في المسجد الحرام لا يختص به أحد دون أحد، وذلك إجماع، وقال أبو حنيفة: حكم سائر مكة في ذلك كالمسجد الحرام، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك، والمراد عنده بالمسجد الحرام جميع مكة، وقال مالك وغيره: ليست الدور في ذلك كالمسجد بل هي متملكة. ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾

= الأولى واوا ساكنة مدية وصلا ووقفا شعبة والسوسي وأبو جعفر، وفي الوقف حمزة. البدور الزاهرة ص: ٢٣٧.

(١) ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ روى حفص بنصب (سواء) وقرأ الباقون بالرفع. النشر: ٣٦٦/٢.

الإلحاد الميل عن الصواب، والظلم هنا عام في المعاصي من الكفر إلى الصغائر؛ لأن الذنوب بمكة أشد منها في غيرها، وقيل: هو استحلال الحرام، ومفعول يرد محذوف، تقديره: من يرد أحدا أو من يرد شيئا، وبإلحاد بظلم حالان مترادفان، وقيل: المفعول قوله: ﴿بِإِلْحَادِ﴾ على زيادة الباء.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ العامل في إذ مضمر، تقديره: اذكر وبوأنا أصله من باء بمعنى رجع، ثم ضوعف ليتعدى واستعمل بمعنى أنزلنا في الموضع، كقوله: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا أن هذا المعنى يشكل هنا لقوله ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ لتعدي الفعل باللام، وهو يتعدى بنفسه، حتى قيل: اللام زائدة، وقيل: معناه هيأنا، وقيل: جعلنا، والبيت هنا الكعبة، وروي أنه كان آدم يعبد الله فيه، ثم درس بالطوفان، فدل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على مكانه، وأمره ببنيانه. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ أن مفسرة، والخطاب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما فسرت تبوئة البيت بالنهي عن الإشراك والأمر بالتطهير؛ لأن التبوئة إنما قصدت لأجل العبادة التي تقتضي ذلك. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ عام في التطهير من الكفر والمعاصي والأنجاس وغير ذلك. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ يعني المصلين.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ خطاب لإبراهيم، وقيل: لسيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأول هو الصحيح، روي[1] أنه لما أمر بالأذان بالحج صعد على جبل أبي قبيس ونادى: أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت فحجوا، فسمعه كل من يحج إلى يوم القيامة، وهم في أصلاب آبائهم، وأجابه في ذلك الوقت كل شيء من جماد وغيره، لبيك اللهم لبيك، فجرت التلبية على ذلك. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ جمع راجل أي ماشيا على رجليه. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الضامر يراد به: ما يركب من فرس وناقة وغير ذلك، وإنما وصفه بالضمور؛ لأنه لا يصل إلى البيت إلا بعد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور: ٣٢/٦، وبنحوه أخرجه الطبري في جامع البيان: ٣٢/١٨ عن ابن عباس إلا أن فيه الحجر، لا جبل أبي قبيس.

ضموره، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوف على حال كأنه قال: رجالا وركبانا، واستدل بعضهم بتقديم الرجال في الآية على أن المشي إلى الحج أفضل من الركوب، واستدل بعضهم بسقوط ذكر البحر بهذه الآية، على أنه يسقط فرض الحج على من يحتاج إلى ركوب البحر. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي طريق بعيد.

﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي بالتجارة، وقيل: أعمال الحج وثوابه، واللفظ أعم من ذلك ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ يعني التسمية عند ذبح البهائم ونحرها وفي الهدايا والضحايا، وقيل: يعني الذكر على الإطلاق وإنما قال اسم الله لأن الذكر باللسان إنما يذكر لفظ الأسماء. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عند مالك: يوم النحر، وثانيه، وثالثه خاصة؛ لأن هذه هي أيام الضحايا عنده، ولم يجز ذبحها بالليل لقوله: في أيام، وقيل: الأيام المعلومات عشر ذي الحجة ويوم النحر والثلاثة بعده، وقيل: عشر ذي الحجة خاصة، وأما الأيام المعدودات فهي الثلاثة بعد يوم النحر فيوم النحر من المعلومات لا من المعدودات، واليومان بعده من المعلومات والمعدودات، ورابع النحر من المعدودات لا من المعلومات. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ندب أو إباحة ويستحب أن يأكل الأقل من الضحايا ويتصدق بالأكثر. ﴿الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه البؤس، وقيل: هو المتكفف، وقيل: الذي يظهر عليه أثر الجوع.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التفث في اللغة: الوسخ، فالمعنى: ليقضوا إزالة تفثهم بقص الأظفار والاستحداد وسائر خصال الفطرة والتنظف بعد أن يحلوا من الحج، وقيل: التفث أعمال الحج، وقرئ[1] بكسر اللام وإسكانها وهي لام الأمر، وكذلك

---

(١) ﴿ثم ليقضوا﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وورش ورويس بكسر اللام فيهما، وافقهم قنبل في ﴿ليقضوا﴾ وانفرد ابن مهران بكسر اللام فيهما عن روح وكذلك انفرد فيهما الخبازي عن أصحابه عن الهاشمي عن ابن جماز عن أبي جعفر فخالفا سائر الناس في ذلك وقرأ الباقون بإسكان اللام فيهما. النشر: ٢/٣٦٥.

وليوفوا وليطوفوا. ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ المراد هنا طواف الإفاضة عند جميع المفسرين وهو الطواف الواجب. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي القديم لأنه أول بيت وضع للناس، وقيل: العتيق الكريم كقولهم فرس عتيق، وقيل: أعتق من الجبابرة أي منع منهم، وقيل: العتيق هو الذي لم يملكه أحد قط.

﴿ذَٰلِكَ﴾ هنا وفي الموضع الثاني مرفوع على تقدير الأمر ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه، ثم يقول: هذا وقد كان كذا وأجاز بعضهم الوقف على قوله: ذلك، في ثلاثة مواضع من هذه السورة وهي هنا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللَّهِ﴾ و﴿ذلك ومن يشرك بالله﴾ لأنها جملة مستقلة أو هو خبر ابتداء مضمر، والأحسن وصلها بما بعدها عند شيخنا أبي جعفر بن الزبير، لأن ما بعدها ليس كلاما أجنبيا، ومثلها: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ و﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ في الأنفال، و﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ في ص. ﴿حُرُمَٰتِ اللَّهِ﴾ جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه من جميع الشريعة، فيحتمل أن يكون هنا على العموم، أو يكون خاصا بما يتعلق بالحج لأن الآية فيه. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي التعظيم للحرمات خير. ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني ما حرمه في غير هذا الموضع كالميتة. ﴿الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ﴾ من لبيان الجنس كأنه قال: الرجس الذي هو الأوثان والمراد النهي عن عبادتها، أو عن الذبح تقربا إليها، كما كانت العرب تفعل. ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي الكذب، وقيل: شهادة الزور.

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ﴾ الآية تمثيل للمشرك بمن أهلك نفسه أشد الهلاك. ﴿سَحِيقٍ﴾ أي بعيد.

﴿شَعَآئِرَ اللَّهِ﴾ قيل: هي الهدايا في الحج وتعظيمها بأن تختار سمانا عظاما غالية الأثمان، وقيل: مواضع الحج كعرفات ومنى والمزدلفة وتعظيمها إجلالها وتوقيرها والقصد إليها، وقيل: الشعائر أمور الدين على الإطلاق وتعظيمها القيام

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

ربع

بها وإجلالها. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الضمير عائد على الفعلة التي يتضمنها الكلام وهي مصدر يعظم، وقال الزمخشري: التقدير: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من قال إن شعائر الله هي الهدايا فالمنافع بها شرب لبنها وركوبها لمن اضطر إليها، والأجل المسمى نحرها، ومن قال إن شعائر الله مواضع الحج فالمنافع التجارة فيها أو الأجر، والأجل المسمى الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ من قال إن شعائر الله الهدايا فمحلها موضع نحرها وهي منى ومكة، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي، وثم على هذا القول ليست للترتيب في الزمان لأن محلها قبل نحرها وإنما هي لترتيب الجمل، ومن قال إن الشعائر مواضع الحج فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم أي آخر ذلك كله الطواف بالبيت يعني طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم من إحرامه ومن قال إن الشعائر أمور الدين على الإطلاق فذلك لا يستقيم مع قوله محلها إلى البيت.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي لكل أمة مؤمنة والمنسك اسم مكان أي موضعها لعبادتهم، ويحتمل أن يكون اسم مصدر بمعنى عبادة والمراد بذلك الذبائح لقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بخلاف ما يفعله الكفار من الذبح تقربا إلى الأصنام. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ في وجه اتصاله بما قبله وجهان:

أحدهما: أنه لما ذكر الأمم المتقدمة خاطبها بقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي هو الذي شرع المناسك لكم ولمن تقدم قبلكم.

والثاني: أنه إشارة إلى الذبائح أي إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقربا لغيره.

﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ الخاشعين، وقيل: المتواضعين، وقيل: نزلت[1] في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكذلك قوله بعد ذلك ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ واللفظ فيهما أعم من ذلك.

﴿وَجِلَتْ﴾ خافت. ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بدنة وهو ما أشعر من الإبل، واختلف هل يقال للبقرة بدنة وانتصابه بفعل مضمر ﴿مِّن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ واحدها شعيرة ومن للتبعيض، واستدل بذلك من قال إن شعائر الله المذكورة، أو على العموم في أمور الدين. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قيل: الخير هنا المنافع المذكورة قبل، وقيل: الثواب والصواب العموم في خير الدنيا والآخرة. ﴿صَوَآفَّ﴾ معناه قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وهي منصوبة على الحال من الضمير المجرور، ووزنه فواعل وواحده صافة. ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت إلى الأرض عند موتها، يقال وجب الحائط وغيره إذا سقط. ﴿الْقَانِعَ﴾ معناه السائل وهو من قولك: قنع الرجل بفتح النون إذا سأل، وقيل: معناه المتعفف عن السؤال، فهو على هذا من قولك: قنع بالكسر إذا رضي بالقليل. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ المعترض بغير سؤال، ووزنه مفتعل يقال اعتررت بالقوم إذا تعرضت لهم، فالمعنى أطعموا من سأل ومن لم يسأل ممن تعرض بلسان حاله، وأطعموا من تعفف عن السؤال بالكلية ومن تعرض للعطاء. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي كما أمرناكم بهذا كله سخرناها لكم، وقال الزمخشري: التقدير: مثل التسخير الذي علمتم سخرناها لكم.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المعنى: لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم

---

(١) لم أجده مسندا وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/١٥٠ بصيغة التمريض.

ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى، أي بالإخلاص لله وقصد وجه الله بما تذبحون وتنحرون من الهدايا، فعبر عن هذا المعنى بلفظ ينال مبالغة وتأكيدا، كأنه قال: لن تصل لحومها ولا دماؤها إلى الله، وإنما تصل إليه بالتقوى منكم، فإن ذلك هو الذي طلب منكم وعليه يحصل لكم الثواب، وقيل: كان أهل الجاهلية يضرجون البيت بالدماء فأراد المسلمون فعل ذلك فنهوا عنه ونزلت الآية[1]. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر للتأكيد. ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ قيل: يعني قول الذابح بسم الله والله أكبر، واللفظ أعم من ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كان الكفار يؤذون المؤمنين بمكة، فوعدهم الله أن يدفع عنهم شرهم وأذاهم، وحذف مفعول يدافع ليكون أعظم وأعم وقرئ[2] يدافع بالألف ويدفع بسكون الدال من غير الألف وهما بمعنى واحد[3] أجريت فاعل مجرى فعل كقولك: عاقبت اللص، وقال الزمخشري: يدافع معناه يبالغ في الدفع عنهم لأنه للمبالغة وفعل المغالبة أقوى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ الخوان مبالغة في خائن والكفور مبالغة في كافر قال الزمخشري هذه الآية عليه لما قبلها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ هذه أول آية نزلت في الإذن في القتال ونسخت الموادعة مع الكفار، وكان نزولها عند الهجرة وقرئ[4] أذن بضم الهمزة على البناء

(١) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه كما في الدر المنثور: ٦/٥٥ عن ابن عباس.

(٢) وقرأ نافع والحسن وأبو جعفر ﴿يدافع﴾ ﴿ولولا دفاع﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿يدفع ولولا دفع﴾ وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿يدافع ولولا دفع﴾ المحرر الوجيز: ٤/١٥٢، وينظر النشر: ٢/٣٦٦.

(٣) قال ابن عطية: قال أبو علي أجريت دافع في هذه القراءة مجرى دفع كعاقبت اللص وطابقت النعل فجاء المصدر دفعا قال أبو الحسن والأخفش أكثر الكلام أن الله يدفع ويقولون دافع الله عنك إلا أن دفع أكثر. المحرر الوجيز: ٤/١٥٢.

(٤) ﴿أذن للذين﴾ قرأ المدنيان والبصريان وعاصم بضم الهمزة، واختلف عن إدريس عن خلف=

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دِفَٰعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

لما لم يسم فاعله، وبالفتح على البناء للفاعل وهو الله تعالى والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه وقرئ[1] يقاتلون بفتح التاء وكسرها. ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني الصحابة فإن الكفار آذوهم وأضروا بهم حتى اضطروهم إلى الخروج من مكة، فمنهم من هاجر إلى أرض الحبشة، ومنهم من هاجر إلى المدينة، ونسب الإخراج إلى الكفار لأن الكلام في معرض إلزامهم الذنب ووصفهم بالظلم. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قال ابن عطية: هو استثناء منقطع لا يجوز فيه البدل عند سيبويه، وقال الزمخشري: أن يقولوا في محل الجر على الإبدال من حق. ﴿وَلَوْلَا دِفَٰعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية تقوية للإذن في القتال، وإظهار للمصلحة التي فيه، كأنه يقول: لولا القتال والجهاد لاستولى الكفار على المسلمين وذهب الدين، وقيل: المعنى لولا دفع ظلم الظلمة بعدل الولاة، والأول أليق بسياق الآية، وقرئ[2] دفاع بالألف مصدر دافع وبغير ألف مصدر دفع. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ قرئ[3]

= فروى عنه الشطي كذلك وروى الباقون بفتحها، وكذلك قرأ الباقون. النشر: ٢/٣٦٦.

(١) ﴿يقاتلون بأنهم﴾ قرأ المدنيان وابن عامر وحفص بفتح التاء مجهلاً، وقرأ الباقون بكسرها مسمى. المصدر السابق.

(٢) تقدم قبل قليل عند ﴿يدافع﴾.

(٣) ﴿لهدمت صوامع﴾ قرأ المدنيان وابن كثير بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها. النشر: ٢/٣٦٦.

بالتخفيف والتشديد للمبالغة. ﴿صَوَامِعُ﴾ جمع صومعة بفتح الميم وهي موضع العبادة، وكانت للصابئين ولرهبان النصارى، ثم سمي بها في الإسلام موضع الأذان، والبيع جمع بيعة بكسر الباء وهي كنائس النصارى، والصلوات كنائس اليهود، وقيل: هي مشتركة لكل أمة، والمراد بها مواضع الصلوات، والمساجد للمسلمين، فالمعنى لولا دفع الله لاستولى الكفار على أهل الملل المتقدمة في أزمانهم، ولاستولى المشركون على هذه الأمة فهدموا مواضع عباداتهم. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ الضمير لجميع ما تقدم من المتعبدات، وقيل: للمساجد خاصة. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي من ينصر دينه وأولياءه، وهو وعد تضمن الحض على القتال.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ الآية، قيل: يعني أمة سيدنا محمد ﷺ، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء الأربعة؛ لأنهم الذين مكنوا في الأرض بالخلافة ففعلوا ما وصفهم الله به.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الآية ضمير الفاعل لقريش، والخطاب للنبي ﷺ على وجه التسلية له، والوعيد لهم.

﴿نَكِيرِ﴾ مصدر بمعنى الإنكار.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ العرش: السقف، فإن تعلق الجار بخاوية فالمعنى أن العروش سقطت ثم سقطت الحيطان عليها فهي فوقها، وإن كان الجار والمجرور في موضع الحال، فالمعنى: أنها خاوية مع بقاء عروشها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي لا يستقى الماء منها لهلاك أهلها، وروي: أن هذه البئر هي الرس[1]، وكانت بعدن لأمة من بقايا ثمود، والأظهر أنه لم يرد التعيين لقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وهذا اللفظ يراد به التكثير. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي مبني بالشيد وهو الجص، وقيل: المشيد المرفوع البنيان.

(١) لم أجده مسندا.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ • قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

ثمن

﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على أن العقل في القلب، خلافا للفلاسفة في قولهم: إنه في الدماغ. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تعمى الأبصار عمى يعتد به، وإنما العمى الذي يعتد به عمى القلوب، وإن هؤلاء القوم ما عميت أبصارهم ولكن عميت قلوبهم، فالمعنى الأول لقصد المبالغة، والثاني خاص بهؤلاء القوم. ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ مبالغة كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الضمير لكفار قريش. ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إخبار يتضمن الوعيد بالعذاب، وسماه وعدا لأن المراد به مفهوم. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ المعنى أن يوما من أيام الآخرة مقداره ألف سنة من أعوام الدنيا، ولذلك قال ﷺ: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة**»[1] وقيل المعنى: إن يوما واحدا من أيام العذاب كألف سنة لطول العذاب، فإن أيام البؤس طويلة وإن كانت في الحقيقة قصيرة، وفي كل واحد من الوجهين تهديد للذين استعجلوا العذاب، إلا أن الأول أرجح؛ لأن الألف سنة فيه حقيقة، وقيل: إن اليوم المذكور في الآية هو يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ ذكر أولا القرى التي أهلكها بغير إملاء، وذكر هنا التي

---

(١) صحيح أخرجه الترمذي الحديث رقم: (٢٣٥٣)، وابن ماجه الحديث رقم: (٤١٢٢)، والنسائي في تفسيره رقم: (٣٦٨)، وأحمد: ٢٩٦/٢، وابن حبان في صحيحه: ٢٩٦/٢.

أهلكها بعد الإملاء، والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة فيما بعد، وعطف هذه الجملة بالواو على الجمل المعطوفة قبلها بالواو، وقال في الأولى فكأين لأنه بدل من قوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿سَعَوْا فِي ءَايَٰتِنَا﴾ أي سعوا فيها بالطعن عليها وهو من قولك: سعى في الأمر إذا جد فيه لقصد إصلاحه أو إفساده. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بالألف أي مغالبين لأنهم قصدوا عجز صاحب الآيات، والآيات تقتضي عجزهم فصارت مفاعلة وقرئ[1] بالتشديد من غير ألف ومعناه أنهم يعجزون الناس عن الإسلام أي يثبطونهم عنه.

﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ النبيء أعم من الرسول، فكل رسول نبيء وليس كل نبيء رسولا، فقدم الرسول لمناسبته لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وأخر النبي لتحصيل العموم، لأنه لو اقتصر على رسول لم يدخل في ذلك من كان نبيئا غير رسول ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ سبب هذه الآية[2] أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم بالمسجد الحرام بمحضر المشركين والمسلمين، فلما بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ألقى الشيطان: تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى، فسمع ذلك لمشركون ففرحوا به، وقالوا هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد. واختلف في كيفية إلقاء الشيطان، فقيل: إن الشيطان هو الذي تكلم بذلك، وظن الناس أن النبي ﷺ هو المتكلم به؛ لأنه قرب صوته من صوت النبي ﷺ حتى التبس الأمر على المشركين، وقيل: إن النبي ﷺ هوالذي تكلم بذلك على وجه الخطإ والسهو؛ لأن الشيطان أنساه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الكلمة على لسانه من غير قصد، والقول الثاني أشهر عند المفسرين

---

(١) ﴿معاجزين﴾ هنا وفي الموضعين من سبإ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الجيم من غير ألف في الثلاثة، وقرأ الباقون بالتخفيف والألف فيهن. النشر: ٢/٣٦٧.

(٢) أخرجه الكلبي في تفسيره كما في فتح الباري ٨/٦٦ بسند ضعيف، وهذا الأثر باطل رواية ودراية عند أهل التحقيق، وألف العلماء تآليف كثيرة في رده.

والناقلين لهذه القصة، والقول الأول أرجح لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم في التبليغ، فمعنى الآية أن كل نبي وكل رسول قد جرى له مثل ذلك من إلقاء الشيطان. واختلف في معنى تمنى وأمنيته في هذه الآية، فقيل: تمنى بمعنى تلا، والأمنية التلاوة، أي إذا قرأ الكتاب ألقى الشيطان من عنده في تلاوته، وقيل: هو من التمني بمعنى حب الشيء، وهذا المعنى أشهر في اللفظ، أي تمنى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقاربة قومه واستئلافهم، وألقى الشيطان ذلك في هذه الأمنية ليعجبهم ذلك. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يبطله كقولك: نسخت الشمس الظل.

﴿لِّيَجْعَلَ﴾ متعلق بقوله ينسخ ويحكم. ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي أهل الشك. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المكذبون، وقيل الذين في قلوبهم مرض عامة الكفار والقاسية قلوبهم أشدهم كفرا وعتوا، كأبي جهل. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني بالظالمين المذكورين قبل، ولكنه جعل الظاهر موضع المضمر ليقضي عليهم بالظلم، والشقاق العداوة ووصفه ببعيد لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قيل: يعني الصحابة، واللفظ أعم من ذلك. ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير عائد على القرآن، قال الزمخشري: هو لتمكين الشيطان من الإلقاء. ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي تخشع.

﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الضمير للقرآن أو للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إلقاء الشيطان. ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يعني يوم بدر، ووصفه بالعقيم لأنه لا ليلة لهم بعده ولا يوم، لأنهم يقتلون فيه، وقيل: هو يوم القيامة والساعة مقدماته ويقوي ذلك قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ثم قسم الناس إلى قسمين: أصحاب الجحيم، وأصحاب النعيم.

﴿قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ روي: أن قوما قالوا يا رسول الله قد علمنا ما أعطى الله لمن قتل من الخيرات فما لمن مات معك فنزلت الآية[1] معلمة أن الله يرزق من

(١) لم أقف عليه.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

ربع

قتل ومن مات معا، ولا يقتضي ذلك المساواة بينهم؛ لأن تفضيل الشهداء ثابت. ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ يحتمل أن يريد به الرزق في الجنة بعد يوم القيامة، أو رزق الشهداء في البرزخ، والأول أرجح؛ لأنه يعم الشهداء والموتى.

﴿مُّدْخَلًا﴾ يعني الجنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ تقديره هنا الأمر ذلك، كما يقول الكاتب: هذا وقد كان كذا إذا أراد أن يخرج إلى حديث آخر.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سمى الابتداء عقوبة باسم الجزاء عليها تجوزا كما تسمى العقوبة أيضا باسم الذنب ووعد بالنصر لمن بغي عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إن قيل: ما مناسبة هذين الوصفين للمعاقبة؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن في ذكر هذين الوصفين إشعارا بأن العفو أفضل من العقوبة فكأنه حض على العفو.

والثاني: أن في ذكرهما إعلاما بعفو الله عن المعاقب، حين عاقب ولم يأخذ بالعفو الذي هو أولى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في اليل، ومعنى الإيلاج هنا: أنه يدخل ظلمة هذا في مكان ضوء هذا، ويدخل ضوء هذا مكان ظلمة هذا، وقيل:

الإيلاج هو ما ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الوصف الذي وصف الله به، هو بسبب أنه الحق.

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ تصبح هنا بمعنى تصير وفهم بعضهم أنه أراد صبيحة ليلة المطر فقال لا تصبح الأرض مخضرة إلا بمكة والبلاد الحارة، وأما على معنى تصير فذلك عام في كل بلد، والفاء للعطف وليست بجواب، ولو كانت جوابا لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لنصبت الفعل وكان المعنى نفي خضرتها، وذلك خلاف المقصود، وإنما قال تصبح بلفظ المضارعة ليفيد بقاءها كذلك مدة. ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني البهائم والثمار والمعادن وغير ذلك. ﴿أَن تَقَعَ﴾ في موضع مفعول على تقدير عن أن تقع، وقال الزمخشري: كراهة أن تقع فهو مفعول من أجله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، فجعل طي السماء كوقوعها أو يريد بإذنه لو شاء متى شاء.

﴿أَحْيَاكُمْ﴾ أي أوجدكم بعد العدم، وعبر عن ذلك بالحياة لأن الإنسان قبل ذلك تراب فهو جماد بلا روح، ثم أحياه بنفخ الروح. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني الموت المعروف. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني البعث. ﴿لَكَفُورٌ﴾ أي جحود للنعمة.

﴿مَنسَكًا﴾ هو اسم مصدر لقوله: ﴿نَاسِكُوهُ﴾ ولو كان اسم مكان لقال ناسكون فيه. ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ ضمير الفاعل للكفار، والمعنى أنهم لا ينبغي لهم منازعة النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه، فجاء الفعل بلفظ النهي والمراد غير النهي. وقيل: المعنى لا تنازعهم فينازعوك، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، ويحتمل أن يكون نهيا لهم عن المنازعة على ظاهر اللفظ. ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي في الدين والشريعة، أو في الذبائح. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي ادع الناس إلى عبادة ربك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

حزب

﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ الآية تقتضي موادعة منسوخة بالقتال.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، والإشارة بذلك إلى معلومات الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى كتب المعلومات في الكتاب، أو إلى الحكم في الاختلاف، والأول أظهر.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يعني الأصنام والسلطان هنا الحجة والبرهان ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ قيل: إنه يعني ما ليس لهم به علم ضروري فنفى أولا البرهان النظري، ثم العلم الضروري، وليس اللفظ بظاهر في هذا المعنى، بل الأحسن نفي العلم الضروري والنظري معا.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ أي الإنكار لما يسمعون فالمنكر مصدر كالمكرم بمعنى الإكرام، ويعرف ذلك في وجوههم بعبوسها وإعراضها. ﴿يَسْطُونَ﴾ من السطوة وهي سرعة البطش. ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكون النار مبتدإ ووعدها الله خبره أو يكون النار خبر ابتداء، كأن قائلا قال: ما هو؟ فقيل: هو النار ويكون وعدها الله استئنافا وهذا أظهر.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي ضربه الله لإقامة الحجة على المشركين. ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ تنبيه بالأصغر على الأكبر من باب أولى وأحرى، والمعنى أن الأصنام التي تعبدونها لا تقدر على خلق الذباب ولا غيره، فكيف تعبدون من دون الله الذي خلق كل شيء، ثم أوضح عجزهم بقوله: ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي لو تعاونوا على

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

خلق الذباب لم يقدروا عليه. ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ بيان أيضا بعجز الأصنام بحيث لو اختطف الذباب منهم شيئا لم يقدروا على استنقاذه منه على حال ضعفه، وقد قيل: إن المراد بما يسلب الذباب منهم: الطيب الذي كانت تجعله العرب على الأصنام واللفظ أعم من ذلك. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ المراد بالطالب الأصنام وبالمطلوب الذباب؛ لأن الأصنام تطلب من الذباب ما سلبته منها، وقيل: الطالب الكفار والمطلوب الأصنام؛ لأن الكفار يطلبون الخير منهم.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رد على من أنكر أن يكون الرسول من البشر.

﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ في هذه الآية سجدة عند الشافعي وغيره، للحديث الصحيح[1] الوارد في ذلك، خلافا للمالكية. ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ عموم في العبادة بعد ذكر الصلاة التي عبر عنها بالركوع والسجود، وإنما قدمها لأنها أهم العبادات. ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ قيل: المراد صلة الرحم، وقال ابن عطية: هي في

(١) ولفظه: قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَقْرَأْهُمَا». أبو داود الحديث رقم: (١٤٠٤)، والترمذي الحديث رقم: (٥٧٨)، وأحمد: ٤/١٥١، والدارقطني في سننه: ١/٤٠٨. الحديث صححه أحمد شاكر كما في حاشيته على سنن الترمذي: ٢/٤٧١، وحسنه الألباني كما في تعليقه على سنن أبي داود: ١/٥٣٠.

الندب مما[1] عدا الواجبات، واللفظ أعم من ذلك كله.

﴿وَجَاهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد جهاد الكفار أو جهاد النفس والشيطان أو الهوى أو العموم في ذلك. ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قيل إنه منسوخ كنسخ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بقوله ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وفي ذلك نظر وإنما أضاف الجهاد إلى الله ليبين بذلك فضله واختصاصه بالله. ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اختاركم من بين الأمم. ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي مشقة، وأصل الحرج الضيق. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ انتصب ملة بفعل مضمر، تقديره: أعني بالدين ملة إبراهيم، أو التزموا ملة إبراهيم، وقال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف، كأنه قال كملة، وقال الزمخشري: انتصب بمضمون ما تقدم كأنه قال: وسع عليكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم، ثم حذف المضاف، فإن قيل: لم يكن إبراهيم أبا للمسلمين كلهم، فالجواب: أنه أبا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبا لأمته لأن أمة الرسول في حكم أولاده، ولذلك قرئ[2]: (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)، وأيضا: فإن قريشا وأكثر العرب من ذرية إبراهيم، وهم أكثر الأمة، فاعتبرهم دون غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ الضمير لله تعالى، ومعنى من قبل في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي في القرآن، وقيل: الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ على هذا من قبل وجودكم، وهنا يتم الكلام على هذا القول، ويكون قوله ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ مستأنفا، أي وفي هذا إبلاغ، والقول الأول أرجح وأقل تكلفا، ويدل عليه قراءة أبي بن كعب «الله سماكم المسلمين»[3]. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ تقدم معنى هذه الشهادة في البقرة. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الظاهر أنها المكتوبة به لاقترانها مع الزكاة. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ معناه هنا وليكم وناصركم بدلالة ما بعد ذلك.

---

(١) في نسخة (ف) والمطبوع (فيما).

(٢) هذه القراءة تعزى لابن مسعود، وابن عباس وغيرهما. الطبري في جامع البيان: ٢٠/٢٠٩، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤/٤٢٥، والكشاف للزمخشري: ٣/٥٣٢.

(٣) لم أجده مسندا، وفي الطبري بسنده عن عطاء بن أبي رباح، أنه سمع ابن عباس يقول: «الله سماكم المسلمين من قبل». ١٨/٦٩١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

سورة المؤمنون

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوع: حالة في القلب من الخوف والمراقبة والتذلل لعظمة المولى جل جلاله، ثم يظهر أثر ذلك على الجوارح بالسكون والإقبال على الصلاة وعدم الالتفات والبكاء والتضرع، وقد عد بعض الفقهاء الخشوع في فرائض الصلاة؛ لأنه جعله بمعنى حضور القلب فيها، وقد جاء في الحديث: «لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»(١) والصواب أن الخشوع أمر زائد على حضور القلب، فقد يحضر القلب ولا يخشع.

﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو هنا الساقط من الكلام، كالسب واللهو والكلام بما لا يعني وعدد أنواع المنهي عنه من الكلام عشرون نوعا، ومعنى الإعراض عنه: عدم الاستماع إليه والدخول فيه، ويحتمل أن يريد أنهم لا يتكلمون به ولكن إعراضهم عن سماعه يقتضي ذلك من باب أولى وأحرى.

﴿لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي مؤدون فإن قيل: لم قال ﴿فَاعِلُونَ﴾ ولم يقل

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ مرفوعا، وفي سنن أبي داود عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاَتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا» الحديث رقم: (٦٩٦)، والنسائي في الكبرى: ٢٨١/٢، وأحمد: ٣١٩/٤.

وفي حلية الأولياء: عن سفيان: يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها، ٦١/٧، وهو في مدارج السالكين: ٢٥٩/١ باللفظ الذي أورده المؤلف، لكنه لم ينسبه للحديث.

مؤدون؟ فالجواب: أن الزكاة لها معنيان:

أحدهما: الفعل الذي يفعله المزكي أي أداء ما يجب على المال.

والآخر: المقدار المخرج من المال كقولك: هذه زكاة مالي، والمراد هنا الفعل لقوله: ﴿فَاعِلُونَ﴾ ويصح المعنى الآخر على حذف تقديره، هم لأداء الزكاة فاعلون.

﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ هذا المجرور يتعلق بفعل يدل عليه قوله: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي لا يلامون على أزواجهم، ويمكن أن يتعلق بقوله: ﴿حَافِظُونَ﴾ على أن يكون على بمعنى عن. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني النساء المملوكات، قال الزمخشري: إنما قال ما ملكت ولم يقل من لأن الإناث يجرين مجرى غير العقلاء.

﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ يعني ما سوى الزوجات والمملوكات.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد أمانة الناس وعهدهم، أو أمانة الله وعهده في دينه، أو العموم، والأمانة أعم من العهد؛ لأنها قد تكون بعهد وبغير عهد متقدم. ﴿رَاعُونَ﴾ أي حافظون لها قائمون بها.

﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المحافظة عليها هي فعلها في أوقاتها مع توفية شروطها، **فإن قيل**: كيف كرر ذكر الصلوات أولا وآخرا؟ **فالجواب**: أنه ليس بتكرار لأنه قد ذكر أولا الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها، فهما مختلفان، وأضاف الصلاة في الموضعين إليهم دلالة على ثبوت فعلهم لها.

﴿الْوَٰرِثُونَ﴾ أي المخلصون للجنة فالميراث استعارة، وقيل: إن الله جعل لكل إنسان مسكنا في الجنة ومسكنا في النار، فيرث المؤمنون مساكن الكفار في الجنة.

﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ مدينة الجنة، وهي جنة الأعناب، وأعاد الضمير عليها مؤنثا على معنى الجنة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ اختلف: هل يعني آدم، أو جنس بني آدم؟ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ السلالة هي ما يسل من الشيء أي ما يستخرج منه، ولذلك قيل: إنها الخلاصة، والمراد بها هنا القطعة التي أخذت من الطين وخلق منها آدم، فإن أراد بالإنسان آدم فالمعنى: أنه خلق من تلك السلالة المأخوذة من الطين، ولكن قوله بعد هذا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ لا بد أن يراد به بنو آدم، فيكون الضمير يعود على غير مذكور، ولكن يفسره سياق الكلام وإن أراد بالإنسان ابن آدم فيستقيم عود الضمير عليه، ويكون معنى خلقه من سلالة من طين أي خلق أصله وهو أبوه آدم، ويحتمل عندي أن يراد بالإنسان الجنس الذي يعم آدم وذريته، فأجمل ذكر الإنسان أولا، ثم فصله بعد ذلك إلى الخلقة المختصة بآدم وهي من طين وإلى الخلقة المختصة بذريته وهي النطفة، فإن قيل: ما الفرق بين من ومن؟ فالجواب على ما قال الزمخشري: أن الأولى للابتداء، والثانية للبيان، كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾.

﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني رحم الأم ومعنى مكين متمكن وذلك في الحقيقة من صفة النطفة المستقرة لا من صفة المحل المستقر فيه، ولكنه كقولك طريق سائر أي يسير الناس فيه، وقد تقدم تفسير النطفة والمضغة والعلقة في أول الحج.

﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قيل: هو نفخ الروح فيه، وقيل: خروجه إلى الدنيا، وقيل: استواء الشباب، وقيل: على العموم من نفخ الروح فيه إلى موته. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ هو مشتق من البركة، وقيل: معناه تقدس. ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي أحسن الخالقين خلقا، فحذف التمييز لدلالة الكلام عليه، وفسر بعضهم الخالقين بالمقدرين فرارا من وصف المخلوق بأنه خالق، ولا يجب أن ينفى عن المخلوق أنه خالق بمعنى صانع، كقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ وإنما الذي يجب أن ينفى عنه معنى الاختراع والإيجاد من العدم فهذا هو الذي انفرد الله به.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ • وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني السموات، وسماها طرائق؛ لأن بعضها طورق[1] فوق بعض، كمطارقة النعل، وقيل: يعني الأفلاك؛ لأنها طرق للكواكب. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ يحتمل أن يريد بالخلق المخلوقين أو المصدر.

﴿بِقَدَرٍ﴾ يعني المطر الذي ينزل من السماء فتكون منه العيون والأنهار في الأرض، وقيل: يعني أربعة أنهار، وهي: النيل، والفرات، ودجلة، وسيحان، ولا دليل على هذا التخصيص، ومعنى بقدر بمقدار معلوم لا يزيد عليه ولا ينقص منه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتون، وإنما خص النخيل والأعناب والزيتون بالذكر؛ لأنها أكرم الشجر وأكثرها منافع، وطور سيناء جبل بالشام وهو الذي كلم الله عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وينسب الزيتون إليه؛ لأنها فيه كثيرة، وسيناء اسم جبل أضافه إليه، كقوله: جبل أحد وقرئ[2] بفتح السين ولم ينصرف للتأنيث اللازم، وقرئ بالكسر ولم ينصرف للعجمة أو للتأنيث مع التعريف؛ لأن فعلاء بالكسر لا تكون ألفه للتأنيث، وقيل: معناه مبارك، وقيل: ذو شجرة، ويلزم على ذلك صرفه. ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ يعني الزيت، وقرئ[3] تنبت بفتح

(١) في المطبوع طرق.

(٢) ﴿طور سيناء﴾ قرأ المدنيان وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٢/٣٦٨.

(٣) ﴿تنبت بالدهن﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم التاء وكسر الباء، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الباء. النشر المصدر السابق.

التاء فالمجرور على هذا في موضع الحال، كقولك: جاء زيد بسلاحه، وقرئ بضم التاء وكسر الباء وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: أن أنبت بمعنى نبت.

والثاني: حذف المفعول، تقديره: تنبت ثمرتها بالدهن.

والثالث: زيادة الباء.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ الصبغ الغمس في الإدام.

﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، والمقصود بالذكر الإبل لقوله ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وقد تقدم في النحل ذكر المنافع التي فيها وتذكيرها وتأنيثها.

﴿مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ﴾ استبعدوا أن تكون النبوءة لبشر فيا عجبا منهم إذ أثبتوا الربوبية لحجر. ﴿يُرِيدُ أَنْ يَّتَفَضَّلَ﴾ أي يطلب الفضل والرياسة عليكم. ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بمثل ما دعاهم إليه من عبادة الله، أو بمثل الكلام الذي قال لهم، وهذا يدل على أنه كان قبل نوح فترة طويلة.

﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون فانظر اختلاف قولهم فيه فتارة نسبوه إلى طلب الرياسة وتارة إلى الجنون. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى وقت لم يعينوه، ولكن أرادوا وقت زوال جنونه على قولهم، أو وقت موته.

﴿انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تضمن هذا دعاء عليهم لأن نصرته إنما هي بإهلاكهم وقد تقدم في هود تفسير: بأعيننا، ووحينا، وفار التنور، ولا تخاطبني.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخل فيها، وقد تقدم تفسير زوجين اثنين.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة ومبتلين اسم فاعل من ابتلى، ويحتمل أن يكون بمعنى الاختبار أو إنزال البلاء.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

ربع

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ قيل: إنهم عاد، ورسولهم هود؛ لأنهم الذين يلون قوم نوح، وقيل: إنهم ثمود ورسولهم صالح، وهذا أصح لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وثمود هم الذين أهلكوا بالصيحة، وأما عاد فأهلكوا بالريح.

﴿مِن قَوْمِهِ﴾ قدم هذا المجرور على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لئلا يوهم أنه متصل بقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بخلاف قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ في غير هذا الموضع. ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ أي نعمناهم. ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يحتمل أنهم قالوا ذلك لإنكارهم أن يكون نبي من البشر، أو قالوه أنفة من اتباع بشر مثلهم، وكذلك قال قوم نوح.

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد. ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ كرر أن تأكيدا للأولى، ومخرجون خبر عن الأولى.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ هذا من حكاية كلامهم وهيهات اسم فعل بمعنى بعد، وقال الغزنوي: هي للتأسف والتأوه، ويجوز فيه الفتح[1] والضم والكسر، والإسكان، وتارة يجيء فاعله دون لام كقوله[2]:

---

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿هيهات هيهات﴾ فقرأ أبو جعفر بكسر التاء منهما، وقرأ الباقون بفتحها فيهما. النشر: ٢/٣٦٨، وباقي الأوجه ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/١٧٤.

(٢) القائل جرير، والبيت بكماله هو:

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ وأهلُهُ ... وهيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نُواصِلُهْ

اللباب في علوم الكتاب: ١٤/٢٠٦، والمحرر الوجيز: ٤/١٧٤.

فهيهات هيهات العقيق وأهله...

وتارة يجيء باللام كهذه الآية قال الزجاج في تفسيره: البعد لما توعدون، فنزله منزلة المصدر، قال الزمخشري: وفيه وجه آخر وهي أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في هيت لك لبيان المهيت به.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، فوضع هي موضع الحياة لدلالة الخبر عليها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعض ويولد بعض، فينقرض قرن ويحدث قرن آخر ومرادهم إنكار البعث.

﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ما زائدة، وقيل: صفة للزمان، والتقدير: عن زمان قليل يندمون.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾ يعني هالكين كالغثاء، والغثاء ما يحمله السيل من الورق وغيره مما يبلى ويسود، فشبه به الهالكين. ﴿فَبُعْداً﴾ مصدر وضع موضع الفعل بمعنى بعدوا أي هلكوا، والعامل فيه مضمر لا يظهر.

﴿تَتْرَا﴾ مصدر ووزنه فعلى ومعناه التواتر والتتابع، وهو موضوع موضع الحال أي متواترين واحدا بعد واحد، فمن قرأه بالتنوين[1] فألفه للإلحاق ومن قرأه بغير تنوين فألفه للتأنيث فلم ينصرف، وتأنيثه لأن الرسل جماعة والتاء الأولى فيه بدل من واو هي فاء الكلمة. ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي يتحدث الناس بما جرى عليهم، ويحتمل أن يكون جمع حديث أو جمع أحدوثة، وهذا أليق لأنها تقال في الشر.

﴿قَوْماً عَالِينَ﴾ أي متكبرين.

(١) ﴿تترا﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين. النشر: ٢/٣٦٨.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَاعْمَلُوا صَـٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ • إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ أي حامدون متذللون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الضمير لبني إسرائيل لا لقوم فرعون لأنهم هلكوا قبل إنزال التوراة.

﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَا إِلَىٰ رُبْوَةٍ﴾ الربوة الموضع المرتفع من الأرض، ويجوز فيها فتح الراء[1] وضمها وكسرها، واختلف في موضع هذه الربوة فقيل بيت المقدس، وقيل بغوطة دمشق، وقيل بفلسطين.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ القرار المستوي من الأرض فمعناه أنها بسيطة يمكن فيها الحرث والغراسة، وقيل: إن القرار هنا الثمار والحبوب، والمعين الماء الجاري، فقيل: إنه مشتق من قولك: معن الماء إذا كثر، فالميم على هذا أصلية ووزنه فعيل، وقيل: إنه مشتق من العين فالميم زائدة ووزنه مفعول.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ هذا النداء ليس على ظاهره؛ لأن الرسل كانوا في أزمنة متفرقة، وإنما المعنى أن كل رسول في زمانه خوطب بذلك، وقيل: الخطاب لسيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقامه مقام الجماعة وهذا بعيد. ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي من الحلال، فالأمر على هذا للوجوب، أو من المستلذات فالأمر للإباحة. ﴿وَأَنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قرئ[2] إن بالكسر على الاستئناف، وبالفتح على معنى لأن

(١) ﴿ربوة﴾ قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء، وقرأ الباقون بضمها. النشر: ٢٦٨/٢، وقال ابن عطية: وقرأ ابن عباس ونصر عن عاصم: بكسرها. المحرر الوجيز: ١٧٦/٤.

(٢) قال الداني: الكوفيون: ﴿وإن هذه﴾ بكسر الهمزة، والباقون بفتحها، وخفف ابن عامر النون وشددها الباقون. التيسير، ص: ١٠٧.

وهي متعلقة بقوله آخرا.

﴿فَاتَّقُونِ﴾ وقيل: تتعلق بفعل مضمر، تقديره: واعلموا، والأمة هنا الدين وهو ما اتفقت عليه الرسل من التوحيد وغيره.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ أي افترقوا واختلفوا، والضمير لأمم الرسل المذكورين من اليهود والنصارى وغيرهم. ﴿زُبُرًاۖ﴾ جمع زبور وهو الكتاب، والمعنى أنهم افترقوا في اتباع الكتب فاتبعت طائفة التوراة وطائفة الإنجيل وغير ذلك، ووضعوا كتابا من عند أنفسهم.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ الضمير لقريش، والغمرة الجهل والضلال وأصلها من غمرة الماء. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هنا يوم بدر أو يوم موتهم.

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ الآية رد عليهم فيما ظنوا من أن أموالهم وأولادهم خير لهم، وأنهم سبب لرضا الله عنهم.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ﴾ هذا خبر أن والضمير الرابط محذوف، تقديره: نسارع به. ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون أن ذلك استدراج لهم ففيه معنى التهديد.

﴿يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ﴾ قيل: معناه يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، وقيل: إنه عام في جميع أفعال البر أي يفعلونها وهم يخافون أن لا تقبل منهم، وقد روت عائشة هذا المعنى عن النبي[1] ﷺ إلا أنها قرأت: «يأتون ما أتوا»[2]

(١) الترمذي الحديث رقم: (٣١٧٥)، وأحمد في مسنده: ١٥٩/٦، والحاكم في المستدرك: ٣٩٣/٢، والطبري في جامع البيان: ٤٦/١٩، والبغوي في معالم التنزيل: ٤٢١/٥.

(٢) أخرجه أحمد: ٩٥/٦، والسيوطي في الدر المنثور: ١٠٦/٦، والحاكم في المستدرك: ٢٣٥/٢، وصححه، وتعقبه الذهبي. قال ابن عطية: وقرأت عائشة أم المؤمنين وابن عباس وقتادة والأعمش: يأتون ما أتوا ومعناه يفعلون ما فعلوا، ورويت هذه القراءة عن النبي ﷺ. المحرر الوجيز: ١٧٩/٤.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

بالقصر، فيحتمل أن يكون الحديث تفسيرا لهذه القراءة، وقيل: إنه عام في الحسنات والسيئات، أي يفعلونها وهم خائفون من الرجوع إلى الله. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أن في موضع المفعول من أجله أو في موضع المفعول بوجلت إذ هي في معنى خائفة.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: أنهم يبادرون إلى فعل الطاعات.

والآخر: أنهم يتعجلون ثواب الخيرات وهذا مطابق للآية المتقدمة؛ لأنه أثبت فيهم ما نفي عن الكفار من المسارعة.

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فيه المعنيان المذكوران في يسارعون للخيرات، وقيل: معناه سبقت لهم السعادة في الأزل.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني أن هذا الذي وصف به الصالحون غير خارج عن الوسع والطاقة، وقد تقدم الكلام على تكليف ما لا يطاق في البقرة. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يعني صحائف الأعمال، ففي الكلام تهديد وتأمين من الظلم والحيف.

﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي في غفلة من الدين بجملته، وقيل: من القرآن، وقيل: من الكتاب المذكور، وقيل: من الأعمال التي وصف بها المؤمنون. ﴿وَلَهُمْ

أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي لهم أعمال سيئة دون الغمرة التي هم فيها، فالمعنى: أنهم يجمعون بين الكفر وسوء الأعمال، والإشارة بذلك على هذا إلى الغمرة، وإنما أشار إليها بالتأكيد لأنها في معنى الكفر، وقيل: الإشارة إلى قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي لهم أعمال سيئة غير المشار إليه حسبما اختلف فيه. ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قيل: هي إخبار عن أعمالهم في الحال، وقيل: عن الاستقبال، وقيل: المعنى أنهم يتمادون على عملها حتى يأخذهم الله فجعل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ غاية لقوله: عاملون.

﴿مُتْرَفِيهِم﴾ أي أغنياؤهم وكبراؤهم. ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي يستغيثون ويصيحون، فإن أراد بالعذاب قتل المترفين يوم بدر، فالضمير في يجأرون لسائر قريش، أي صاحوا وناحوا على القتلى، وإن أراد بالعذاب شدائد الدنيا أو عذاب الآخرة، فالضمير لجميعهم.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ تقديره: يقال لهم يوم العذاب لا تجأروا، ويحتمل أن يكون هذا القول حقيقة وأن يكون بلسان الحال، ولفظه نهي ومعناه أن الجؤار لا ينفعهم.

﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي ترجعون إلى وراء، وذلك عبارة عن إعراضهم عن الآيات وهي القرآن.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ قيل: إن الضمير عائد على المسجد الحرام، أو على الحرم وإن لم يذكر؛ ولكنه يفهم من سياق الكلام، والمعنى: أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام لأنهم أهله وولاته، وقيل: إنه عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات، والمعنى على هذا أن القرآن يحدث لهم عتوا وتكبرا، وقيل: إنه يعود على النبي ﷺ، وهو على هذا متعلق بسامراً. ﴿سَامِرًا﴾ مشتق من السمر وهو الجلوس بالليل للحديث، وكانت قريش تجتمع بالليل في المسجد فيتحدثون، وكان

أكثر حديثهم سب النبي ﷺ، وسامراً مفرد بمعنى الجمع، وهو منصوب على الحال، فمن جعل الضمير في به للنبي ﷺ، فالمعنى: أنهم سامرون بذكره وسبه. ﴿تُهْجِرُونَ﴾ من قرأ بضم التاء[1] وكسر الجيم فمعناه تقولون الهجر بضم الهاء وهو الفحش من الكلام، ومن قرأ بفتح التاء وضم الجيم فهو من الهجر بفتح الهاء أي تهجرون الإسلام والنبي ﷺ والمؤمنين، أو من قولك: هجر المريض إذا هذى، أي تقولون اللغو من القول.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني القرآن وهذا توبيخ لهم. ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناه أن النبوءة ليست ببدع فينكرونها، بل قد جاءت آباءهم الأولين، فقد كانت النبوءة لنوح وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ المعنى: أم لم يعرفوا محمدا ﷺ ويعلموا أنه أشرفهم حسبا، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأرجحهم عقلا، فكيف ينسبونه إلى الكذب، أو إلى الجنون، أو غير ذلك من النقائص، مع أنه جاءهم بالحق الذي لا يخفى على كل ذي عقل سليم، وأنه عين الصواب.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الاتباع هنا استعارة، والحق هنا يراد به الصواب والأمر المستقيم، فالمعنى: لو كان الأمر على ما تقتضي أهواءهم من الشرك بالله واتباع الباطل لفسدت السموات والأرض كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وقيل: إن الحق في الآية هو الله تعالى، وهذا بعيد في المعنى، وإنما حمله عليه أن جعل الاتباع حقيقة ولم يفهم فيه الاستعارة، وإنما الحق هنا هو المذكور في قوله: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون بتذكيرهم ووعظهم أو بفخرهم وشرفهم وهذا أظهر.

---

(١) ﴿تهجرون﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. النشر: ٣٦٨/٢.

ربع

• وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اَسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُواْ أَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجاً﴾ الخرج هو الأجرة، ويقال فيه خراج، والمعنى واحد وقرئ[1] بالوجهين في الموضعين فهو كقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ أي لست تسألهم أجرا فيثقل عليهم اتباعك. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزق ربك خير من أموالهم، فهو يرزقك ويغنيك عنهم.

﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي عادلون ومعرضون عن الصراط المستقيم.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ الآية قال الأكثرون: نزلت هذه الآية[2] حين دعا رسول الله ﷺ على قريش بالقحط، فنالهم الجوع حتى أكلوا الجلود وغيرها، فالمعنى: لو رحمناهم بالخصب، وكشفنا ما بهم من ضر الجوع والقحط، لتمادوا على طغيانهم، وفي هذا عندي نظر، فإن الآية مكية باتفاق، وإنما دعا النبي ﷺ على قريش بعد الهجرة حسبما ورد في الحديث[3]، وقيل المعنى: لو رحمناهم

(١) ﴿خراجا﴾ هنا والحرف الأول من المؤمنون، فقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها في الموضعين، وقرأ االباقون بإسكان الراء من غير ألف فيهما، وقرأ ابن عامر ﴿فخرج ربك﴾ ثاني المؤمنين بإسكان الراء وقرأ الباقون بالألف. النشر: ٢/٣٥٤..

(٢) أخرجه النسائي: ٢/٩٨، والطبراني في المعجم الكبير: ١١/٣٧٠، وابن حبان في صحيحه: ٣/٢٤٧، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير: ٣/٢٥١، وحسنه ابن حجر في الفتح: ٦/٥١٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (١٠٠٧)، ومسلم في صحيحه الحديث رقم: (٢٧٩٨)، والترمذي في سننه الحديث رقم: (٣٢٥٤)، والنسائي في تفسيره: ١/٥١٩، وأحمد: ١/٣٨٠، وابن حبان في صحيحه: ١٤/٥٤٨.

بالرد إلى الدنيا بعد موتهم، لعادوا لما نهوا عنه، وهذا القول لا يلزم عليه ما يلزم على الآخر، ولكنه خارج عن معنى الآية.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ قيل: إن هذا العذاب هو الجوع بالقحط وأن الباب ذا العذاب الشديد المتوعد به بعد هذا يوم بدر، وهذا مردود بأن العذاب الذي أصابهم إنما كان بعد بدر، وقيل: إن العذاب الذي أخذهم هو يوم بدر والباب المتوعد به هو القحط، وقيل: الباب ذو العذاب الشديد عذاب الآخرة، وهذا أرجح، ولذلك وصفه بالشدة لأنه أشد من عذاب الدنيا، وقال: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي يائسون من الخير، وإنما يقع لهم اليأس في الآخرة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما تذللوا لله ﷻ، وقد تقدم الكلام على هذه الكلمة في آخر آل عمران. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إن قيل: هلا قال فما استكانوا وما تضرعوا، أو فما يستكينون وما يتضرعون باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال؟ فالجواب: أن ما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم، وما يتضرعون حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد، فنفى الاستكانة فيما مضى ونفى التضرع في الحال والاستقبال.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة وقليلا صفة لمصدر محذوف، تقديره: شكرا قليلا تشكرون، وذكر السمع والبصر والأفئدة وهي القلوب لعظم المنافع التي فيها، فيجب شكر خالقها، ومن شكره توحيده واتباع رسوله ﷺ، ففي ذكرها تعديد نعمة وإقامة حجة.

﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نشركم فيها.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي هو فاعله ومختص به فاللام على هذا للاختصاص، وقد ذكر في البقرة معنى اختلاف الليل والنهار.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي قالت قريش مثل قول الأمم المتقدمة،

ثم فسر قولهم بإنكارهم البعث وإليه الإشارة بقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ وقد ذكر الاستفهامان في الرعد، وأساطير الأولين في الأنعام.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ هذه الآيات توقيف لهم على أمور لا يمكنهم الإقرار بها، وإذا أقروا بها لزمهم توحيد خالقها والإيمان بالدار الآخرة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرئ[1] في الأول لله باللام بإجماع جوابا لقوله ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ وكذلك قرأ الجمهور الثاني والثالث، وذلك على المعنى لأن قوله: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في معنى لمن هي؟ وقرأ أبو عمرو الثاني والثالث بالرفع على اللفظ.

﴿مَلَكُوتُ﴾ مصدر وفي بنائه مبالغة. ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الإجارة المنع من الإهانة، يقال: أجرت فلانا على فلان إذا منعته من مضرته وإهانته، فالمعنى أن الله تعالى يغيث من شاء ممن شاء، ولا يغيث أحد منه أحدا.

﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي تخدعون عن الحق، والخادع لهم الشيطان، وذلك تشبيه بالسحر في التخليط والوقوع في الباطل، ورتب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج، فقال أولا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال ثانيا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف، ثم قال ثالثا: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد، ولذلك رد عليهم بنفي ذلك.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ هذا برهان على الوحدانية، وبيانه أن يقال: لو كان مع الله إلها آخر لانفرد كل واحد منهما بمخلوقاته عن مخلوقات الآخر،

(١) انظر النشر في القرآت العشر لابن الجزري: ٣٦٩/٢.

ثمن

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

واستبد كل واحد منهما بملكه وطلب غلبة الآخر والعلو عليه، كما ترى حال ملوك الدنيا، ولكن لما رأينا جميع المخلوقات مرتبطة بعضها ببعض حتى كأن العالم كله كرة واحدة علمنا أن مالكه ومدبره واحد لا إله غيره، وليس هذا البرهان بدليل التمانع كما فهم ابن عطية وغيره بل هو دليل آخر.

فإن قيل: إذاً لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف دخلت هنا ولم يتقدم قبلها شرط ولا سؤال سائل؟ فالجواب: أن الشرط محذوف، تقديره: لو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وهو جواب للكفار الذين وقع الرد عليهم.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بالرفع خبر ابتداء وبالخفض صفة لله.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ الآية معناه أن الله أمر نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظالمين إن قضي أن يرى ذلك، وفيها تهديد للظالمين وهم الكفار، وإن شرطية وما زائدة وجواب الشرط ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ وكرر قوله رب مبالغة في الدعاء والتضرع.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ قيل: التي هي أحسن: لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك، والأظهر أنه أمر بالصفح والاحتمال وحسن الخلق، وهو محكم غير منسوخ، وإنما نسخ ما يقتضيه من مسالمة الكفار.

﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني نزغاته ووساوسه، وقيل: يعني الجنون، واللفظ أعم من ذلك.

﴿أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ معناه أن يكونوا معه، وقيل: يعني حضورهم عند الموت.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَا أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ قال ابن عطية: حتى هنا حرف ابتداء أي ليست غاية لما قبلها، وقال الزمخشري: حتى تتعلق بـ ﴿يَصِفُونَ﴾ أي لا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت. ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يعني الرجوع إلى الدنيا، وخاطب به مخاطبة الجماعة للتعظيم، قال ذلك الزمخشري وغيره، ومثله قول الشاعر:

❋ ألا فارحمون يا آل محمد ❋

وقيل: إنه نادى ربه ثم خاطب الملائكة.

﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قيل: يعني فيما تركت من المال، وقيل: فيما تركت من الإيمان، فهو كقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾، والمعنى أن الكافر رغب أن يرجع إلى الدنيا ليؤمن ويعمل صالحا في الإيمان الذي تركه أول مرة. ﴿كَلَّا﴾ ردع له عما طلب. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ فسمى هذا الكلام كلمة، وفي تأويل معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يقول هذه الكلمة لا محالة لإفراط ندمه وحسرته فهو إخبار بقوله.

والثاني: أن المعنى أنها كلمة يقولها، ولا تنفعه ولا تغني عنه شيئا.

والثالث: أن يكون المعنى أنه يقولها كاذبا فيها ولو رجع إلى الدنيا لم يعمل صالحا.

﴿وَمِنْ وَّرَآئِهِم﴾ أي: فيما يستقبلون من الزمان، والضمير للجماعة المذكورين في قوله: ﴿جَا أَحَدَهُمُ﴾. ﴿بَرْزَخٌ﴾ يعني المدة التي بين الموت والقيامة، وهي

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴿١٠٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيّاً حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٥﴾ • أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٧﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٨﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٩﴾

سُورَةُ النُّور — ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٢

ربع

تحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وأصل البرزخ الحاجز بين شيئين.

﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ المعنى أنه ينقطع يومئذ التعاطف والشفقة التي بين القرابة لاشتغال كل أحد بنفسه، كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، فتكون الأنساب كأنها معدومة. ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل واحد بنفسه، فإن قيل: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؟ فالجواب أن ترك التساؤل عند النفخة الأولى ثم يتساءلون بعد ذلك، فإن يوم القيامة يوم طويل، فيه مواقف كثيرة.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تصيبهم بالإحراق. ﴿كَالِحُونَ﴾ الكلوح: انكشاف الشفتين عن الأسنان، وكثيرا ما يجري ذلك للكلاب، وقد يجري للكباش إذا شويت رؤوسها، وفي الحديث[1] إن شفة الكافر ترتفع في النار حتى تبلغ وسط رأسه، وفي ذلك عذاب وتشويه.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي ما قدر عليهم من الشقاء وقرئ[2] شقاوتنا والمعنى واحد.

---

(١) ضعيف أخرجه الترمذي في سننه، الحديث رقم: (٣١٧٦)، وأحمد في المسند: ٨٨/٣، والحاكم في المستدرك: ٣٩٥/٢، والبغوي في معالم التنزيل: ٤٣٠/٥.

(٢) ﴿شقوتنا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين والقاف وألف بعدها، وقرأ الباقون بكسر الشين وإسكان القاف من غير ألف. النشر: ٣٦٩/٢.

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ﴾ كلمة تستعمل في زجر الكلاب، ففيها إهانة وإبعاد. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي لا تكلمون في رفع العذاب فحينئذ ييئسون من ذلك أعاذنا الله من ذلك برحمته.

﴿سُخۡرِيًّا﴾ بضم السين من السخرة بمعنى التخديم وبالكسر من السخر بمعنى الاستهزاء وقد يقال هذا بالضم وقرئ[1] هنا بالوجهين لاحتمال المعنيين على أن معنى الاستهزاء هنا أليق لقوله: ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾.

﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني في جوف الأرض أمواتا وقيل أحياء في الدنيا فأجابوا بأنهم لبثوا يوما أو بعض يوم لاستقصارهم المدة، أو لما هم فيه من العذاب بحيث لا يعدون شيئا.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: اسأل من يقدر على أن يعد وهو من عوفي مما ابتلوا به، أو يعنون الملائكة.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه أنه قليل بالنسبة إلى بقائهم في جهنم خالدين أبدا.

﴿عَبَثًا﴾ أي باطلا، والمعنى: إقامة حجة على الحشر للثواب والعقاب.

﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي لا حجة ولا دليل، والجملة صفة لقوله: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وجواب الشرط. ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الضمير للأمر والشأن، وانظر كيف افتتح السورة بفلاح المؤمنين، وختمها بعدم فلاح الكافرين، ليبين البون بين الفريقين؟ والله أعلم.

❊❊ ❊❊ ❊❊

---

(١) ﴿سخريا﴾ قرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف بضم السين، وقرأ الباقون بكسرها. المصدر السابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

سورة النور

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ السورة خبر ابتداء مضمر، أو مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: فيما أنزل عليكم سورة وأنزلناها صفة للسورة. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي فرضنا الأحكام التي فيها، وقرئ[1] بالتشديد للمبالغة. ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني ما فيها من المواعظ والأحكام والأمثال، وقيل: معنى ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ هنا ليس فيها مشكل.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الزانية والزاني يراد بهما الجنس، وقدم الزانية لأن الزنا كان حينئذ في النساء أكثر، فإنه كان منهن إماء وبغايا يجاهرن بذلك، وإعراب الزاني والزانية كإعراب السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما، وقد ذكر في المائدة، وهذه الآية ناسخة بإجماع لما في سورة النساء من الإمساك في البيوت في الآية الواحدة، ومن الأذى في الأخرى، ثم إن لفظ هذه الآية عند مالك ليس على عمومه، فإن جلد المائة إنما هو حد الزاني والزانية إذا كانا مسلمين حرين غير محصنين، فيخرج منها الكفار فيردون إلى أهل دينهم، ويخرج منها العبد والأمة، والمحصن والمحصنة.

فأما العبد والأمة فحدهما: خمسون جلدة سواء كانا محصنين أو غير

(١) ﴿وفرضناها﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بتشديد الراء، وقرأ الباقون بتخفيفها. النشر: ٢/٣٧٠، والتيسير، ص: ١٠٨.

محصنين، وأما المحصنان الحران فحدهما: الرجم، هذا على مذهب مالك.

وأما الكلام على الآية بالنظر إلى سائر المذاهب، فاعلم أن لفظ هذه الآية ظاهره العموم في المسلمين والكافرين، وفي الأحرار والعبيد والإماء، وفي المحصن وغير المحصن، ثم إن العلماء خصصوا من هذا العموم أشياء منها باتفاق ومنها باختلاف.

فأما الكفار: فرأى أبو حنيفة وأهل الظاهر أن حدهم جلد مائة أحصنوا أو لم يحصنوا أخذا بعموم الآية، ورأى الشافعي أن حدهم كحد المسلمين الجلد إن لم يحصنوا والرجم إن أحصنوا أخذا بالآية، وبرجم النبي ﷺ لليهودي واليهودية إذ زنيا[1] ورأى مالك أن يردوا إلى أهل دينهم، لقوله تعالى في سورة النساء ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ فخص نساء المسلمين على أنها قد نسختها هذه، ولكن بقيت في محلها.

وأما العبد والأمة: فرأى أهل الظاهر أن حد الأمة خمسون جلدة، لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ وأن حد العبد الجلد مائة لعموم الآية، وقال غيرهم: يجلد العبد خمسين بالقياس على الأمة، إذ لا فرق بينهما.

وأما المحصن: فقال الجمهور: حده الرجم فهو مخصوص من هذه الآية، وبعضهم يسمي هذا التخصيص نسخا، ثم اختلفوا في المخصص أو الناسخ، فقيل: الآية التي ارتفع لفظها وبقي حكمها، وهي قوله: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم»[2]، وقيل: الناسخ لها السنة الثابتة في الرجم، وقال أهل الظاهر وعلي بن أبي طالب: يجلد المحصن بالآية، ثم يرجم بالسنة[3]

(١) تقدم تخريجه، في سورة المائدة.

(٢) رواه البخاري: ٦/٢٦٢٢، ومسلم الحديث رقم: (١٤٥٢)، والمسند الحديث رقم: (٢١٢٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: ٧/٣٢٨.

فجمعوا عليه الحدين ولم يجعلوا الآية منسوخة ولا مخصصة، وقال الخوارج: لا رجم أصلا، فإن الرجم ليس في كتاب الله، ولا يعتد بقولهم، وظاهر الآية الجلد دون تغريب، وبذلك قال أبو حنيفة، وقال مالك: الجلد والتغريب سنة للحديث، وهو قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»[1] ولا تغريب على النساء، ولا على العبيد عند مالك، وصفة الجلد عند مالك في الظهر والمجلود جالس، وقال الشافعي: يفرق على جميع الأعضاء والمجلود قائم، وتستر المرأة بثوب لا يقيها الضرب، ويجرد الرجل عند مالك، وقال قوم: يجلد على قميص.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ قيل: يعني في إسقاط الحد أي أقيموه ولا بد، وقيل: في خفيف الضرب، وقيل: في الوجهين، فعلى القول الأول يكون الضرب في الزنا كالضرب في القذف غير مبرح، وهو مذهب مالك والشافعي، وعلى القول الثاني والثالث يكون الضرب في الزنا أشد، واختلف هل يجوز أن يجمع مائة سوط يضرب بها مرة واحدة؟ فمنعه مالك وأجازه أبو حنيفة، لما ورد في قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[2] وأجازه الشافعي للمريض لورود ذلك في الحديث[3]. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بذلك توبيخ الزناة والغلظة عليهم، واختلف في أقل ما يجزئ من الطائفة، فقيل: أربعة اعتبارا بشهادة الزنا وهو قول ابن أبي

---

(١) رواه البخاري الحديث رقم: (٢٥٠٦)، ومسلم الحديث رقم: (١٦٩٨)، وأبو داود الحديث رقم: (٤٤٤٥)، والنسائي الحديث رقم: (٥٤١٠)، والترمذي الحديث رقم: (١٤٣٣)، والطبري في جامع البيان: ٧٨/٨.

(٢) صحيح عن قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: ١٦٧/٢، والطبري في جامع البيان: ٢١٣/٢١.

(٣) ولفظه:... عن سعيد بن سعد بن عبادة، قال: كان بين أبياتنا رجل مخدج ضعيف، فلم يرع إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها، فرفع شأنه سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ، فقال: «اجلدوه ضرب مائة سوط، قالوا يانبي الله هو أضعف من ذلك، لو ضربناه مائة سوط مات، قال: فخذا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة» أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: (٥٧٤)، وأحمد في مسنده: ٢٢٢/٥، والنسائي في الكبرى: ٥١/٤، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٨٥/٢.

زيد، وقيل: عشرة، وقيل: اثنين وهو مشهور في مذهب مالك، وقيل: واحد.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية معناها ذم الزناة وتشنيع الزنا، وأنه لا يقع فيه إلا زان أو مشرك، ولا يوافقه عليه من النساء إلا زانية أو مشركة، وينكح على هذا بمعنى يجامع، وقيل: معناها لا يحل لزان أن يتزوج إلا زانية أو مشركة، ولا يحل لزانية أن تتزوج إلا زانيا أو مشركا، ثم نسخ هذا الحكم وأبيح لهما التزوج ممن شاؤوا، والأول هو الصحيح. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة بذلك إلى الزنا، أي حرم الزنا على المؤمنين، وقيل: الإشارة إلى تزوج المؤمن غير الزاني بزانية، فإن قوما منعوا أن يتزوجها، وهذا على القول الثاني في الآية قبلها وهو بعيد، وأجاز تزويجها مالك وغيره، وروي عنه كراهته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ هذا حد القذف وهو الفرية التي عبر الله عنها بالرمي، والمحصنات يراد بهن هنا العفائف من النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال، ودخل الرجال في ذلك بالمعنى إذ لا فرق بينهم، وأجمع العلماء على أن حكم الرجال والنساء هنا واحد، وقيل: إن المعنى: يرمون الأنفس المحصنات فيعم اللفظ على هذا النساء والرجال، ويحتاج هنا إلى الكلام في القذف، والقاذف، والمقذوف، والشهادة في ذلك.

فأما القذف: فهو الرمي بالزنا اتفاقا، أو بفعل قوم لوط عند مالك والشافعي، لعموم لفظ الرمي في الآية، خلافا لأبي حنيفة، أو النفي من النسب، ومذهب مالك أن التعريض بذلك كله كالتصريح، خلافا للشافعي وأبي حنيفة، وأما القاذف فيحد سواء كان مسلما أو كافرا لعموم الآية، وسواء كان حرا أو عبدا، إلا أن العبد والأمة إنما يحدان أربعين عند الجمهور، فنصفوا حدهما قياسا على تنصيفه في الزنا خلافا للظاهرية، ولا يحد الصبي ولا المجنون لكونهما غير مكلفين.

وأما المقذوف: فمذهب مالك أنه يشترط فيه الإسلام والعقل والبلوغ والحرية

والبراءة عما رمي به والتمكن من الوطء تحرزا من المجبوب وشبهه فلا يحد عنده من قذف صبيا أو كافرا أو مجبوبا أو عبدا ومن لا يمكنه الوطء وقد قيل يحد من قذف واحدا منهم لعموم الآية، واتفقوا على اشتراط البراءة مما رمي به.

وأما الشهادة: التي تسقط حد القذف، فهي: أن يشهد شاهدان عدلان بأن المقذوف عبدا أو كافرا، أو يشهد أربعة شهود ذكور عدول على المعاينة لما قذف به كالمرود في المكحلة، ويؤدون الشهادة مجتمعين.

﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ تقدم قبل هذا الاستثناء ثلاثة أحكام، وهي: الحد، ورد شهادة القاذف، وتفسيقه، فاتفق على أن الاستثناء راجع إلى التفسيق وأن ذلك يزول عنه بالتوبة، واتفق على أنه لا يرجع إلى الحد وأنه لا يسقط عنه بالتوبة، واختلف هل يرجع إلى رد الشهادة أم لا؟ فقال مالك: إذا تاب قبلت شهادته خلافا لأبي حنيفة، وتوبته هو صلاح حاله في دينه، وقيل: إكذاب نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه الآية في قذف الرجل لامرأته فيجب اللعان بذلك، وسببها[1]: أن رجلا قال يا رسول الله، الرجل يجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فسكت عنه نبي الله ﷺ، ثم عاد فقال: مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك فأتني بها، فتلاعنا وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وموجب اللعان عند مالك شيئان:

أحدهما: أن يدعي الزوج أنه رأى امرأته تزني.

والآخر: أن ينفي حملها ويدعي الاستبراء قبله، فإذا تلاعن الزوج تعلقت به ثلاثة أحكام:

---

(١) البخاري في صحيحه الحديث رقم: (٥٣٠٨)، ومسلم في صحيحه الحديث رقم: (١٤٩٢)، والنسائي في سننه: ٦/١٧٠، وأحمد في مسنده: ٥/٣٣٧، والبغوي في معالم التنزيل: ٦/١٢.

نفي حد القذف عنه، وانتفاء نسب الولد منه، ووجوب حد الزنا عليها إن لم تلاعن، فإن تلاعنت سقط الحد عنها، ولفظ الآية عام في الزوجات الحرائر، والمماليك، والمسلمات، والكافرات، والعدول، وغيرهم، وبذلك أخذ مالك، واشترط في الزوج الإسلام، واشترط أبو حنيفة أن يكونا مسلمين حرين عدلين.

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي يقول الزوج أربع مرات: أشهد بالله لقد رأيت هذه المرأة تزني، أو أشهد بالله ما هذا الحمل مني ولقد زنت، وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، وزاد أشهب أن يقول: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو، وانتصب ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ على المصدرية، والعامل فيه شهادة أحدهم وقرئ[1] بالرفع، وهو خبر شهادة أحدهم، وقوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ و﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من صلة ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ أو من صلة ﴿شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾.

﴿وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قرئ بنصب الخامسة هنا[2] وفي الموضع الثاني، وانتصب بفعل مضمر، تقديره: ويشهد الخامسة، أو بالعطف على أربع شهادات على قراءة النصب، وقرئ بالرفع على الابتداء أو عطف على أربع شهادات بقراءة الرفع، وقرئ[3] أن لعنة وأن غضب بتشديد أن ونصب اسمها وتخفيفها ورفع اللعنة والغضب على الابتداء.

---

(١) حفص وحمزة والكسائي ﴿أربع شهادات﴾ الأول برفع العين، والباقون بالنصب ولا خلاف في الثاني. التيسير، ص: ١٠٨.

(٢) ﴿والخامسة﴾ الأخيرة، رواه حفص بالنصب، والباقون برفعها. النشر: ٢/٣٧٠ قال الداني: حفص ﴿والخمسة أن غضب الله﴾ بنصب التاء والباقون برفعها، ولا خلاف في الأول.، ص: ١٠٨ فلعل ما في الأصل هنا سبق قلم.

(٣) قال الداني: نافع ﴿أن لعنت الله﴾ و﴿أن غضب الله﴾ بتخفيف النون فيهما ورفع التاء وكسر الضاد من ﴿غضب﴾ ورفع الهاء من اسم الله ﷻ، والباقون بتشديد النون، ونصب التاء، وفتح الضاد، وجر الهاء. التيسير، ص: ١٠٨.

الربع

• إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ العذاب هنا حد الزنا أي يدفعه التعان المرأة وهي أن تقول أربع مرات: اشهد بالله ما زنيت وإنه في ذلك لمن الكاذبين ثم تقول في الخامسة: غضب الله عليها إن كان من الصادقين ويتعلق بالتعانها ثلاثة أحكام: دفع الحد عنها، والتفريق بينها وبين زوجها، وتأبيد الحرمة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ جواب لولا محذوف هنا وفي الموضع الآخر تقديره لولا فضل الله عليكم لآخذكم أو نحو هذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الإفك أشد الكذب، ونزلت هذه الآية وما بعدها إلى تمام ست عشرة آية، في شأن سيدتنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفي براءتها مما رماها به أهل الإفك، وذلك أن الله برأ أربعة بأربعة؛ برأ يوسف بشهادة الشاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بكلام ولدها في حجرها، وبرأ عائشة من الإفك بإنزال القرآن في شأنها.

ولقد تضمنت هذه الآيات الغاية العظمى في الاعتناء بها والكرامة لها والتشديد على من قذفها، وقد خرج حديث الإفك البخاري[1] ومسلم وغيرهما،

---

(١) البخاري في صحيحه الحديث رقم: (٢٥٩٣)، وفي مواضع أخرى منه ومسلم الحديث رقم: (٢٧٧٠)، وأحمد في مسنده: ١٩٥/٦، والنسائي في تفسيره: ٥٩٩/١، والطبري في جامع البيان: ١٢٠/١٩، وابن حبان في صحيحه: ١٣/١٠.

واختصاره: أن عائشة خرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة بني المصطلق فضاع لها عقد، فتأخرت على التماسه حتى رحل الناس، فجاء رجل يقال له صفوان بن المعطل[١] فرآها فنزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ الجيش، فقال أهل الإفك في ذلك ما قالوا، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ما بال رجال رموا أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وسأل جارية عائشة فقالت: والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر، والعصبة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، ولم يذكر في الحديث من أهل الإفك إلا أربعة، وهم: عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وقيل: إن حسانا لم يكن منهم، وارتفاع عصبة لأنه خبر إن، واختار ابن عطية[٢] أن يكون عصبة بدلا من الضمير في جاؤوا، ويكون الخبر ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ على تقدير: إن حديث الذين جاؤوا بالإفك، والأول أظهر. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خطاب المسلمين والخير في ذلك من خمسة أوجه؛ تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين. ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ هو عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، وقيل: الذي بدأ بهذه الفرية غير معين، والعذاب العظيم هنا يحتمل أن يراد به الحد أو عذاب الآخرة.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ لولا هنا عرض والمعنى: أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على

---

(١) هو صفوان بن المعطل، بن رحضة السلمي الذكواني، أبو عمرو: صحابي، شهد الخندق والمشاهد كلها. وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية، وقيل: في سميساط، وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة ما قالوا، روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثين ت سنة: ١٩ هـ الاستيعاب: ٢١٨/١، والأعلام: ٢٠٦/٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٠٥/٤.

أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد في حقهم فهو في حق عائشة أبعد لفضلها، وروي[1] أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري فقال لزوجته: أكنت أنت تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة أفضل منك، قالت: نعم. فإن قيل: لم قال سمعتموه بلفظ الخطاب ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: ظننتم؟ فالجواب: أن ذلك التفات قصد به المبالغة والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرا.

﴿لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ لولا هنا عرض والضمير في جاءوا لأهل الإفك ثم حكم الله بكذبهم إذ لم يأتوا بالشهداء. ﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ يقال أفاض في الحديث وخاض فيه إذا أكثر الكلام فيه. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ العامل في إذ قوله: مسكم أو أفضتم، ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض، وفي هذا الكلام وفي الذي قبله وبعده عتاب لهم على خوضهم في حديث الإفك وإن كانوا لم يصدقوه، فإن الواجب كان الإغضاء عن ذكره والترك له بالكلية، فعاتبهم على ثلاثة أشياء، وهي: تلقيه بالألسنة، أي السؤال عنه، وأخذه من المسؤول، والثاني: قولهم ذلك، والثالث: أنهم حسبوه هينا وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب إذ كانوا لم يعلموا حقيقته بقلوبهم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: كان الواجب أن يبادروا إلى إنكار هذا الحديث أول سماعهم له، ولولا أيضا في هذه الآية عرض وكان حقها أن يليها الفعل من غير فاصل بينهما، ولكنه فصل بينهما بقوله: ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ لأن الظروف يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، والقصد بتقديم هذا الظرف الاعتناء به، وبيان أنه كان الواجب المبادرة إلى إنكار الكلام في

---

(١) ضعيف أخرجه ابن إسحاق كما في تفسير ابن كثير: ٢٧٣/٣، ومن طريقه الطبري: ١٢٩/١٩، وابن أبي حاتم في تفسيره: ٢٥٤٦/٨.

أول وقت سمعتموه، ومعنى ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا﴾ ما ينبغي لنا ولا يحل لنا أن نتكلم بهذا. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه لله عن أن تكون زوجة رسول الله ﷺ على ما قال أهل الإفك، وقال الزمخشري: هو بمعنى التعجب من عظم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب. ﴿بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ البهتان: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال ما فيه.

﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ تقديره: يعظكم كراهة أن تعودوا لمثله، ثم عظم الأمر وأكده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ﴾ الإشارة بذلك إلى المنافقين الذين أحبوا أن يشيع حديث الإفك، ثم هو عام في غيرهم ممن اتصف بصفتهم، والعذاب في الدنيا الحد، وأما عذاب الآخرة فقد ورد في الحديث[1]: «أن من عوقب في الدنيا على ذنب لم يعاقب عليه في الآخرة» فأشكل اجتماع الحد مع عذاب الآخرة في هذا الموضع، فيحتمل أن يكون القاذف يعذب في الآخرة ولا يسقط الحد عنه عذاب الآخرة بخلاف سائر الحدود، أو يكون هذا مختصا بمن قذف عائشة، فإنه روي عن ابن عباس أنه قال[2]: من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة، أو يكون لمن مات مصرا غير تائب، أو يكون للمنافقين. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ذكر في البقرة [آية ١٦٧]. ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ذكر في النحل [آية ٩٠]. ﴿زَكَىٰ﴾ أي تطهر من الذنوب وصلح دينه.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ معنى يأتل يحلف فهو من قولك: آليت إذا حلفت، وقيل: معناه يقصر فهو من قولك: ألوت

---

(١) صحيح وقد مضى تخريجه.

(٢) ضعيف أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٣٩/١٩، وابن منصور كما في الدر المنثور: ١٦٥/٦، وانظر تخريج الزيلعي لأحاديث الكشاف. ٤٢٤/٢.

حزب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾

أي قصرت، ومنه: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ والفضل هنا يحتمل أن يريد به الفضل في الدين، أو الفضل في المال، وهو أن يفضل له عن مقدار ما يكفيه، والسعة: هي اتساع المال، ونزلت الآية بسبب أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حلف أن لا ينفق على مسطح لما تكلم في حديث الإفك، وكان ينفق عليه لمسكنته ولأنه قريبه، وكان ابن بنت خالته، فلما نزلت[1] الآية رجع إلى مسطح النفقة والإحسان، وكفر عن يمينه، قال بعضهم: هذه أرجى آية في القرآن؛ لأن الله أوصى بالإحسان إلى القاذف، ثم إن لفظ الآية على عمومه، في أن لا يحلف أحد على ترك عمل صالح.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كما تحبون أن يغفر الله لكم كذلك اغفروا أنتم لمن أساء إليكم، ولما نزلت قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إني لأحب أن يغفر الله لي، ثم رد النفقة إلى مسطح**»[2].

﴿الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ معنى المحصنات هنا العفائف ذوات الصون، ومعنى الغافلات السليمات الصدور، فهو من الغفلة عن الشر. ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هذا الوعيد للقاذفين لعائشة، ولذلك لم يذكر فيه توبة، قال ابن عباس[3]: كل مذنب

---

(١) مضى ضمن حديث الإفك.

(٢) البخاري الحديث رقم: (٦٣٠١) ومسلم الحديث رقم: (٧١٩٦) وغيرهما.

(٣) سبق تخريجه قبل قليل.

تقبل توبته إذا تاب إلا من خاض في حديث عائشة، وقيل: الوعيد لكل قاذف، والعذاب العظيم يحتمل أن يراد به الحد، أو عذاب الآخرة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ العامل فيه ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ وكرر يومئذ توكيدا، وقيل: العامل فيه عذاب أو فعل مضمر. ﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي جزاؤهم الواجب لهم. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ هذه الآية تدل على أن ما قبلها في المنافقين لأن المؤمن قد علم في الدنيا أن الله هو الحق المبين، ومعنى المبين الظاهر الذي لا شك فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية معناها أن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وأن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، ففي ذلك رد على أهل الإفك؛ لأن النبي ﷺ هو أطيب الطيبين، فزوجته أطيب الطيبات، وقيل: المعنى أن الخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس، والطيبات من الأعمال للطيبين من الناس، ففيه أيضا رد على أهل الإفك، لأن عائشة لا يليق بها إلا الطيبات من الأعمال، بخلاف ما قاله أهل الإفك، وقيل: إن المعنى: الخبيثات من الأقوال للخبيثين من الناس، والإشارة بذلك إلى أهل الإفك، أي أن أقوالهم الخبيثة لا يقولها إلا خبيث مثلهم. ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ الإشارة بأولئك إلى الطيبين والطيبات، والضمير في يقولون للخبيثات والخبيثين، والمراد تبرئة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مما رميت به.

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ هذه الآية أمر بالاستئذان في غير بيت الداخل، فيعم بذلك بيوت الأقارب وغيرهم، وقد جاء في الحديث[1] الأمر بالاستئذان على الأم خيفة أن يراها عريانة، ومعنى تستأنسوا: تستأذنوا، وهو مأخوذ من قولك: آنست الشيء إذا علمته، فالاستئناس أن

(١) أخرجه مالك في الموطإ وأبو داود في المراسيل، ص: ١٩، والطبري في جامع البيان: ١٩/١٤٨ قال ابن عبد البر في التمهيد: ١٦/٢٢٩ لا أعلم بسند من وجه صحيح بهذا اللفظ وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

يستعلم: هل يريد أهل الدار الدخول أم لا؟ وقيل: مأخوذ من الأنس ضد الوحشة، وقرأ ابن عباس[1]: «حتى تستأذنوا»، والاستئذان واجب، وأما السلام: فلا ينتهي إلى الوجوب، واختلف أيهما يقدم؟، فقيل: يقدم السلام ثم يستأذن، فيقول: السلام عليكم، ثم يقول: أأدخل؟ وقيل: يقدم الاستئذان لتقديمه في الآية، وليس في الآية عدد الاستئذان، وجاء في الحديث: أن يستأذن ثلاث مرات[2] وهو تفسير للآية.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ سبب هذه الآية[3] أنه لما نزلت آية الاستئذان تعمق قوم فكانوا يأتون المواضع غير المسكونة فيسلمون ويستأذنون، فأباحت هذه الآية دخولها بغير استئذان، واختلف في البيوت غير المسكونة في هذه الآية، فقيل: هي الفنادق التي في الطرق ولا يسكنها أحد، بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل، والمتاع على هذا التمتع

---

(١) غريب أخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/٣٩٦، والطبري في جامع البيان: ١٩/١٤٥ قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في تفسيره: ٣/٢٨٠، وهذا غريب جدا عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم الحديث رقم: (٥٧٥٣)، والموطأ الحديث رقم: (٣٥٣٩)، ومصنف ابن أبي شيبة: ٨/٤٩٤، ومشكل الآثار للطحاوي: ٤/١١٤، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي: ١/١٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٨/٢٥٧٠، ولباب النقول في أسباب النزول، ص: ١٤٣، والواحدي في أسبابه، ص: ٢٧٢، والبغوي في معالم التنزيل: ٦/٣١.

بالنزول فيها والمبيت وغير ذلك، وقيل: هي الخرب التي تدخل للبول والغائط، والمتاع على هذا حاجة الإنسان، وقيل: هي حوانيت القيسارية[١]، والمتاع على هذا الثياب والبسط وشبهها، وهذا القول خطأ لأن الاستئذان في الحوانيت واجب بإجماع.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ إعرابها كإعراب ﴿يُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ في إبراهيم وقد ذكر، و﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ للتبعيض، والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل، وقيل: معنى التبعيض فيه أن النظرة الأولى لا حرج بها ويمنع ما بعدها، وأجاز الأخفش أن تكون من زائدة، وقيل: هي لابتداء الغاية؛ لأن البصر مفتاح القلب، والغض المأمور به هو عن النظر إلى العورة، أو إلى ما لا يحل من النساء، أو إلى كتب الغير، وشبه ذلك مما يستر، وحفظ الفروج المأمور به هو عن الزنا، وقيل: أراد ستر العورة، والأظهر أن الجميع مراد.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ تؤمر المرأة بغض بصرها عن عورة الرجل وعن عورة المرأة إجماعا، واختلف هل يجب عليها غض بصرها عن سائر جسد الرجل الأجنبي أم لا؟ وعن سائر جسد المرأة أم لا؟ فعلى القول بذلك تشتمل الآية عليه، والكلام في حفظ فروج النساء كحفظ فروج الرجال. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نهي عن إظهار الزينة بالجملة، ثم استثنى الظاهر منها، وهو ما لا بد من النظر إليه عند حركتها أو إصلاح شأنها وشبه ذلك، فقيل: إلا ما ظهر منها، يعني: الثياب، فعلى هذا يجب ستر جميع جسدها، وقيل: الثياب والوجه والكفان، وهو مذهب مالك؛ لأنه أباح كشف وجهها وكفيها في الصلاة،

---

(١) القيسارية: كلمة مستعملة بالمغرب في كل مدينة على الخصوص، وتعني السوق الذي تحيط به الأسوار، حيث يتجمع معظم التجار على اختلاف بضاعتهم من لباس أو ما شابه، والكلمة كما هو معروف من أصل يوناني. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد: ٩٥ ص: ٢٠.

وزاد أبو حنيفة القدمين. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الجيوب هي التي يقول لها العامة أطواق، وسببها أن النساء كن في ذلك الزمان يلبسن ثيابا واسعات الجيوب يظهر منها صدورهن، وكن إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلها من وراء الظهر فيبقى الصدر والعنق والأذنان لا ستر عليها، فأمرهن الله بلبس الأخمرة على الجيوب ليستر جميع ذلك. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية المراد بالزينة هنا الباطنة فلما ذكر في الآية قبلها ما أباح أن يراه غير ذوي المحرم من الزينة الظاهرة، وذكر في هذه ما أباح أن يراه الزوج وذوي المحارم من الزينة الباطنة، وبدأ بالبعولة وهم الأزواج؛ لأن اطلاعهم يقع على أعظم من هذا، ثم ثنى بذوي المحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن مراتبهم تختلف بحسب القرب، والمراد بالآباء كل من له ولادة من والد وجد، وبالأبناء كل من عليه ولادة من ولد وولد ولد، ولم يذكر في هذه الآية من ذوي المحارم العم والخال، ومذهب جمهور العلماء جواز رؤيتهما للمرأة؛ لأنهما من ذوي المحارم، وكره ذلك قوم، وقال الشافعي: إنما لم يذكر العم والخال لئلا يصفا زينة المرأة لأولادهما. ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني جميع المؤمنات، فكأنه قال: أو صنفهن ويخرج عن ذلك نساء الكفار. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يدخل في ذلك الإماء المسلمات والكتابيات، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم وهو قول الشافعي، والجواز وهو قول ابن عباس[١] وعائشة[٢]، والجواز بشرط أن يكون العبد وغدا، وهو

---

(١) الذي ورد عن ابن عباس جواز رؤية شعرها فقط أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ١٨٣/٦ عن ابن عباس: قال: لا بأس أن يرى العبد شعر سيدته.

(٢) صحيح عن عائشة، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: سُلَيْمَانُ؟ فَقُلْتُ: سُلَيْمَانُ، فَقَالَتْ: أَدَّيْتَ مَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ كِتَابَتِكَ التي قَاطَعْت أهلك عَلَيْهَا، قُلْتُ: نَعَمْ، إلاَّ شَيْئًا يَسِيرًا قَالَتْ: ادْخُلْ فَإِنَّكَ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْكَ شَيْءٌ. مختصر صحيح البخاري: ٩٣٩/٢، ومصنف ابن أبي شيبة: ١٤٦/٦.

مذهب مالك، وإنما أخذ جوازه من قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ واختلف هل يجوز أن يراها عبد زوجها وعبد الأجنبي أم لا؟ على قولين. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ شرط في رؤية غير ذوي المحارم شرطين:

أحدهما: أن يكونا تابعين ومعناه أن يتبع لشيء يعطاه، كالوكيل والمتصرف ولذلك قال بعضهم: هو الذي يتبعك وهمته بطنه.

والآخر: أن لا يكون لهم إربة في النساء كالخصي، والمخنث، والشيخ الهرم، والأحمق، فلا يجوز رؤيتهم للنساء إلا باجتماع الشرطين، وقيل: بأحدهما ومعنى الإربة الحاجة إلى الوطء.

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أراد بالطفل الجنس ولذلك وصفه بالجمع، ويقال طفل ما لم يراهق الحلم، ويظهروا معناه يطلعون بالوطء على عورات النساء، فمعناه الذين لم يطؤوا النساء، وقيل: الذين لا يدرون ما عورات النساء، وهذا أحسن. ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ روي: أن امرأة كان لها خلخالان فكانت تضرب بهما ليسمعهما الرجال فنهى الله ﷻ عن ذلك[1] قال الزجاج: إسماع صوت الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ التوبة واجبة على كل مكلف بدليل الكتاب والسنة، وإجماع الأمة.

وفرائضها ثلاث: الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان، من غير

---

(١) روى ابن جرير: عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ فهو أن تقرع الخَلْخَال بالآخر عند الرجال، ويكون في رجليها خلاخل، فتحرّكهنّ عند الرجال، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك؛ لأنه من عمل الشيطان، حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال: هو الخَلْخَال، لا تضرب امرأة برجلها ليسمع صوت خلخالها. الطبري: ١٩/١٦٤.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ
إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ
خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن
تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

ربع

تأخير ولا توان، والعزم أن لا يعود إليها أبدا، ومهما قضي عليه بالعود أحدث عزما مجددا.

وآدابها ثلاثة: الاعتراف بالذنب مقرونا بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات، لمحو ما تقدم من السيئات.

ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات.

والبواعث على التوبة سبعة؛ خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب القريب، وتعظيم بالمقام وشكر الإنعام.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ الأيامى جمع أيم، ومعناه الذين لا أزواج لهم رجالا كانوا أو نساء، أبكارا أو ثيبا، والخطاب هنا للأولياء والحكام، أمرهم الله بتزويج الأيامى، فاقتضى ذلك النهي عن عضلهن من التزويج، وفي الآية دليل على عدم استقلال النساء بالإنكاح واشتراط الولاية فيه، وهو مذهب مالك والشافعي، خلافا لأبي حنيفة. ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يعني الذين يصلحون للتزويج من ذكور العبيد وإناثهم، (وقال الزمخشري: الصالحين بمعنى الصلاح في الدين، قال: وإنما خصهم الله بالذكر ليحفظ عليهم صلاحهم،)[1] والمخاطبون هنا

---

(١) ما بين القوسين ساقط من (أ).

ساداتهم، ومذهب الشافعي أن السيد يجبر على تزويج عبيده لهذه الآية، خلافا لمالك، ومذهب مالك: أن السيد يجبر عبده وأمته على النكاح، خلافا للشافعي. ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وعد الله بالغنى للفقراء الذين يتزوجون لطلب رضاء الله، ولذلك قال ابن مسعود[1]: «التمسوا الغنى في النكاح».

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أمر بالاستعفاف وهو الاجتهاد في طلب العفة من الحرام لمن لا يقدر على التزوج، فقوله ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ معناه لا يجدون استطاعة على التزوج بأي وجه تعذر التزوج، وقيل معناه: لا يجدون صداقا للنكاح، والمعنى الأول أعم، والثاني أليق بقوله ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ الكتاب هنا مصدر بمعنى الكتابة، وهي مقاطعة العبد على مال منجم، فإذا أداه خرج حرا وإن عجز بقي رقيقا، وقيل: إن الآية نزلت بسبب[2] حويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، وحكمها مع ذلك عام فأمر الله سادات العبيد أن يكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة، وهذا الأمر على الندب عند مالك والجمهور، وقال الظاهرية وغيرهم: هو على الوجوب، وذلك ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3] لأنس بن مالك، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة، فتلكأ أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه أو لأوجعنك بالدرة، وإنما حمله مالك على الندب؛ لأن الكتابة كالبيع، فكما لا يجبر على البيع لا يجبر عليها، واختلف: هل يجبر السيد عبده على الكتابة أم لا؟ على قولين في المذهب. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الخير

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٦٦/١٩ بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن السكن في معرفة الصحابة معلقا كما في الدر المنثور: ١٨٩/٦، واللباب، ص: ١٤٤، وأورده البغوي في معالم التنزيل: ٤١/٦، والواحدي في أسبابه، ص: ٢٧٢.

(٣) صحيح قال ابن كثير في تفسيره: ٢٨٧/٣ إسناده صحيح ورواه البيهقي في الكبرى: ٣١٩/١٠، والطبري في جامع البيان: ١٦٧/١٩. وذكره البخاري تعليقا: «... أَنَّ سِيرِينَ سَأَلَ أَنَسًا الْمُكَاتَبَةَ وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَأَبَى فَانطَلَقَ إِلَى عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: كَاتِبْهُ، فَأَبَى، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، وَيَتْلُو عُمَرُ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فَكَاتَبَه. ج٤٢٢/٦.

هنا القوة على أداء الكتابة بأي وجه كان، وقيل: هو المال الذي يؤدي منه كتابته من غير أن يسأل أموال الناس، وقيل: هو الصلاح في الدين. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هذا أمر بإعانة المكاتب على كتابته، واختلف فيمن المخاطب بذلك؟، فقيل: هو خطاب للناس أجمعين، وقيل: للولاة، والأمر على هذين القولين للندب، وقيل: هو خطاب لسادات المكاتبين وهو على هذا القول ندب عند مالك، ووجوب عند الشافعي، فإن كان الأمر للناس فالمعنى: أن يعطوهم صدقات من أموالهم، وإن كان للولاة فيعطوهم من الزكاة، وإن كان للسادات فيحطوا عنهم من كتابتهم، وقيل: يعطوهم من أموالهم من غير الكتابة، وعلى القول بالحط من الكتابة اختلف في مقدار ما يحط، فقيل: الربع، وروي ذلك[1] عن رسول الله ﷺ، وقيل: الثلث، وقال مالك والشافعي: لا حد في ذلك، بل أقل ما ينطلق عليه اسم شيء، إلا أن الشافعي يجبره على ذلك، ولا يجبره مالك، وزمان الحط عنه في آخر الكتابة عند مالك، وقيل: في أول نجم. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ معنى البغاء الزنا، نهى الله المسلمين أن يجبروا مملوكاتهم على ذلك، وسبب الآية[2] أن عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق كان له جاريتان، فكان يأمرهما بالزنا؛ للكسب منه، وللولادة، ويضربهما على ذلك، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه، وفيمن فعل مثل فعله. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا الشرط راجع إلى إكراه الفتيات على الزنا، إذ لا يتصور إكراههن إلا إذا أردن التحصن، وهو التعفف، وقيل: هو راجع إلى قوله: وأنكحوا الأيامى وذلك بعيد. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ يعني ما تكسبه الأمة بفرجها، وما تلده من الزنا، ويتعلق ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: ٣٧٥/٨، ومن طريقه الحاكم في المستدرك: ٣٩٧/٢، وابن أبي حاتم: ٢٥٨٦/٨، والبيهقي في السنن الكبرى: ٣٢٩/١٠، وصححه موقوفا. فالحاصل أن الحديث وقفه صحيح ورفعه منكر.

(٢) صحيح أخرجه مسلم في صحيحه الحديث رقم: (٣٠٢٩)، والطبري في جامع البيان: ١٧٤/١٩، وأبو داود في سننه الحديث رقم: (٢٣١١)، والحاكم: ٣٩٧/٢.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المعنى غفور لهن رحيم بهن، لا يؤاخذهن بالزنا لأنهن أكرهن عليه، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للسيد الذي يكرههن إذا تاب من ذلك.

﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيَّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء[١] أي بينها الله وبالكسر مبينات للأحكام والحلال والحرام. ﴿وَمَثَلًا﴾ يعني ضرب لكم الأمثال بمن كان قبلكم في تحريم الزنا لأنه كان حراما في كل ملة أو في براءة عائشة، كما برأ يوسف ومريم.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور يطلق حقيقة على الضوء الذي يدرك بالأبصار ومجازا على المعاني التي تدرك بالقلوب، والله ليس كمثله شيء، فتأويل الآية: الله ذو نور السموات والأرض، ووصف نفسه بأنه نور كما تقول: زيد كرم إذا أردت المبالغة في أنه كريم، فإن أراد بالنور المدرك بالأبصار فمعنى نور السموات والأرض أنه خلق النور الذي فيهما من الشمس والقمر والنجوم، أو أنه خلقهما وأخرجهما من العدم إلى الوجود، فإنما ظهرت به كما تظهر الأشياء بالضوء، ومن هذا المعنى قرأ علي بن أبي طالب: «الله نور السموات والأرض»[٢] بفتح النون والواو والراء وتشديد الواو، أي جعل فيهما النور، وإن أراد بالنور المدرك بالقلوب، فمعنى نور السموات والأرض جاعل النور في قلوب أهل السموات والأرض، ولهذا قال ابن عباس[٣]: معناه هادي أهل السموات والأرض. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المشكاة هي الكوة غير النافذة تكون في الحائط، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة، وقيل: المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه، والأول أصح وأشهر، والمعنى صفة نور الله في وضوحه، كصفة مشكاة

---

(١) قال الداني: ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي ﴿ءايات مبينات﴾ في الموضعين هنا وفي الطلاق بكسر الياء والباقون بفتحها. التيسير ص١٠٨.

(٢) لم أجده مسندا وذكرها أبو حيان في تفسيره وعزاها لعدد من الصحابة منهم علي: ٤٥٥/٦، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٢٤/٤ لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبي عبد الرحمن السلمي.

(٣) صحيح أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٧٧/١٩، وابن أبي حاتم في تفسيره: ٢٥٩٣/٨.

فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة وإن كان نور الله أعظم؛ لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه، وقيل: الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد على سيدنا محمد ﷺ، وقيل: على القرآن، وقيل: على المؤمن، وهذه الأقوال ضعيفة لأنه لم يتقدم ما يعود عليه الضمير.

فإن قيل: كيف يصح أن يقال الله نور السموات والأرض فأخبر أنه هو النور، ثم أضاف النور إليه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ والمضاف غير المضاف إليه؟ فالجواب: أن ذلك يصح مع التأويل الذي قدمناه، أي الله ذو نور السموات والأرض، أو كما تقول: زيد كرم، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ المصباح هو الفتيل بناره، والمعنى: أنه في قنديل من زجاج لأن الضوء فيه أزهر لأنه جسم شفاف. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ شبه الزجاجة في إنارتها بكوكب دري، وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها تضيء بالمصباح الذي فيها، وإما أن يريد أنها في نفسها شديدة الضوء لصفائها ورقة جوهرها، وهذا أبلغ لاجتماع نورها مع نور المصباح، والمراد بالكوكب الدري أحد الدراري المضيئة: كالمشتري، والزهرة، وسهيل، ونحوها، وقيل: أراد الزهرة، ولا دليل على هذا التخصيص، وقرأ نافع[1] دري بضم الدال وتشديد الياء بغير همزة، ولهذه القراءة وجهان: إما أن ينسب الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه، أو يكون مسهلا من الهمز، وقرئ: بالهمز وكسر الدال وبالهمز وضم الدال، وهو مشتق من الدرء بمعنى الدفع. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ من قرأ يوقد[2]

(١) أي ومن معه من القراء، قال محمد بن الجزري: ﴿دري﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال مع المد الهمز، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والمد والهمز، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد الياء من غير مد ولا همز، وحمزة على أصله في تخفيفه وفقاً بالإدغام. النشر: ٢/٣٧٢.

(٢) ﴿يوقد﴾ قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر بتاء مفتوحة وفتح الواو والدال وتشديد القاف، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بياء مضمومة وإسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال على التذكير، وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم بالتاء على التأنيث. المصدر السابق.

بالياء أو توقد بالفعل الماضي فالفعل مسند إلى المصباح، ومن قرأ توقد بالتاء والفعل المضارع فهو مسند إلى الزجاجة، والمعنى: يوقد من زيت شجرة مباركة، ووصفها بالبركة لكثرة منافعها، أو لأنها تنبت في الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قيل: يعني أنها بالشام فليست من شرق الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون زيتون الشام، وقيل: هي منكشفة تصيبها الشمس طول النهار، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي غربية شرقية؛ لأن الشمس تستدير عليها من الشرق والغرب، وقيل: إنها في وسط دوحة لا في جهة الشرق من الدوحة ولا في جهة الغرب، وقيل: إنها من شجرة الجنة ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في وصف صفائه وحسنه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني اجتماع نور المصباح وحسن الزجاجة وطيب الزيت، والمراد بذلك كمال النور الممثل به. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يوفق الله من يشاء لإصابة الحق.

﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يعني المساجد، وقيل: بيوت أهل الإيمان من مساجد أو مساكن، والأول أصح، والجار يتعلق بما قبله، أي كمشكاة في بيوت، أو توقد في بيوت، وقيل: بما بعده وهو يسبح وكرر الجار بعد ذلك تأكيدا، وقيل: بمحذوف، أي سبحوا في بيوت أذن الله أن ترفع، والمراد بالإذن الأمر، ورفعها بناؤها، وقيل: تعظيمها. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ أي غدوة وعشية، وقيل: أراد الصبح والعصر، وقيل: صلاة الضحى والعصر. ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل يسبح على القراءة بكسر الباء[1]، وأما على القراءة بالفتح فهو مرفوع بفعل مضمر يدل عليه الأول. ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تشغلهم ونزلت الآية[2] في أهل الأسواق الذين إذا

(١) ﴿يسبح﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر بفتح الباء بكسرها مسمى الفاعل. النشر: ٢/٣٧٢.

(٢) ضعيف أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: ٢/٦١، والطبري في جامع البيان: ١٩/١٩٢، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير: ٣/٢٩٤.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ
(٣٦) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ
يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ
كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ
شَيْـًٔا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٨)
أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٣٩) أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ
قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤٠) وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤١) ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن
يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ

ثمن

سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها، والبيع من التجارة ولكنه خصه بالذكر تجريدا كقوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أو أراد بالتجارة الشراء. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَٰرُ﴾ أي تضطرب من شدة الهول والخوف، وقيل: تفقه القلوب وتبصر الأبصار بعد العمى لأن الحقائق تنكشف حينئذ والأول أصح كقوله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وفي قوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تجنيس.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بما قبله، أو بفعل من معنى ما قبله. ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ تقديره: جزاء أحسن ما عملوا. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يعني زيادة على ثواب أعمالهم. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ذكر في البقرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ لما ذكر الله حال المؤمنين أعقب ذلك بمثالين لأعمال الكافرين:

الأول: يقتضي حال أعمالهم في الآخرة وأنها لا تنفعهم بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب.

والثاني: يقتضي حال أعمالهم في الدنيا وأنها في غاية الفساد والضلال، كالظلمات التي بعضها فوق بعض، والسراب هو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض، والقيعة جمع قاع

وهو المنبسط من الأرض، وقيل: القيعة بمعنى القاع وليس بجمع.

﴿يَحْسِبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الظمآن العطشان أي يظن العطشان أن السراب ماء فيأتيه ليشربه فإذا جاء خاب ما أمل وبطل ما ظن، وكذلك الكافر يظن أن أعماله تنفعه فإذا كان يوم القيامة لم تنفعه فهي كالسراب. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ ضمير الفاعل للظمآن، وضمير المفعول للسراب أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله. ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ أي شيئا ينتفع به، أو شيئا موجودا على العموم لأنه معدوم، ويحتمل أن يكون ضمير الفاعل للظمآن وضمير المفعول للسراب أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ ضمير الفاعل في وجد للكافر، والضمير في عنده لعمله، والمعنى: وجد الله عنده بالجزاء، أو وجد زبانية الله.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ هذا هو المثال الثاني، وهو عطف على قوله: ﴿كَسَرَابٍۭ﴾ والمشبه بالظلمات أعمال الكافر، أي هم من الضلال والحيرة في مثل الظلمات المجتمعة من ظلمة البحر تحت الموج تحت السحاب. ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ منسوب إلى اللج وهو معظم الماء، وذهب بعضهم إلى أن أجزاء هذا المثال قوبلت به أجزاء الممثل به، فالظلمات أعمال الكافر، والبحر اللجي صدره، والموج جهله، والسحاب الغطاء الذي على قلبه، وذهب بعضهم إلى أنه تمثيل بالجملة من غير مقابلة، وفي وصف هذه الظلمات بهذه الأوصاف مبالغة كما أن في وصف النور المذكور قبلها مبالغة. ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ المعنى مبالغة في وصف الظلمة، والضمير في أخرج وما بعده للرجل الذي وقع في الظلمات الموصوفة، واختلف في تأويل الكلام، فقيل: المعنى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فنفى الرؤية ومقاربتها، وقيل: بل رآها بعد عسر وشدة؛ لأن كاد إذا نفيت تقتضي الإيجاب، وإذا أوجبت تقتضي النفي، وقال ابن عطية: إنما ذلك إذا دخل حرف النفي على الفعل الذي بعدها، فأما إذا دخل حرف النفي على كاد كقوله ﴿لَمْ يَكَدْ﴾ فإنه يحتمل النفي والإيجاب. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي من لم

يهده الله لم يهتد، فالنور كناية عن الهدى والإيمان في الدنيا، وقيل: أراد في الآخرة أي من لم يرحمه الله فلا رحمة له، والأول أليق بما قبله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم، والتسبيح التنزيه والتعظيم، وهو من العقلاء بالنطق، وأما تسبيح الطير وغيرها مما لا يعقل فقال الجمهور: إنه حقيقي ولا يبعد أن يلهمها الله التسبيح كما يلهمها الأمور الدقيقة التي لا يهتدي إليها العقلاء، وقيل: تسبيحه ظهور الحكمة فيه. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ يصففن أجنحتهن في الهواء. ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ الضمير في علم لله أو لكل، والضمير في ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ لكل.

﴿يُزْجِى﴾ معناه يسوق، والإزجاء إنما يستعمل في سوق كل ثقيل كالسحاب ﴿رُكَامًا﴾ متكاثف بعضه فوق بعض. ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي من بينه وهو جمع خلل كجبل وجبال. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيل: إن الجبال هنا حقيقة وأن الله جعل في السماء جبالا من برد، وقيل: إنه مجاز كقولك: عند فلان جبال من مال أو علم، أي هي في الكثرة كالجبال، ومن في قوله ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية، وفي قوله ﴿مِن جِبَالٍ﴾ كذلك وهي بدل من الأولى، وتكون للتبعيض فتكون مفعول ينزل، ومن في قوله ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ لبيان الجنس أو للتبعيض فتكون مفعول ينزل، وقال الأخفش: هي زائدة وذلك ضعيف وقوله ﴿فِيهَا﴾ صفة للجبال، والضمير يعود على السماء. ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ السنا بالقصر الضوء، وبالمد المجد والشرف. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يأتي بهذا بعد هذا.

﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ يعني بني آدم والبهائم والطير لأن ذلك كله يدب. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ يعني المني، وقيل: الماء الذي في الطين الذي خلق منه آدم وغيره. ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والحوت. ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ الآية نزلت في المنافقين وسببها[1]

(١) نزلت في المنافقين ذكره البغوي في معالم التنزيل: ٦/٥٥، ولم يعزه لأحد. وذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: ٢٧٤.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

ربع

أن رجلا من المنافقين كانت بينه وبين يهودي خصومة فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأعرض عنه ودعاه إلى كعب بن الأشرف. ﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي منقادين طائعين لقصد الوصول إلى حقوقهم. ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ توقيف يراد به التوبيخ، وكذلك ما بعده. ﴿أَن يَحِيفَ﴾ معناه أن يجور، والحيف: الميل، وأسنده إلى الله لأن الرسول إنما يحكم بأمر الله وشرعه. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية معناها إنما الواجب أن يقول المؤمنون سمعنا وأطعنا إذا دعوا إلى الله ورسوله، وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعه.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال ابن عباس[1]: معناها من يطع الله في فرائضه، ورسوله في سنته. ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه. ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما يستقبل، وسأل بعض الملوك عن آية كافية جامعة فذكرت له هذه الآية، وسمعها بعض بطارقة الروم فأسلم، وقال: إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل. ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي حلفوا والضمير للمنافقين. ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي بالغوا في اليمين وأكدوها. ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ يعني إلى الغزو. ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ نهى عن اليمين الكاذبة لأنه قد عرف أنهم يحلفون على الباطل. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ مبتدأ وخبره محذوف،

---

(١) لم أجده مسندا.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾

أي طاعة معروفة أمثل وأولى بكم، أو خبر مبتدإ محذوف أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا يشك فيها.

﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني تبليغ الرسالة.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يعني السمع والطاعة واتباع الشريعة.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعد ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة، وقيل: إن المراد بالآية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» وانتهت الثلاثون إلى آخر خلافة علي، **فإن قيل**: أين القسم الذي جاء قوله ليستخلفنهم جوابا له؟ **فالجواب**: أنه محذوف، تقديره: وعدهم الله وأقسم، أو جعل الوعد بمنزلة القسم لتحققه.

﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ قيل: المراد بالذين ملكت أيمانكم الرجال خاصة، وقيل: النساء خاصة؛ لأن الرجال يستأذنون في كل وقت، وقيل: الرجال والنساء. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ يعني الأطفال غير البالغين. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ نصب على الظرفية لأنهم أمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، فمعنى الآية أن الله أمر المماليك والأطفال بالاستئذان في ثلاثة أوقات، وهي: قبل الصبح، وحين القائلة وسط النهار، وبعد صلاة العشاء الأخيرة؛ لأن هذه الأوقات يكون الناس فيها متجردين للنوم في غالب أمرهم، وهذه الآية محكمة، وقال ابن عباس[2]: ترك الناس

---

(١) وتمامه: ثم تكون ملكا، صحيح ابن حبان الحديث رقم: (٦٩٤٣)، وموارد الظمآن للهيثمي: ٣٦٩/١، وهو حديث صحيح بشواهده.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده، قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بها=

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

ثمن

العمل بها، وحملها بعضهم على الندب. ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ يعني: تتجردون. ﴿الظَّهِيرَةِ﴾ وسط النهار. ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ جمع عورة من الانكشاف، كقوله: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ومن رفع ثلاث[1] فهو خبر ابتداء مضمر، تقديره: هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، أي تنكشفون فيها، ومن نصبه فهو بدل من ثلاث مرات. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ هذا الضمير المؤنث يعود على الأوقات المتقدمة أي ليس عليكم ولا على المماليك والأطفال جناح في ترك الاستئذان في غير المواطن الثلاثة. ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ تقديره: المماليك والأطفال طوافون عليكم، فلذلك يؤمر بالاستئذان في كل وقت. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بدل من طوافون، أي بعضكم طائف على بعض، وقال الزمخشري: هو مبتدأ أي بعضكم يطوف على بعض، أو فاعل بفعل مضمر.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ لما أمر الأطفال في الآية المتقدمة بالاستئذان في ثلاثة أوقات، وأباح لهم الدخول بغير إذن في غيرها،

= ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ...﴾ إلى آخر الآية. والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ والآية التي في الحجرات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ٢٦٣٢/٨، وهو أثر حسن بشواهده.

(١) ﴿ثلاث عورات﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ﴿ثلاث﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع، واتفقوا على النصب في قوله ﴿ثلاث مرات﴾ المتقدم لوقوعه ظرفاً. النشر: ٣٧٣/٢.

أمرهم هنا بالاستئذان في جميع الأوقات إذا بلغوا ولحقوا بالرجال.

﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جمع قاعد وهي العجوز، فقيل: هي التي قعدت عن الولد، وقيل: التي قعدت عن التصرف، وقيل: التي إذا رأيتها استقذرتها. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أباح الله لهذا الصنف من العجائز ما لم يبح لغيرهن من وضع الثياب، قال ابن مسعود[١]: إنما أبيح لهن وضع الجلباب الذي فوق الخمار والرداء، وقال بعضهم: إنما ذلك في منزلها الذي يراها فيه ذوو محارمها. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ إنما أباح الله لهن وضع الثياب بشرط ألا يقصدن إظهار زينة والتبرج هو الظهور. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ المعنى أن استعفافهن عن وضع الثياب المذكورة خير لهن من وضعها، والأولى لهن أن يلتزمن ما يلتزم شباب النساء من الستر.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية اختلف في المعنى الذي رفع الله فيه الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في هذه الآية، فقيل[٢]: هو في الغزو أي لا حرج عليهم في تأخرهم عنه وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مقطوع من الذي قبله على هذا القول كأنه قال: ليس على هؤلاء الثلاثة حرج في ترك الغزو ولا عليكم حرج في الأكل، وقيل: الآية كلها في معنى الأكل، واختلف الذاهبون إلى ذلك، فقيل: إن أهل هذه الأعذار كانوا يتجنبون الأكل مع الناس لئلا يتقذرهم الناس فنزلت الآية مبيحة لهم الأكل مع الناس، وقيل: إن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو خلفوا أهل هذه الأعذار في بيوتهم وكانوا يتجنبون أكل مال الغائب فنزلت[٣] الآية في ذلك، وقيل: إن الناس كانوا يتجنبون الأكل معهم تقذرا فنزلت الآية، وهذا ضعيف لأن

---

(١) صحيح أخرجه الطبري في جامع البيان: ٢١٧/١٩، والبيهقي في الكبرى: ٩٣/٧، وابن أبي حاتم في تفسيره: ٢٦٤٠/٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٢١٩/١٩ بسند ضعيف.

(٣) انظر تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٤٢/٨، والألوسي في تفسيره: ١٢/١١.

رفع الحرج عن أهل الأعذار لا عن غيرهم، وقيل: إن رفع الحرج عن هؤلاء الثلاثة في كل ما تمنعهم عنه أعذارهم من الجهاد وغيره. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أباح الله تعالى للإنسان الأكل في هذه البيوت المذكورة في الآية، فبدأ ببيت الرجل نفسه، ثم ذكر القرابة على ترتيبهم ولم يذكر فيهم الابن لأنه دخل في قوله من بيوتكم؛ لأن بيت ابن الرجل بيته لقوله عليه الصلاة والسلام[1]: «أنت ومالك لأبيك» واختلف العلماء فيما ذكر في هذه الآية من الأكل من بيوت القرابة، فذهب قوم إلى أنه منسوخ وأنه لا يجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه، والناسخ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام[2]: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»، وقيل: الآية محكمة، ومعناها إباحة الأكل من بيوت القرابة إذا أذنوا في ذلك، وقيل: بإذن وبغير إذن. ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني الوكلاء والأجراء والعبيد الذين يمسكون مفاتح مخازن أموال ساداتهم، فأباح لهم الأكل منها، وقيل: المراد ما ملك الإنسان من مفاتح نفسه، وهذا ضعيف. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق يقع على الواحد والجماعة كالعدو والمراد به هنا جمع ليناسب ما ذكر قبله من المجموع في قوله آبائكم وأمهاتكم وغير ذلك وقرن الله الصديق بالقرابة لقرب مودته، وقال ابن عباس[3]: الصديق أوكد من القرابة. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ إباحة للأكل في حال الاجتماع والانفراد؛ لأن بعض العرب كان لا يأكل وحده أصلا خيفة من البخل، فأباح لهم الله ذلك. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي إذا دخلتم بيوتا مسكونة فسلموا على من فيها من الناس، وإنما

---

(١) صحيح أخرجه أبو داود في سننه الحديث رقم: (٣٥٣٠)، وابن ماجه في سننه الحديث رقم: (٢٢٩٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: ٢/٦٧٤.

(٢) صحيح أخرجه أحمد: ٥/٧٢، وأبو يعلى: ٣/١٤٠، والدارقطني: ٣/٢٦، والبيهقي في الكبرى: ٦/١٠٠.

(٣) قال ابن عطية: قال ابن عباس في كتاب النقاش: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى إلى استغاثة الجهنميين: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ المحرر الوجيز: ٤/٢٣٩.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ۞ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

ربع

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

قال ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بمعنى صنفكم كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ وقيل المعنى: إذا دخلتم بيوتا خالية فسلموا على أنفسكم بأن يقول الرجل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقيل: يعني بالبيوت المساجد، والأمر بالسلام على من فيها فإن لم يكن فيها أحد فيسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى الملائكة وعلى عباد الله الصالحين.

﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ الآية الأمر الجامع هو ما يجمع الناس للمشورة فيه أو للتعاون عليه ونزلت هذه الآية[1] في وقت حفر الخندق بالمدينة، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون من غير استئذان. ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض حوائجهم.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ في معناها ثلاثة أقوال:

الأول: أن الدعاء هنا يراد به دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياهم ليجتمعوا إليه في أمر جامع أو في قتال وشبه ذلك فالمعنى أن إجابتكم له إذا دعاكم واجبة عليكم بخلاف إذا دعا بعضكم بعضا فهو كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ويقوي هذا القول مناسبته لما قبله من الاستئذان والأمر الجامع.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل: ٣/٤٠٨ من طريق محمد بن إسحاق بإسناد مرسل، وعزاه في الدر المنثور: ٦/٢٢٩ لابن المنذر.

والقول الثاني: أن المعنى لا تدعوا الرسول ﷺ باسمه كما يدعو بعضكم بعضا باسمه، بل قولوا يا رسول الله، أو يا نبي الله تعظيما ودعاء بأشرف أسمائه، وقيل: المعنى لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض، أي دعاؤه عليكم يجاب فاحذروه ولفظ الآية بعيد من هذا المعنى على أن المعنى صحيح.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ الذين ينصرفون عن حفر الخندق واللواذ: الروغان والمخالفة، وقيل: الانصراف في خفية. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الضمير لله ولرسوله ﷺ واختلف في عن هنا، فقيل: إنها زائدة وذلك ضعيف، وقال ابن عطية: معناه يقع خلافهم بعد أمره كما تقول كان المطر عن ريح، قال الزمخشري: يقال خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه، وخالفه عن الأمر إذا صد الناس عنه، فمعنى يخالفون عن أمره يصدون الناس عنه فحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف. ﴿فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الفتنة في الدنيا بالرزايا أو بالفضيحة أو القتل أو العذاب في الآخرة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ دخلت قد للتأكيد، وفي الكلام معنى الوعيد، وقيل: معناها التقليل على وجه التهكم والخطاب لجميع الخلق أو للمنافقين خاصة. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني المنافقين، والعامل في الظرف بينهم.

❊❊ ❊❊ ❊❊

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ۞ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

ثمن

سورة الفرقان

﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة وهو فعل مختص بالله تعالى لم ينطق له بالمضارع. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يعني محمدا ﷺ، وذلك على وجه التشريف له والاختصاص. ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الضمير لمحمد ﷺ، أو للقرآن والأول أظهر وقوله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عموم يشمل الجن والإنس ممن كان في عصره وممن يأتي بعده إلى يوم القيامة، وتضمن صدر هذه السورة إثبات النبوءة والتوحيد، والرد على من خالف في ذلك.

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الخلق: عبارة عن الإيجاد بعد العدم، والتقدير: عبارة عن إتقان الصنعة، وتخصيص كل مخلوق بمقداره، وصفته، وزمانه، ومكانه، ومصلحته، وأجله، وغير ذلك.

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ الضمير لقريش وغيرهم ممن أشرك بالله تعالى.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون قوما من اليهود، منهم: عداس، ويسار، وأبو فكيهة الرومي. ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي ظلموا النبي ﷺ فيما نسبوا إليه، وكذبوا في ذلك عليه.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سطره الأولون في كتبهم وكان الذي يقول هذه المقالة النضر بن الحارث. ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ أي كتبها له كاتب ثم صارت تملى

عليه ليحفظها، وهذا حكاية كلام الكفار، وقال الحسن[1]: إنه من قول الله على وجه الرد عليهم، ولو كان كذلك لقال: أكتتبها بفتح الهمزة لمعنى الإنكار، وقد يجوز حذف الهمزة في مثل هذا، وينبغي على قول الحسن أن يوقف على أساطير الأولين.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ رد على الكفار في قولهم، ويعني بالسر ما أسره الكفار من أقوالهم، أو يكون ذلك على وجه التنصل والبراءة مما نسبه الكفار إليه من الافتراء، أي أن الله يعلم سري فهو العالم بأني ما افتريت عليه، بل هو أنزله علي، فإن قيل: ما مناسبة قوله إنه كان غفورا رحيما لما قبله؟ فالجواب: أنه لما ذكر أقوال الكفار: أعقبها بذلك لبيان أنه غفور رحيم في كونه لم يعجل عليهم بالعقوبة بل أمهلهم، وإن أسلموا تاب عليهم وغفر لهم.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ الآية، قال هذا الكلام قريش، طعنا على النبي ﷺ، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾ وقولهم هذا الرسول على وجه التهكم، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أو يعنون الرسول بزعمه، ثم ذكر ما اقترحوا من الأمور في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وما بعده ثم وصفهم بالظلم وقد ذكرنا معنى مسحورا في ﴿سُبْحَٰنَ﴾.

﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي قالوا فيك تلك الأقوال. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يقدرون على الوصول إلى الحق لبعدهم عنه وإفراط جهلهم.

﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما ذكره الكفار من الكنز والجنة في الدنيا. ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ يعني جنات الآخرة وقصورها، وقيل: يعني جنات وقصورا في الدنيا، ولذلك قال: ﴿إِن شَآءَ﴾.

---

(١) لم أجده مسندا، وذكره الزمخشري في الكشاف: ٣/٢٦٩.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْـُٔولاً ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي إذا رأتهم جهنم وهذه الرؤية يحتمل أن تكون حقيقة أو مجازا بمعنى صارت منهم بقدر ما يرى على البعد. ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ التغيظ لا يسمع، وإنما المسموع أصوات دالة عليه ففي لفظه تجوز، والزفير: أول صوت الحمار[1].

﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ تضيق عليهم زيادة في عذابهم. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مربوط بعضهم إلى بعض، وروي: أن ذلك بسلاسل من النار. ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ الثبور: الويل، وقيل: الهلاك، ومعنى دعائهم ثبورا أنهم يقولون: يا ثبوراه، كقول القائل: واحسرتاه وأسفاه.

﴿لاَّ تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً﴾ تقديره: يقال لهم ذلك، أو يكون حالهم يقتضي ذلك وإن لم يكن ثم قول، وإنما دعوا ثبورا كثيرا لأن عذابهم دائم فالثبور يتجدد عليهم في كل حين.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ إنما جاز هنا التفضيل بين الجنة والنار لأن الكلام توقيف وتوبيخ، وإنما يمنع التفضيل بين شيئين ليس بينهما اشتراك في المعنى إذا كان الكلام خبرا.

﴿وَعْداً مَّسْـُٔولاً﴾ أي سأله المؤمنون أو الملائكة في قولهم: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ

(١) في لسان العرب، الزفير: أول نهيق الحمار وشبهه... حتى يقول: لأن الزفير إدخال النفس. (مادة: زفر).

جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ وقيل: معناه وعدا واجب الوقوع؛ لأنه قد حتمه.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القائل لذلك هو الله ﷻ، والمخاطب هم المعبودون مع الله على العموم، وقيل: الأصنام خاصة والأول أرجح، لقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أم هنا معادلة لما قبلها، والمعنى: أن الله يقول يوم القيامة للمعبودين: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا من تلقاء أنفسهم باختيارهم ولم تضلوهم أنتم، ولأجل ذلك بين هذا المعنى بقوله: ﴿هُمۡ﴾ ليتحقق إسناد الضلال إليهم فإنما سألهم الله هذا السؤال مع علمه بالأمور، ليوبخ الكفار الذين عبدوهم.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ القائل لهذا: هم المعبودون؛ قالوه على وجه التبري ممن عبدهم كقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والمراد بذلك توبيخ الكفار يومئذ، وإقامة الحجة عليهم. ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ معناه أن إمتاعهم بالنعم في الدنيا كان سبب نسيانهم لذكر الله وعبادته. ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي هالكين وهو من البوار بمعنى الهلاك، واختلف: هل هو جمع بائر، أو مصدر وصف به؟ ولذلك يقع على الواحد والجماعة.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ هذا خطاب خاطب الله به المشركين يوم القيامة، أي قد كذبكم آلهتكم التي عبدتم من دون الله وتبرؤوا منكم، وقيل: هو خطاب للمعبودين أي كذبوكم في هذه المقالة لما عبدوكم في الدنيا، وقيل: هو خطاب للمسلمين أي قد كذبكم الكفار فيما تقولونه من التوحيد والشريعة، وقرئ[1] بما يقولون بالياء من أسفل والباء في قوله بما تقولون على القراءة بالتاء بدل من

(١) ﴿كذبوكم بما تقولون﴾ روى ابن شنبوذ عن قنبل بالغيب، وروى عنه ابن مجاهد بالخطاب، وبذلك قرأ الباقون. النشر: ٢/٣٧٣.

حزب

• وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ • وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

ثمن

الضمير في كذبوكم وعلى القراءة بالياء كقولك: كتبت بالقلم، أو كذبوكم بقولهم. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ قرئ[1] فما تستطيعون بالتاء من فوق ويحتمل على هذا أن يكون الخطاب للمشركين أو للمعبودين والصرف على هذين الوجهين صرف العذاب عنهم أو يكون الخطاب للمسلمين والصرف على هذا رد التكذيب وقرئ بالياء وهو مسند إلى المعبودين أو إلى المشركين والصرف صرف العذاب. ﴿وَمَنْ يَّظْلِم مِّنكُمْ﴾ خطاب للكفار وقيل للمؤمنين وقيل على العموم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تقديره وما أرسلنا رسلا أو رجالا قبلك وعلى هذا المفعول المحذوف يعود الضمير في قوله: ﴿إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ وهذه الآية رد على الكفار في استبعادهم بعث رسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا خطاب لجميع الناس لاختلاف أحوالهم فالغنى فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والرسول فتنة لغيره ممن يحسده ويكفر به. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ تقديره: لننظر هل تصبرون.

﴿لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قيل: معناه لا يخافون، والصحيح أنه على بابه لأن لقاء الله يرجى ويخاف. ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ اقترح الكفار نزول الملائكة أو رؤية الله وحينئذ يؤمنون فرد الله عليهم بقوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾

(١) واختلفوا في ﴿فما تستطيعون﴾ فروى حفص بالخطاب وقرأ الباقون بالغيب ٢/٣٧٣.

الآية، أي طلبوا ما لا ينبغي لهم أن يطلبوه، وقوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ كما تقول: فلان عظيم في نفسه، أي عند نفسه، أو بمعنى أنهم أضمروا الكفر في أنفسهم.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ لما طلبوا رؤية الملائكة أخبر الله أنهم لا بشرى لهم يوم يرونهم فالعامل في يوم معنى لا بشرى ويومئذ بدل. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الضمير في يقولون إن كان للملائكة فالمعنى أنهم يقولون للمجرمين حجرا محجورا أي حرام عليكم الجنة أو البشرى، وإن كان الضمير للمجرمين فالمعنى أنهم يقولون حجرا بمعنى عوذا لأن العرب كانت تتعوذ بهذه الكلمة مما تكره وانتصابه بفعل متروك إظهاره نحو معاذ الله.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ أي قصدنا إلى أفعالهم فلفظ القدوم مجاز، وقيل: هو قدوم الملائكة أسنده الله إلى نفسه لأنه عن أمره. ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ عبارة عن عدم قبول ما عملوا من الحسنات كإطعام المساكين وصلة الأرحام وغير ذلك، وأنها لا تنفعهم لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال، والهباء هي الأجرام الدقيقة من الغبار التي لا تظهر إلا حين تدخل الشمس على موضع ضيق كالكوة، والمنثور المتفرق.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ جاء هنا التفضيل بين الجنة والنار؛ لأن هذا مستقر وهذا مستقر. ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ هو مفعل من النوم في القائلة وإن كانت الجنة لا نوم فيها، ولكن جاء على ما تتعارفه العرب من الاستراحة وقت القائلة في الأمكنة الباردة، وقيل: إن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ هو يوم القيامة، وانشقاق السماء انفطارها ومعنى بالغمام أي يخرج منها الغمام وهو السحاب الرقيق الأبيض وحينئذ تنزل الملائكة إلى الأرض.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عض اليدين كناية عن الندم والحسرة،

والظالم هنا عقبة بن أبي معيط، وقيل: كل ظالم، والظلم هنا بمعنى الكفر. ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ هو محمد ﷺ، أو اسم جنس على العموم.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ روي[1]: أن عقبة جنح إلى الإسلام فنهاه أبي بن خلف وأمية بن خلف فهو فلان، وقيل: إن عقبة نهى أبي بن خلف عن الإسلام، فالظالم على هذا أبي، وفلان عقبة وإن كان الظالم على العموم ففلانا على العموم، أي خليل كل كافر.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾ يحتمل أن يكون هذا من قول الظالم أو ابتداء إخبار من قول الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالشيطان إبليس أو الخليل المذكور.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ قيل: إن هذا حكاية قوله ﷺ في الدنيا وقيل: في الآخرة. ﴿مَهْجُوراً﴾ من الهجر بمعنى البعد والترك، وقيل: من الهجر بضم الهاء أي قالوا فيه الهجر حين قالوا إنه شعر وسحر، والأول أظهر.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً﴾ العدو هنا جمع والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ وعد لمحمد ﷺ بالهدى والنصرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ هذا من اعتراضات قريش لأنهم قالوا لو كان القرآن من عند الله لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل. ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ هذا جواب لهم تقديره: أنزلناه كذلك مفرقا لنثبت به فؤاد محمد ﷺ لحفظه، ولو نزل جملة واحدة

(١) وقال ابن عباس: وجماعة من المفسرين «الظالم» في هذه الآية عقبة بن أبي معيط وذلك أنه كان أسلم أو جنح إلى الإسلام وكان أبي بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أحد «خليلا» لعقبة فنهاه عن الإسلام فقبل نهيه فنزلت الآية فيهم. جامع البيان للطبري: ٢٦٣/١٩، والمحرر الوجيز: ٣٥٣/٤.

لتعذر عليه حفظه لأنه أمي لا يقرأ فحفظ المفرق عليه أسهل، وأيضا فإنه نزل بأسباب مختلفة تقتضي أن ينزل كل جزء منه عند حدوث سببه، وأيضا منه ناسخ ومنسوخ ولا يتأتى ذلك فيما ينزل جملة واحدة. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فرقناه تفريقا، فإنه نزل بطول عشرين سنة[1]، وهذا الفعل معطوف على الفعل المقدر الذي يتعلق به كذلك وبه يتعلق ﴿لِنُثَبِّتَ﴾.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ الآية معناها لا يوردون عليك سؤالا أو اعتراضا إلا أتيناك في جوابه بالحق والتفسير الحسن، الذي يذهب اعتراضهم ويبطل شبهتهم.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يعني الكفار وحشرهم على وجوههم حقيقة لأنه جاء في الحديث[2] قيل يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادرا على أن يمشيه في الآخرة على وجهه. ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يحتمل أن يريد بالمكان المنزلة والشرف، أو الدار والمسكن في الآخرة.

﴿وَزِيرًا﴾ معينا. ﴿إِلَى الْقَوْمِ﴾ يعني فرعون وقومه، وفي الكلام حذف، تقديره: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم.

---

(١) وقيل: ثلاث وعشرين سنة، وتقدم الكلام في ذلك في مقدمة الكتاب.

(٢) في الصحيح: عن أنس، أن رجلا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يُمشِيَه على وجهه يوم القيامة» صحيح البخاري رقم (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم رقم (٢٨٠٦). شرح السنة للبغوي الحديث رقم: (٤٣١٥).

﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ تأويله كما ذكر في قوله في هود: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يريد بالظالمين من تقدم، ووضع هذا الاسم الظاهر موضع المضمر لقصد وصفهم بالظلم، أو يريد الظالمين على العموم.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ معنى الرس في اللغة البئر، واختلف في أصحاب الرس، فقيل: هم من بقية ثمود، وقيل: من أهل اليمامة، وقيل: من أهل أنطاكية، وهم أصحاب يس، واختلف في قصتهم، فقيل: بعث الله إليهم نبيئا فرموه في بئر فأهلكهم الله، وقيل: كانوا حول بئر لهم فانهارت بهم فهلكوا. ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ يقتضي التكثير والإبهام، والإشارة بذلك إلى المذكور قبل من الأمم.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي بينا له. ﴿تَبَّرْنَا﴾ أي أهلكنا.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ الضمير في أتوا لقريش وغيرهم من الكفار، والقرية قرية قوم لوط، و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ الحجارة، ثم وقفهم على رؤيتهم لها لأنها في طريقهم إلى الشام، ثم أخبر أن سبب عدم اعتبارهم بها كفرهم بالنشور و﴿يَرْجُونَ﴾ كقوله ﴿يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقد ذكر.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ حكاية قولهم على وجه الاستهزاء، فالجملة في موضع مفعول لقول محذوف يدل عليه هزؤا، وقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ استئناف جملة أخرى وتم كلامهم، واستأنف كلام الله تعالى في قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الآية على وجه التهديد لهم.

﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أطاع هواه حتى صار كأنه له إله.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام ليس لها عقول وهؤلاء لهم عقول ضيعوها، ولأن الأنعام تطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء يتركون أنفع الأشياء وهو الثواب، ولا يخافون أضر الأشياء وهو العقاب.

أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ • أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴿٥٥﴾

ربع

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى صنع ربك وقدرته. ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾ قيل: مده من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ لأن الظل حينئذ على الأرض كلها، واعترضه ابن عطية[1] بأن ذلك الوقت من الليل، ولا يقال ظل بالليل، واختار أن مد الظل ما بين أول الإسفار إلى طلوع الشمس وبعد مغيبها بيسير، وقيل: معنى مد الظل أي جعله يمتد وينبسط. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ أي ثابتا غير زائل لكنه جعله يزول بالشمس، وقيل: معنى ساكن غير منبسط على الأرض، بل يلتصق بأصل الحائط والشجرة ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ قيل: معناه أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على الظل متى يتسع ومتى ينقبض ومتى يزول عن مكان إلى آخر، فيبنون على ذلك انتفاعهم به وجلوسهم فيه، وقيل: معناه لولا الشمس لم يعرف عن الظل شيء، لأن الأشياء لم تعرف إلا بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ قبضه نسخه وإزالته بالشمس، ومعنى يسيرا شيئا بعد شيء لا دفعة واحدة، فإن قيل: ما معنى ثم في هذه المواضع الثلاثة؟ فالجواب: أنه يحتمل أن تكون للترتيب في الزمان، أي جعل الله هذه الأحوال حالا بعد حال، أو تكون لبيان التفاضل بين هذه الأحوال الثلاثة، وأن الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم من الثاني.

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٢٥٧.

﴿الَّيْلَ لِبَاساً﴾ شبه ظلام الليل باللباس لأنه يستر كل شيء كاللباس. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ قيل: راحة، وقيل: موتا لقوله: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، ويدل عليه مقابلته بالنشور.

﴿الرِّيَاحَ نُشْراً﴾ ذكر في الأعراف. ﴿مَآءً طَهُوراً﴾ مبالغة في طاهر، وقيل: معناه مطهر للناس في الوضوء وغيره، وبهذا المعنى يقول الفقهاء: ماء طهورا أي مطهرا، وكل مطهر طاهر وليس كل طاهر مطهر.

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ قيل: جمع إنسي، وقيل: جمع إنسان والأول أصح.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ الضمير للقرآن، وقيل: للمطر وهو بعيد.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً﴾ أي لو شئنا لخففنا عنك أثقال الرسالة ببعث جماعة من الرسل، ولكنا خصصناك بها كرامة لك فاصبر عليها.

﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ الضمير للقرآن، أو لما دل عليه الكلام المتقدم.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ اضطرب الناس في هذه الآية لأنه لا يعلم في الدنيا بحر ملح وبحر عذب، وإنما البحار المعروفة ماؤها ملح، قال ابن عباس[1]: أراد بالبحر الملح الأجاج بحر الأرض، وبالبحر العذب الفرات، وقيل: بحر السحاب، وقيل: البحر الملح البحر المعروف والبحر العذب مياه الأرض، وقيل: البحر الملح جميع الماء الملح من الآبار وغيرها، والبحر العذب هو مياه الأرض من الأنهار والعيون، ومعنى الفرات: البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة، والأجاج نقيضه، واختلف في معنى مرجهما، فقيل: جعلهما متجاورين متلاصقين، وقيل: أسال أحدهما في الآخر. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ أي فاصلا يفصل بينهما وهو ما بينهما من الأرض بحيث لا يختلطان، وقيل: هذا البرزخ يعلمه الله ولا يراه البشر.

---

(١) لم نجده مسندا.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ۞ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

لين سجدة

﴿خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ إن أراد بالبشر آدم فالمراد بالماء: الماء الذي خلط مع التراب فصار طينا، وإن أراد بالبشر بني آدم فالمراد بالماء: المني الذي يخلقون منه.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب والصهر يعمان كل قربى النسب أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو أم قرب ذلك أو بعد، والصهر هو الاختلاط بالنكاح، وقيل: أراد بالنسب الذكور أي ذوي نسب ينتسب إليهم، وأراد بالصهر الإناث أي ذوات صهر يصاهر بهن وهو كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الكافر هنا الجنس، وقيل: المراد أبو جهل، والظهير المعين أي يعين الشيطان على ربه بالعداوة والشرك، ولفظه يقع للواحد والجماعة كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أسئلكم على الإيمان أجرة ولا منفعة. ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ معناه: إنما أسألكم أن تتخذوا إلى ربكم سبيلا بالتقرب إليه وعبادته، فالاستثناء منقطع، وقيل: المعنى أن تتخذوا إلى ربكم سبيلا بالصدقة، فالاستثناء على هذا متصل، والأول أظهر، وفي الكلام محذوف، تقديره: إلا سؤال من شاء أو ما أشبه ذلك.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ قرأ هذه الآية بعض السلف فقال: لا

ينبغي لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق فإنه يموت. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي قل: سبحان الله وبحمده، والتسبيح التنزيه عن كل ما لا يليق به، ومعنى بحمده أي بحمده أقول ذلك، ويحتمل أن يكون المعنى سبحه متلبسا بحمده، فهو أمر بأن يجمع بين التسبيح والحمد. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد بهذا بيان حلمه وعفوه عن عباده مع علمه بذنوبهم، أو يكون المراد تهديد العباد لعلم الله بذنوبهم.

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ذكر في الأعراف. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبر ابتداء مضمر، أو بدل من الضمير في استوى. ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ فيه معنيان:

أحدهما: وهو الأظهر، أن المراد اسأل عنه من هو خبير عارف به، وانتصب خبيرا على المفعولية، وهذا الخبير المسؤل هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعلماء وأهل الكتاب، والباء في قوله به يحتمل أن تتعلق بـ ﴿خَبِيرًا﴾ أو تتعلق بالسؤال، ويكون معناها على هذا معنى عن.

والمعنى الثاني: أن المراد اسأل بسؤاله خبيرا، أي إن سألته تعالى تجده خبيرا بكل شيء، فانتصب خبيرا على الحال وهو كقولك: لو رأيت فلانا رأيت به أسدا، أي رأيت برؤيته أسدا.

﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لما ذكر الرحمن في القرآن أنكرته قريش وقالوا لا نعرف الرحمن، وكان مسيلمة الكذاب قد تسمى بالرحمن فقالوا على وجه المغالطة: إنما الرحمن الرجل الذي باليمامة. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ تقديره: لما تأمرنا أن نسجد له. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الضمير المفعول في زادهم يعود على المقول وهو ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ يعني المنازل الاثنى عشر، وقيل: الكواكب العظام. ﴿سِرَٰجًا﴾ يعني الشمس وقرئ[1] بضم السين والراء على الجمع يعني جميع الأنوار، ثم خص

---

(١) ﴿سراجا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم السين والراء من غير ألف على الجمع، وقرأ الباقون

القمر بالذكر تشريفا.

﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يخلف هذا هذا، وقيل: هو من الاختلاف لأن هذا أبيض وهذا أسود، والخلفة اسم الهيئة كالركبة والجلسة، فالأصل جعلهما ذوي خلفة. ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ قيل: معناه يعتبر في المصنوعات، وقيل: معناه يتذكر لما فاته من الصلوات وغيرها في الليل فيستدركه في النهار، أو فاته بالنهار فيستذكره بالليل، وهو قول عمر بن الخطاب[1] وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي عباده المرضيون عنده، فالعبودية هنا للتشريف والكرامة، وعباد مبتدأ وخبره الذين يمشون، أو قوله في آخر السورة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي رفقا ولينا بحلم ووقار، ويحتمل أن يكون ذلك وصف مشيهم على الأرض، أو وصف أخلاقهم في جميع أحوالهم، وعبر بالمشي على الأرض عن جميع تصرفهم مدة حياتهم. ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي قالوا قولا سديدا ليدفع الجاهل برفق، وقيل: معناه قالوا للجاهل سلاما، أي هذا اللفظ بعينه بمعنى سلمنا منكم، قال بعضهم: هذه الآية منسوخة بالسيف، وإنما يصح النسخ في حق الكفار، وأما الإغضاء عن السفهاء والحلم عنهم فمستحسن غير منسوخ.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ وما بعده يحتمل أن يكون من كلامهم، أو من كلام الله ﷻ. ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ أي هلاكا وخسرانا، وقيل: ملازما.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ الإقتار: هو التضييق في النفقة والشح، وضده: الإسراف، فنهى عن الطرفين وأمر بالتوسط بينهما وهو القوام وذلك في الإنفاق في المباحات وفي الطاعات، وأما الإنفاق في المعاصي: فهو

بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على الأفراد. النشر: ٢/٣٧٤.

(١) قال ابن عطية: وقال عمر بن الخطاب والحسن وابن عباس معناه: لمن أراد أن يذكر ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه. المحرر الوجيز: ٤/٢٦٤.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

إسراف وإن قل.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي عقابا، وقيل: الأثام الإثم فمعناه يلق جزاء أثام، وقيل: الأثام واد في جهنم، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر من الشرك بالله وقتل النفس بغير حق والزنا.

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ قيل: نزلت في الكفار[1] لأنهم المخلدون في النار بإجماع، فكأنه قال: الذين يجمعون بين الشرك والقتل والزنا، وقيل: نزلت في المؤمنين الذين يقتلون النفس ويزنون، فأما على مذهب المعتزلة فالخلود على بابه، وأما على مذهب أهل السنة، فالخلود عبارة عن طول المدة.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ إن قلنا الآية في الكفار فلا إشكال فيها لأن الكافر إذا أسلم صحت توبته من الكفر والقتل والزنا، وإن قلنا إنها في المؤمنين فلا خلاف أن التوبة من الزنا تصح، واختلف: هل تصح توبة المسلم من القتل أم لا؟ ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قيل: يوفقهم الله لفعل الحسنات بدلا عما عملوا من السيئات، وقيل: إن هذا التبديل في الآخرة أي يبدل عقاب السيئات بثواب الحسنات.

﴿يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي متابا مقبولا مرضيا عند الله، كما تقول: لقد قلت يا فلان قولا، أي قولا حسنا.

﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يشهدون بالزور وهو الكذب فهو من الشهادة،

---

(١) لم أقف عليه مسندا.

وقيل: لا يحضرون مجالس الزور واللهو، فهو على هذا من المشاهدة والحضور، والأول أظهر. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ اللغو هو الكلام القبيح على اختلاف أنواعه ومعنى مروا كراما أي أعرضوا عنه واستحيوا ولم يدخلوا مع أهله تنزيها لأنفسهم عن ذلك.

﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أي لم يعرضوا عن آيات الله بل أقبلوا عليها بأسماعهم وقلوبهم فالنفي للصمم والعمى لا للخرور عليها.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قيل: معناه اجعل أزواجنا وذريتنا مطيعين لك، وقيل: أدخلهم معنا الجنة، واللفظ أعم من ذلك. ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ أي قدوة يقتدي بنا المتقون، فإمام مفرد يراد به الجنس، وقيل: هو جمع آم أي متبع.

﴿الْغُرْفَةَ﴾ يعني غرفة الجنة فهي اسم جنس.

﴿قُلْ مَايَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية وفي معنى الدعاء هنا ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى إن الله لا يبالي بكم لولا عبادتكم له، فالدعاء بمعنى العبادة وهذا قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

الثاني: أن الدعاء بمعنى الاستغاثة والسؤال، والمعنى: لا يبالي الله بكم ولكن يرحمكم إذا استغثتم به ودعوتموه، ويكون على هذين القولين خطابا لجميع الناس من المؤمنين والكافرين؛ لأن فيهم من يعبد الله ويدعوه، أو خطابا للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يدعون الله ويعبدونه، ولكن يضعف هذا بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.

الثالث: أنه خطاب للكفار خاصة، والمعنى على هذا: ما يعبأ بكم ربي لولا أن يدعوكم إلى دينه، والدعاء على هذا بمعنى الأمر بالدخول في الدين، وهو

مصدر مضاف إلى المفعول، وأما على القول الأول والثاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ هذا خطاب لقريش وغيرهم من الكفار دون المؤمنين. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي سوف يكون العذاب لزاما ثابتا، وأضمر العذاب وهو اسم كان لأنه جزاء التكذيب المتقدم، واختلف: هل يراد بالعذاب هنا القتل يوم بدر، أو عذاب الآخرة؟.

❁❁ ❁❁ ❁❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربع

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩)

سورة الشعراء

﴿طسٓمٓ﴾ تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، ويخص هذا أنه قيل: الطاء من ذي الطول، والسين من السميع أو السلام، والميم من الرحيم أو المنعم.

﴿بَٰخِعٌ﴾ ذكر في الكهف.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ الأعناق جمع عنق وهي الجارحة المعروفة، وإنما جمع خاضعين جمع العقلاء لأنه أضاف الأعناق إلى العقلاء، ولأنه وصفها بفعل لا يكون إلا من العقلاء، وقيل: الأعناق الرؤساء من الناس شبهوا بالأعناق كما يقال لهم: رؤوس وصدور، وقيل: هم الجماعات من الناس، فلا يحتاج جمع خاضعين إلى تأويل.

﴿مُّحْدَثٍ﴾ يعني به محدث الإتيان. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ الآية تهديد.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف من النبات فيعم ذلك الأقوات والفواكه والأدوية والمرعى، ووصفه بالكرم لما فيه من الحسن ومن المنافع.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ الإشارة إلى ما تقدم من النبات، وإنما ذكره بلفظ الإفراد لأنه أراد أن في كل واحد آية، أو إشارة إلى مصدر قوله أنبتنا.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ بالرفع عطف على أخاف أو استئناف وقرئ[1] بالنصب

---

(١) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ قرأ يعقوب بنصب القاف منهما، وقرأ الباقون برفعها. النشر: ٢/٣٧٥.

عطفا على يكذبون. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أي اجعله معي رسولا أستعين به.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني قتله للقبطي.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي لا تخف أن يقتلوك. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ خطاب لموسى وأخيه ومن كان معهما، أو على جعل الاثنين جماعة. ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ لفظه جمع وورد مورد تعظيم الله تعالى، ويحتمل أن تكون الملائكة هي التي تستمع بأمر الله؛ لأن الله لا يوصف بالاستماع وإنما يوصف بالسمع، والأول أحسن وتأويله أن في الاستماع اعتناء واهتماما بالأمر ليست في صفة سامعون، والخطاب في قوله معكم لموسى وهارون وفرعون وقومه، وقيل: لموسى وهارون خاصة على معاملة الاثنين معاملة الجماعة، وذلك على قول من يرى أن أقل الجمع اثنان.

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾ إن قيل: لم أفرده وهما اثنان؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التقدير كل واحد منا رسول.

الثاني: أنهما جعلا كشخص واحد لاتفاقهما في الشريعة، ولأنهما أخوان فكأنهما واحد.

الثالث: أن رسول هنا مصدر وصف به فلذلك أطلق على الواحد والاثنين والجماعة، فإنه يقال رسول بمعنى رسالة، بخلاف قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا﴾ فإنه بمعنى المرسل.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ أي أطلقهم.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ قصد فرعون بهذا الكلام المن على موسى والاحتقار له.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ﴾ قصد فرعون بهذا الكلام

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴿٢٢﴾ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

توبيخ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويعني بالفعلة قتله للقبطي، والواو في قوله وأنت إن كانت للحال فقوله: من الكافرين معناه كافرا بهذا الدين الذي جئت به؛ لأن موسى إنما أظهر لهم الإسلام بعد الرسالة وقد كان قبل ذلك مؤمنا ولم يعلم بذلك فرعون، وقيل: معناه من الكافرين بنعمتي وإن كانت الواو للاستئناف فيحتمل أن يريد من الكافرين بديني، أو من الكافرين بنعمتي.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ القائل هنا هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والضمير في قوله: فعلتها لقتله القبطي، واختلف في معنى قوله: من الضالين فقيل معناه من الجاهلين بأن وكزتي تقتله، وقيل: معناه من الناسين فهو كقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ وقوله: ﴿إِذاً﴾ صلة في الكلام وكأنها بمعنى حينئذ قال ذلك ابن عطية[1].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ أي من فرعون وقومه، ولذلك جمع ضمير الخطاب بعد أن أفرده في قوله: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ معنى عبدت ذللت واتخذتهم عبيدا، فمعنى هذا الكلام أنك عددت نعمة عليّ تعبيد بني إسرائيل، وليست في الحقيقة بنعمة إنما كانت نقمة لأنك تذبح أبناءهم ولذلك وصلت أنا إليك فربيتني، فالإشارة بقوله: تلك إلى التربية و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في موضع رفع

(١) المحرر الوجيز: ٤/٢٧٥.

عطف بيان على تلك، أو في موضع نصب على أنه مفعول من أجله، وقيل: معنى الكلام تربيتك نعمة علي لأنك عبدت بني إسرائيل وتركتني، فهي في المعنى الأول إنكار لنعمته، وفي الثاني اعتراف بها.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لما أظهر فرعون الجهل بالله فقال: وما رب العالمين؟ أجابه موسى بقوله: رب السموات والأرض. فقال: ألا تستمعون تعجبا من جوابه، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله: ربكم ورب آبائكم الأولين؛ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء وأعظم البراهين، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه، وأبدى الازدراء والتهكم في قوله: ﴿رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾؛ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحد جحدها، ولا أن يدعيها لغير الله، ولذلك أقام إبراهيم الخليل بها الحجة على نمروذ فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب، فهدده بالسجن، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة، وذكرها له بتلطف طمعا في إيمانه، فقال: أولو جئتك بشيء مبين؟ والواو واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام، وتقديره: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين؟ وقد تقدم في الأعراف: ذكر العصا، واليد، وماذا تأمرون، وأرجه، وحاشرين. فإن قيل: كيف قال أولا إن كنتم موقنين، ثم قال آخرا: إن كنتم تعقلون؟ فالجواب: أنه لاين أولا طمعا في إيمانهم فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون: إن رسولكم... لمجنون.

﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ﴾ هو يوم الزينة.

﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي نتبعهم في نصرة ديننا لا في عمل السحر؛ لأن عمل السحر كان حراما.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم
مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ قَالُوا لَا
ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن
كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

ربع

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ قسم أقسموا به وقد تقدم في الأعراف تفسير ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وما بعد ذلك.

﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا يضرنا ذلك لأننا ننقلب إلى الله.

﴿أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إخبار باتباع فرعون.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ الشرذمة الطائفة من الناس وفي هذا احتقار لهم على أنه روي: أنهم كانوا ستمائة ألف[1]، ولكن جنود فرعون أكثر منهم بكثير.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني التي بمصر، والعيون الخلجان الخارجة من النيل وكانت ثم عيون في ذلك الزمان، وقيل: يعني الذهب والفضة وهو بعيد.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ مجالس الأمراء والحكام، وقيل: المنابر، وقيل: المساكن الحسان

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع خفض صفة لمقام، أو في موضع نصب على تقدير: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج، أو في موضع رفع على أنه خبر ابتداء، تقديره: الأمر

(١) قال ابن عطة: وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا قاله ابن عباس، والله أعلم بصحته، وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل، وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك العدد، قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل، والشرذمة الجمع القليل المحتقر وشرذمة كل شيء بقيته الخسيسة. المحرر الوجيز: ٤/٢٧٩.

فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

ثمن

كذلك. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ أي أورثهم الله مواضع فرعون بمصر على أن التواريخ لم يذكر فيها ملك بني إسرائيل لمصر، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام، فتأويله على هذا أورثهم مثل ذلك بالشام ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: لحقوهم، وضمير الفاعل لفرعون وقومه، وضمير المفعول لبني إسرائيل.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾ معناه داخلين في وقت الشروق وهو طلوع الشمس، وقيل: معناه نحو المشرق وانتصابه على الحال.

﴿تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ وزن تراءى تفاعل، وهو مشتق من الرؤية، والجمعان جمع موسى وجمع فرعون، أي رأى بعضهم بعضا.

﴿فَانفَلَقَ﴾ تقدير الكلام: فضرب موسى البحر فانفلق. ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي كل جزء منه، والطود الجبل، وروي: أنه صار في البحر اثني عشر طريقا لكل سبط من بني إسرائيل طريق.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني بالآخرين فرعون وقومه، ومعنى أزلفنا: قربناهم من البحر ليغرقوا، وثم هنا ظرف يراد به حيث انفلق البحر وهو بحر القلزم.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ إنما سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم أن ما يعبدونه ليس بشيء ويقيم عليهم الحجة.

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ إن قيل: لم صرحوا بقولهم نعبد مع أن السؤال وهو قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يغني عن التصريح بذلك، وقياس مثل هذا الاستغناء بدلالة السؤال كقوله: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾؟ فالجواب: أنهم صرحوا بذلك على وجه الافتخار والابتهاج بعبادة الأصنام، ثم زادوا قولهم فنظل لها عاكفين مبالغة في ذلك.

﴿بَلْ وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا﴾ اعتراف بالتقليد المحض.

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، وقيل: متصل لأن في آبائهم من عبد الله تعالى.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه وأسند الشفاء إلى الله، تأدبا مع الله.

﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ قيل: أراد كذباته الثلاث الواردة في الحديث، وهي قوله في سارة زوجته: هي أختي، وقوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم[1]، وقيل: أراد الجنس على الإطلاق لأن هذه الثلاث من المعاريض فلا إثم فيها.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء جميلا.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ وما بعده منقطع عن كلام إبراهيم وهو من كلام الله تعالى،

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣١٧٩)، ومسلم الحديث رقم: (٢٣٧١)، وتقدم تخريجه.

ويحتمل أن يكون أيضا من كلام إبراهيم.

﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قيل: سليم من الشرك والمعاصي، وقيل: الذي يلقى ربه وليس في قلبه شيء غيره، وقيل: بقلب لديغ من خشية الله، والسليم هو اللديغ لغة، وقال الزمخشري: هذا من بدع التفاسير، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا فيكون من أتى الله مفعولا بقوله: ﴿لاَ يَنفَعُ﴾ والمعنى على هذا أن المال لا ينفع إلا من أنفقه في طاعة الله، وأن البنين لا ينفعون إلا من علمهم الدين وأوصاهم بالحق، ويحتمل أيضا أن يكون متصلا ويكون قوله: ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ بدلا من قوله: ﴿مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ على حذف مضاف، تقديره: إلا مال من أتى الله وبنوه، ويحتمل أن يكون منقطعا بمعنى لكن.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي قربت.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾ يعني المشركين بدلالة ما بعده.

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ كبكبوا مضاعف من كب كررت حروفه دلالة على تكرير معناه، أي كبهم الله في النار مرة بعد مرة، والضمير للأصنام والغاوون هم المشركون، وقيل: الضمير للمشركين والغاوون هم الشياطين.

﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نجعلكم سواء معه.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني كبراءهم وأهل الجرم والجراءة منهم.

﴿حَمِيمٍ﴾ أي خالص الود، قال الزمخشري[1]: جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الأصدقاء.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أسند الفعل إلى القوم، وفيه علامة التأنيث لأن القوم في معنى الجماعة والأمة، فإن قيل: كيف قال المرسلين بالجمع وإنما

(١) الكشاف: ٣/٣٢٧.

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي
وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ
الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)
كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ
(١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧)
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
(١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)

كذبوا نوحا وحده؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد الجنس كقولك: فلان يركب الخيل، وإنما لم يركب إلا فرسا واحدا.

والآخر: أن من كذب نبيا واحدا فقد كذب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن قولهم واحد ودعوتهم سواء، وكذلك الجواب في ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ وغيرهم.

﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع أرذل وقد تقدم الكلام عليه في قوله ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ في هود.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الذين سموهم أرذلين فإن الكفار أرادوا من نوح أن يطردهم كما أرادت قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد: عمار بن ياسر، وصهيبا، وبلالا، وأشباههم من الضعفاء.

﴿الْمَرْجُومِينَ﴾ يحتمل أن يريد الرجم بالحجارة، أو بالقول وهو الشتم.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ أي احكم بيننا.

﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الريع المكان المرتفع، وقيل: الطريق. ﴿آيَةً﴾ يعني المباني الطوال، وقيل: أبراج الحمام.

﴿مَصَانِعَ﴾ جمع مصنع وهو ما أتقن صنعه من المباني، وقيل: مأخذ الماء.

إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ • أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

ثمن

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ الآية تفسير لقوله ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ فأبهم أولا ثم فسره.

﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام أي عادتهم، والمعنى: أنهم قالوا ما هذا الذي عليه من ديننا إلا عادة الناس الأولين وقرئ[1] بفتح الخاء وإسكان اللام، ويحتمل على هذا وجهين:

أحدهما: أنها بمعنى الخلقة والمعنى ما هذه الخلقة التي نحن عليها إلا خلقة الأولين.

والآخر: أنها من الاختلاق بمعنى الكذب، والمعنى ما هذا الذي جئت به إلا كذب الأولين.

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ تخويف لهم، معناه: أتطمعون أن تتركوا في النعم على كفركم.

﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ الطلع: عنقود التمر في أول نباته قبل أن يخرج من الكم، والهضيم: اللين الرطب، فالمعنى: أن طلعها يتم ويرطب، وقيل: هو الرخص أول ما يخرج، وقيل: الذي ليس فيه نوى، فإن قيل: لم ذكر النخل بعد ذكر الجنات، والجنات تحتوي على النخل؟ فالجواب: أن ذلك تجريد كقوله: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ويحتمل أنه أراد الجنات التي ليس فيها نخل، ثم عطف عليها النخل.

---

(١) ﴿خلق الأولين﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير بفتح الخاء وإسكان اللام، وقرأ الباقون بضم الخاء واللام. النشر: ٢/٣٧٥.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

ربع

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ ذكر في الأعراف. ﴿فَرِهِينَ﴾ قرئ[1] بألف وبغير ألف وهو منصوب على الحال من الفاعل في تنحتون، وهو مشتق من الفراهة وهي النشاط والكيس، وقيل: معناه أقوياء وقيل: أشرين بطرين.

﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ مبالغة في المسحورين وهو من السحر بكسر السين، وقيل: من السحر بفتح السين وهي الرؤية، والمعنى على هذا: إنما أنت بشر.

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي حظ من الماء.

﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ لما تغيرت ألوانهم حسبما أخبرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ندموا حيث لا تنفعهم الندامة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ التي ماتوا منها، وهي العذاب المذكور هنا.

﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين وفي قوله قال ومن القالين ضرب من ضروب التجنيس.

﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجني من عقوبة عملهم أو اعصمني من عملهم والأول أرجح.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يعني امرأة لوط. ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ ذكر في الأعراف وكذلك أمطرنا.

(١) ﴿فرهين﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بألف. المصدر.

﴿أَصْحَـٰبُ لَيْكَـةِ﴾ قرئ[١] بالهمز وخفض التاء مثل الذي في الحجر وق ومعناه الغيضة من الشجر، وقرئ هنا وفي ص بفتح اللام والتاء، فقيل: إنه مسهل من الهمز، وقيل: إنه اسم بلدهم، ويقوي هذا القول بأنه على هذه القراءة بفتح التاء غير منصرف يدل على ذلك أنه اسم علم، وضعف ذلك الزمخشري، وقال إن الأيكة اسم لا يعرف[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لم يقل هنا (أخوهم) كما قال في قصة نوح وغيره، وقيل: إن شعيبا بعث إلى مدين وكان من قبيلتهم فلذلك قيل: وإلى مدين أخاهم شعيبا، وبعث أيضا إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم فلذلك لم يقل أخوهم فكان شعيبا على هذا مبعوثا إلى القبيلتين، وقيل: إن أصحاب الأيكة مدين ولكنه قيل: أخوهم حين ذكرهم باسم قبيلتهم ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها تنزيها لشعيب عن النسبة إليها.

﴿مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي من الناقصين للكيل والوزن.

﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان المعتدل.

﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ يعني القرون والأمم المتقدمة.

﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ هي سحابة من نار أحرقتهم فأهلك الله مدين بالصيحة، وأهلك أصحاب الأيكة بالظلة، فإن قيل: لم كرر قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ مع

---

(١) ﴿أصحاب الأيكة﴾ هنا وفي ص٨١٩ قرأهما المدنيان وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة من غير ألف وصل قبلها ولا همزة بعدها وبفتح تاء التأنيث في الوصل مثل حيوة وطلحة وكذلك رسماً في جميع المصاحف، وقرأ الباقون بألف الوصل مع إسكان اللام وهمزة مفتوحة بعدها، وخفض تاء التأنيث في الموضعين وحمزة في الوقف على أصله، واتفقوا على حرفي الحجر أنهما بهذه الترجمة إجماع المصاحف على ذلك، وورش ومن وافقه في النقل على أصلهم. النشر المصدر السابق.

(٢) الكشاف: ٣/٣٣٦.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

كل قصة؟ فالجواب أن ذلك أبلغ في الاعتبار وأشد تنبيها للقلوب، وأيضا فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه، فختمت بما ختمت به صاحبتها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الضمير للقرآن.

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه لأن القلب هو الذي يحفظ.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ يعني كلام العرب هو متعلق بنزل أو بالمنذرين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ المعنى: أن القرآن مذكور في كتب المتقدمين ففي ذلك دليل على صحته، ثم أقام الحجة على قريش بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بأنه من عند الله آية لكم وبرهان والمراد من أسلم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام، وقيل: الذين كانوا يبشرون بمبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الآية الأعجمي: جمع أعجم، وهو الذي لا يتكلم سواء كان إنسانا أو بهيمة أو جمادا، والأعجم المنسوب إلى العجم، وقيل: بمعنى الأعجم، ومعنى الآية أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ثم قرأه عليهم لا يؤمنون لإفراط عنادهم، ففي الآية تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كفرهم

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمْلِ — ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

به مع وضوح برهانه.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معنى سلكناه: أدخلناه، والضمير للتكذيب الذي دل عليه ما تقدم من الكلام أو للقرآن، أي سلكناه في قلوبهم مكذبا به، وتقدير قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل هذا المسلك سلكناه، والمجرمين يحتمل أن يريد به قريشا أو الكفار المتقدمين، ولا يؤمنون تفسير للسلك الذي سلكه في قلوبهم.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تمنوا أن يؤخروا حين لم ينفعهم التمني.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لقريش على استعجالهم بالعذاب في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وشبه ذلك.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ المعنى: أن مدة إمهالهم لا تغني مع نزول العذاب بعدها وإن طالت مدة سنين؛ لأن كل ما هو آت قريب، قال بعضهم: سنين يراد به عمر الدنيا.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ المعنى: أن الله لم يهلك قوما إلا بعد أن أقام الحجة عليهم بأن أرسل إليهم رسولا فأنذرهم فكذبوه.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوب على المصدر من معنى الإنذار، أو على الحال من الضمير في منذرون، أو على المفعول من أجله، أو مرفوع على أنه خبر ابتداء مضمر.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الضمير للقرآن، وهذا رد على من قال: إنه كهانة

نزلت به الشياطين على محمد.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ما يمكنهم ذلك ولا يقدرون عليه، ولفظ ما ينبغي تارة يستعمل بمعنى لا يمكن، وتارة بمعنى لا يليق.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ تعليل لكون الشياطين لا يستطيعون الكهانة لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد ﷺ، وقد كان أمر الكهان كثيرا منتشرا قبل ذلك.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ عشيرة الرجل هم قرابته الأدنون، ولما نزلت هذه الآية أنذر النبي ﷺ قرابته فقال: يا بني هاشم[1] أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، ثم نادى كذلك ابنته فاطمة، وعمته صفية، قال الزمخشري[2] في معناه قولان:

أحدهما: أنه أمر أن يبدأ بإنذار أقاربه قبل غيرهم من الناس.

والآخر: أنه أمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب من الرأفة بقريبه ولا يحابيهم بالإنذار.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ عبارة عن لين الجانب والرفق وعن التواضع.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي حين تقوم في الصلاة، ويحتمل أن يريد سائر التصرفات.

---

(١) روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، ولفظ البخاري «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷻ: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. قال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا». الحديث رقم: (٢٦٠٢)، ومسلم الحديث رقم: (٥٢٥)، وغيرهما.

(٢) الكشاف: ٣/٣٤٤.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ معطوف على ضمير المفعول في قوله يراك والمعنى أنه يراك حين تقوم وحين تسجد، وقيل: معناه يرى صلاتك مع المصلين، ففي ذلك إشارة إلى الصلاة في الجماعة، وقيل: يرى تقلب بصرك في المصلين خلفك؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يراهم من وراء ظهره.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هذا جواب السؤال المتقدم وهو قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ والأفاك الكذاب، والأثيم الفاعل للإثم، يعني بذلك الكهان، وفي هذا رد على من قال: إن الشياطين تنزلت على سيدنا محمد ﷺ بالكهانة؛ لأنها لا تنزل إلا على أفاك أثيم، وكان ﷺ على غاية الصدق والبر.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ معناه يستمعون، والضمير يحتمل أن يكون للشياطين بمعنى أنهم يستمعون إلى الملائكة، أو يكون للكهان بمعنى أنهم يستمعون إلى الشياطين، وقيل: يلقون بمعنى يلقون المسموع، والضمير يحتمل أيضا على هذا أن يكون للشياطين لأنهم يلقون الكلام إلى الكهان، أو يكون للكهان لأنهم يلقون الكلام إلى الناس. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني الشياطين أو الكهان لأنهم يكذبون فيما يخبرون به عن الشياطين.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لما ذكر الكهان ذكر الشعراء ليبين أن القرآن ليس بكهانة ولا شعر لتباين ما بين أوصافه وأوصاف الشعر والكهانة، وأراد الشعراء الذين يلقون من الشعر ما لا ينبغي كالهجاء والمدح بالباطل وغير ذلك، وقيل: أراد شعراء الجاهلية، وقيل: شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم، و﴿الْغَاوُونَ﴾ قيل: هم رواة الشعر، وقيل: هم سفهاء الناس الذين تعجبهم الأشعار لما فيها من اللغو والباطل، وقيل: هم الشياطين.

﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استعارة وتمثيل، أي يذهبون في كل وجه من الكلام

الحق والباطل، ويفرطون في التجوز حتى يخرجوا إلى الكذب.

﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية استثناء من الشعراء يعني بهم شعراء المسلمين كحسان بن ثابت، وغيره، ممن اتصف بهذه الأوصاف، وقيل: إن هذه الآية مدنية ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ قيل: معناه ذكروا الله في أشعارهم، وقيل: يعني الذكر على الإطلاق. ﴿وَانتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ إشارة إلى ما قاله حسان بن ثابت وغيره من الشعراء في هجو الكفار بعد أن هجا الكفار النبي ﷺ. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وعيد للذين ظلموا والظلم هنا بمعنى الاعتداء على الناس لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ وعمل ينقلبون في أي لتأخره، وقيل: إن العامل في أي سيعلم.

❊❊ ❊❊ ❊❊

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) • وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)

ربع

سورة النمل

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ عطف الكتاب على القرآن كعطف الصفات بعضها على بعض، وإن كان الموصوف واحدا.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في موضع نصب على المصدر، أو في موضع رفع على أنه خبر ابتداء مضمر.

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة فتكون بقية صلة الذين، أو تكون مستأنفة وتمت الصلة قبلها ورجح الزمخشري هذا[1].

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني في الدنيا وهو القتل يوم بدر، ويحتمل أن يريد عذاب الآخرة، والأول أرجح لأنه ذكر الآخرة بعد ذلك.

﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي تعطاه. ﴿ءَانَسْتُ﴾ ذكر في طه، وكذلك قبس، والشهاب النجم شبه القبس به وقرئ[2] بإضافة شهاب إلى قبس، وبالتنوين على البدل أو الصفة، فإن قيل: كيف قال هنا ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ وفي الموضع الآخر

---

(١) قال الزمخشري: فإن قلت: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه... الكشاف: ٣٥٢/٣.

(٢) ﴿بشهاب﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب بالتنوين وقرأ الباقون بغيره النشر: ٣٧٦/٢، وانظر التيسر، ص: ١١١.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ والفرق بين الترجي والتسويف أن التسويف متيقن الوقوع، بخلاف الترجي؟ فالجواب: أنه قد يقول الراجي سيكون كذا إذا قوي رجاؤه. ﴿تَصْطَلُونَ﴾ معناه تستدفئون بالنار من البرد، ووزنه تفعلون وهو مشتق من صلى بالنار والطاء بدل من التاء.

﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أن مفسرة وبورك من البركة، ومن في النار يعني من في مكان النار، ومن حولها من حول مكانها، يريد الملائكة الحاضرين وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الزمخشري[1]: والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض، وفي ذلك الوادي، وما حوله من أرض الشام. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو يكون مستأنفا وعلى كلا الوجهين قصد به تنزيه الله مما عسى أن يخطر ببال السامع من معنى النداء أو في قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار، إذ قال بعض الناس فيه ما يجب تنزيه الله عنه.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك، فكلاهما تفسير للنداء. ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ الجان: الحية، وقيل: الحية الصغيرة، وعلى هذا يشكل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾، والجواب: أنها ثعبان في جرمها، جان في سرعة حركتها. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع أو لم يلتفت.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع، تقديره: لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين، وقيل: إنه متصل على القول بتجويز الذنوب على الأنبياء، وهذا بعيد، لأن الصحيح عصمتهم من الذنوب، وأيضا فإن تسميتهم ظالمين شنيع على القول بتجويز الذنوب عليهم. ﴿بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أي عمل صالحا.

---

(١) الكشاف: ٣/٣٥٤.

وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

﴿فِي جَيْبِكَ﴾ ذكر في طه. ﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ﴾ متصل بقوله: ألق، وأدخل، تقديره: نيسر لك ذلك في جملة تسع آيات، وقد ذكرت الآيات التسع في الإسراء. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام، تقديره: اذهب بالآيات التسع إلى فرعون.

﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ظاهرة واضحة الدلالة، وأسند الإبصار لها مجازا وهو في الحقيقة لمتأملها.

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ يعني أنهم جحدوا بها مع أنهم تيقنوا أنها الحق فكفرهم عناد، ولذلك قال فيه: ظلما، والواو فيه واو الحال، وأضمرت بعدها قد علوا يعني تكبروا.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي ورث عنه النبوءة والعلم والملك. ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص، والمراد بهذا اللفظ التكثير، كقولك: فلان يقصده كل أحد، وقوله: علمنا وأوتينا يحتمل أن يريد نفسه وأباه، أو نفسه خاصة على وجه التعظيم؛ لأنه كان ملكا.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ اختلف الناس في عدد جنود سليمان اختلافا شديدا، تركنا ذكره لعدم صحته. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يكفون ويرد أولهم إلى آخرهم، ولا بد لكل ملك أو حاكم من وزعة يدفعون الناس.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر هذا أن سليمان وجنوده كانوا مشاة بالأرض أو ركبانا حتى خافت منهم النمل، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح، وأحست النملة بنزولهم في وادي النمل. ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ النمل: حيوان فطن، قوي الحس، يدخر قوته، ويقسم الحبة بقسمين؛ لئلا تنبت، ويقسم حبة الكزبور بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت قسمين، ولإفراط إدراكها قالت هذا القول، وروي[1] أن سليمان سمع كلامها وكان بينه وبينها ثلاثة أميال، وذلك لا يسمعه البشر إلا من خصه الله بذلك. ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء. ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ يحتمل أن يكون جوابا للأمر، أو نهيا بدلا من الأمر لتقارب المعنى. ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الضمير لسليمان وجنوده، والمعنى: اعتذار عنهم لو حطموا النمل، أي لو شعروا بهم لم يحطموهم.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا﴾ تبسم لأحد أمرين:

أحدهما: سروره بما أعطاه الله.

والآخر: ثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قولها وهم لا يشعرون وصف لهم بالتقوى، والتحفظ من مضرة الحيوان.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ اختلف الناس في معنى تفقده للطير، فقيل: ذلك لعنايته بأمور ملكه، وقيل: لأن الطير كانت تظله فغاب الهدهد فدخلت الشمس عليه من موضعه. ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أم منقطعة فإنه نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره، فقال: مالي لا أرى الهدهد؟ أي لا أراه ولعله حاضر وستره ساتر، ثم علم أنه غائب فأخبر بذلك.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ روي: أن تعذيبه للطير كان بنتف ريشه[2].

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٣٠٣.

(٢) قال ابن عطية: ورُوي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن تنتف،=

إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة بينة.

﴿فَمَكَثَ﴾ أي أقام، ويجوز فتح الكاف وضمها وبالفتح قرأ عاصم[1] والفعل يحتمل أن يكون مسندا إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إلى الهدهد وهو أظهر. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يعني زمان قريب. ﴿أَحَطتُّ﴾ أي أحطت علما بما لم تعلمه. ﴿مِن سَبَإٍ﴾ يعني قبيلة من العرب، وجدهم الذي يعرفون به: سبأ بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان، ومن صرفه أراد الحي أو الأب، ومن لم يصرفه أراد القبيلة أو البلدة، وقرئ[2] بالتسكين لتوالي الحركات وعلى القراءة بالتنوين يكون في قول: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ ضرب من أدوات البيان، وهو التجنيس.

﴿وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ المرأة بلقيس بنت شراحيل، كان أبوها ملك اليمن ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على الملك، والضمير في تملكهم يعود على سبإ وهم قومها. ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم يراد به الخصوص فيما يحتاجه الملك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني سرير ملكها، ووقف بعضهم على عرش، ثم ابتدأ: عظيم وجدتها، على تقدير: عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وهذا

= قال ابن جريج: ريشه أجمع، وقال يزيد بن رومان جناحاه. المحرر الوجيز: ٤/٣٠٤
ولكن هذا الأثر يحتاج إلى سند.

(١) ﴿فمكث﴾ قرأ عاصم وروح بفتح الكاف وقرأ الباقون بضمها. النشر: ٢/٣٧٧.

(٢) ﴿من سبإ﴾ هنا ﴿ولسبإ﴾ في سورة سبإ قرأ أبو عمرو والبزي بفتح الهمز من غير تنوين فيهما، وروى قنبل بإسكان الهمزة منهما، وقرأ الباقون في الحرفين بالخفض والتنوين. النشر: ٢/٣٧٧.

خطأ، وإنما حمله عليه الفرار من وصف عرشها بالعظمة.

﴿أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ من كلام الهدهد أو من كلام الله، وقرأ الجمهور بالتشديد وأن في موضع نصب على البدل من أعمالهم، أو في موضع خفض على البدل من السبيل، أو يكون التقدير: لا يهتدون لأن يسجدوا بحذف اللام وزيادة لا، وقرئ[١] بالتخفيف على أن تكون لا حرف تنبيه، وأن تكون الياء حرف نداء فيوقف عليها بالألف على تقدير: ياقوم ثم يبتدأ اسجدوا. ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ الخبء: في اللغة الخفي، وقيل: معناه هنا الغيب، وقيل: يخرج النبات من الأرض، واللفظ يعم كل خفي وبه فسره ابن عباس[٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تنح إلى مكان قريب لتسمع ما يقولون، وروي: أنه دخل عليها من كوة فألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة، وقيل: إن التقدير: انظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم، فهو من المقلوب، والمعنى الأول أحسن. ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ من قوله ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُاْ﴾ قبل هذا الكلام محذوف، تقديره: فألقى الهدهد إليها الكتاب فقرأته، ثم جمعت أهل ملكها، فقالت لهم يا أيها الملأ. ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لأنه من عند سليمان، أو لأن فيه اسم الله، أو لأنه مختوم كما جاء في الحديث[٣] كرم الكتاب ختمه.

---

(١) ﴿الا يسجدوا﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس بتخفيف اللام ووقفوا في الابتداء ﴿الا يا﴾ وابتدؤا ﴿اسجدوا﴾ بهمزة مضمومة على الأمر على معنى ألا يا هؤلاء، أو يا أيها الناس اسجدوا فحذفت همزة الوصل بعد «يا» وقبل السين من الخط على مراد الوصل دون الفصل... إلخ المصدر السابق.

(٢) انظر: ابن أبي حاتم في تفسيره: ٢٨٦٨/٩.

(٣) لم أجده مسندا وهو في بعض كتب التفسير، روح البيان: ٢٤٦/٦، والنسفي: ١٦٩/٣، والفخر الرازي: ٣٤٦٣/١، والبحر المحيط: ٦٩/٧، والظاهر أنه من الكلمات الشائعة التي تنسب للحديث.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ۞ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

ثمن

﴿مِن سُلَيْمَانَ﴾ يحتمل أن يكون هذا نص الكتاب بدأ فيه بالعنوان، وأن يكون من كلامها أخبرتهم أن الكتاب من سليمان.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من الانقياد بمعنى مستسلمين، أو يكون من الدخول في الإسلام.

﴿أُولُوا قُوَّةٍ﴾ يحتمل أن يريد قوة الأجساد، أو قوة الملك والعدد.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من كلام الله ﷻ تصديقا لقولها، فيوقف على ما قبله، أو من كلام بلقيس تأكيدا للمعنى الذي أرادته، وتعني: كذلك يفعل هؤلاء بنا.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ قالت لقومها إني أجرب هذا الرجل بهدية من نفائس الأموال، فإن كان ملكا دنيويا أرضاه المال، وإن كان نبيا لم يرضه المال وإنما يرضيه دخولنا في دينه، فبعث إليه هدية عظيمة وصفها الناس، واختصرنا وصفها لعدم صحته.

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ إنكار للهدية لأن الله أغناه عنها بما أعطاه. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي أنتم محتاجون إليها فتفرحون بها وأنا لست كذلك.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ خطاب للرسول، وقيل: للهدهد، والأول أرجح لأن قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ مسند إلى الرسول. ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بها.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ القائل سليمان والملأ جماعة من الجن والإنس، وطلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين؛ لأنه وصف له بعظمة، فأراد أن يأخذه قبل أن يسلموا، فيمنع إسلامهم من أخذ أموالهم، فمسلمين على هذا من الدخول في دين الإسلام، وقيل: إنما طلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين، ليظهر لهم قوته فمسلمين على هذا بمعنى منقادين.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ روي[1]: عن وهب بن منبه أن اسم هذا العفريت الكودن. ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي قبل أن تقوم من مجلس الحكم، وكان يجلس من غدوة إلى الظهر، وقيل: معناه قبل أن تستوي من جلوسك قائما.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو آصف بن برخيا، وكان رجلا صالحا من بني إسرائيل كان يعلم اسم الله الأعظم، وقيل: هو الخضر، وقيل: هو جبريل، والأول أشهر، وقيل: سليمان وهذا بعيد. ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ في الموضعين يحتمل أن يكون فعلا مستقبلا أو اسم فاعل. ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الطرف العين، فالمعنى على هذا: قبل أن تغمض بصرك إذا نظرت إلى شيء، وقيل: الطرف تحريك الأجفان إذا نظرت. ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قيل: هنا محذوف تقديره: فجاءه الذي عنده علم من الكتاب بعرشها، ومعنى مستقرا عنده: حاصلا عنده وليس هذا بمستقر الذي يقدر النحويون تعلق المجرورات به، خلافا لمن فهم ذلك. ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ تنكيره تغيير وصفه وستر بعضه، وقيل: الزيادة فيه والنقص منه وقصد بذلك اختبار عقلها وفهمها. ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ يحتمل أن يريد تهتدي لمعرفة عرشها أو للجواب عنه إذا سئلت أو للإيمان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ كان عرشها قد وصل قبلها إلى سليمان

---

(١) لم أجده مسندا.

فأمر بتنكيره، وأن يقال لها أهكذا عرشك؟ أي أمثل هذا عرشك لئلا تفطن أنه هو، فأجابته بقولها: كأنه هو جوابا عن السؤال، ولم تقل هو تحرزا من الكذب، أو من التحقيق في محل الاحتمال. ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ هذا من كلام سليمان وقومه، لما رأوها قد آمنت قالوا ذلك اعترافا بنعمة الله عليهم في أن آتاهم العلم قبل بلقيس، وهداهم للإسلام قبلها، والجملة معطوفة على كلام محذوف تقديره: قد أسلمت هي وعلمت وحدانية الله وصحة النبوءة وأوتينا نحن العلم قبلها.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا يحتمل أن يكون من كلام سليمان وقومه، أو من كلام الله تعالى، ويحتمل أن يكون: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعلا أو مفعولا، فإن كان فاعلا فالمعنى: صدها ما كانت تعبد عن عبادة الله والدخول في الإسلام حتى إلى هذا الوقت، وإن كان مفعولا فهو على إسقاط حرف الجر، والمعنى: صدها الله أو سليمان عن ما كانت تعبد من دون الله فدخلت في الإسلام.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ الصرح: في اللغة القصر، وقيل: صحن الدار، وروي: أن سليمان أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصرا من زجاج أبيض، وأجرى الماء من تحته، وألقى فيه دواب البحر من السمك وغيره، ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما رأته حسبته لجة، واللجة الماء المجتمع كالبحر فكشفت عن ساقيها لتدخله لما أمرت بدخوله، وروي: أن الجن كرهوا تزوج سليمان لها فقالوا له إن عقلها مجنون وإن رجلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش فوجدها عاقلة، واختبر ساقها بالصرح فلما كشفت عن ساقيها وجدها أحسن الناس ساقا، فتزوجها وأقرها على ملكها باليمن، وكان يأتيها مرة في كل شهر، وقيل: أسكنها معه بالشام. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ لما ظنت أن الصرح لجة ماء وكشفت عن ساقيها لتدخل الماء قال لها سليمان: إنه صرح ممرد، والممرد: الأملس، وقيل: الطويل،

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

والقوارير جمع قارورة، وهي الزجاجة.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تعني بكفرها فيما تقدم. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ هذا ضرب من ضروب التجنيس.

﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ الفريقان من آمن ومن كفر، واختصامهم اختلافهم وجدالهم في الدين.

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي لم تطلبون العذاب قبل الرحمة، أو المعصية قبل الطاعة.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي تشاءمنا بك، وكانوا قد أصابهم القحط. ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي السبب الذي يحدث عنه خيركم أو شركم هو عند الله وهو قضاؤه وقدره، وذلك رد عليهم في تطيرهم ونسبتهم ما أصابهم من القحط إلى صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني مدينة ثمود.

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: إنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم، ولفظ الفساد أعم من ذلك.

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي حلفوا بالله، وقيل: إنه فعل ماض وذلك ضعيف، والصحيح أنه فعل أمر قاله بعضهم لبعض وتعاقدوا عليه. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنقتلنه وأهله بالليل وهذا هو الفعل الذي تحالفوا عليه. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا

شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي نتبرأ من دمه إن طلبنا به وليه ومهلك: يحتمل أن يكون اسم مصدر أو زمان أو مكان، فإن قيل: إن قولهم ما شهدنا مهلك أهله يقتضي التبري من دم أهله دون التبري من دمه؟ فالجواب: من ثلاثة أوجه:

الأول: أنهم أرادوا ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله، وحذف مهلكه لدلالة قولهم لنبيتنه وأهله.

والثاني: أن أهل الإنسان قد يراد به هو وهم لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني فرعون وقومه.

الثالث: أنهم قالوا مهلك أهله خاصة ليكونوا صادقين فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا، وأرادوا التعريض في كلامهم لئلا يكذبوا.

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ يحتمل أن يكون قولهم وإنا لصادقون مغالطة مع اعتقادهم أنهم كاذبون، ويحتمل أنهم قصدوا وجها من التعريض ليخرجوا به عن الكذب، وقد ذكرناه في الجواب الثالث عن مهلك أهله وهو أنهم قصدوا أن يقتلوا صالحا وأهله معا، ثم يقولون ما شهدنا مهلك أهله وحدهم، وإنا لصادقون في ذلك، بل يعنون أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا، وعلى هذا حمله الزمخشري[١].

﴿إِنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ روي[٢]: أن الرهط الذين تقاسموا على قتل صالح اختفوا ليلا في غار قريب من داره ليخرجوا منه إلى داره بالليل، فوقعت عليهم صخرة فأهلكتهم، ثم هلك قومهم بالصيحة ولم يعلم بعضهم بهلاك بعض، ونجا صالح ومن آمن به.

---

(١) الكشاف: ٣/٣٧٧ ثم قال: وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم، ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب..

(٢) لم أجده مسندا، وذكره ابن عطية في تفسيره انظر المحرر الوجيز: ٤/٣١٣.

فلما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴿٥٦﴾ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴿٥٧﴾ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴿٥٨﴾ • قل الحمد لله وسلم على عباده الذين اصطفى ءآلله خير أما تشركون ﴿٥٩﴾ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴿٦٠﴾ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٦١﴾ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ﴿٦٢﴾ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴿٦٣﴾

حزب

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ قيل: معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية، وقيل: تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض، وقيل: تبصرون آثار الكفار قبلكم وما نزل بهم من العذاب، (يتطهرون)، و(الغابرين)، و(أمطرنا)، قد ذكر.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ أمر الله رسوله أن يتلو الآيات المذكورة بعد هذا لأنها براهين على وحدانيته وقدرته، وأن يستفتح ذلك بحمده والسلام على من اصطفاه من عباده، كما تستفتح الخطب والكتب وغيرها بذلك تيمنا بذكر الله، قال ابن عباس[1] يعني بعباده الذين اصطفى الصحابة، واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة وجميع الصالحين. ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ هذا على وجه الرد على المشركين فدخلت خير التي يراد بها التفضيل لتبكيتهم وتعنيفهم، مع أنه معلوم أنه لا خير فيما أشركوا أصلا، ثم أقام عليهم الحجة بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض وبغير ذلك مما ذكره إلى تمام هذه الآيات، وأعقب كل برهان منها بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ على وجه التقرير لهم على أنه لم يفعل ذلك كله إلا الله وحده، فقامت عليهم الحجة بذلك، وفيها أيضا نعم يجب شكرها فقامت بذلك أيضا، وأم في قوله ﴿خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ متصلة عاطفة وأم في

(١) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره: عن ابن عباس: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ قال: أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم ـ وروي عن السدي: ٩/٢٩٠٦.

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٧﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٨﴾ • وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَآؤُنَا أَيِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧١﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٧﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٨﴾

المواضع التي بعده منقطعة بمعنى بل والهمزة.

﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون عن الحق والصواب، أو يعدلون بالله غيره، أي يجعلون له عديلا ومثيلا.

﴿رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال.

﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ ذكر في الفرقان.

﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ قيل: هو المجهود، وقيل: الذي لا حول له ولا قوة، واللفظ مشتق من الضرر أي الذي أصابه الضر، أو من الضرورة، أي الذي ألجأته الضرورة إلى الدعاء. ﴿خُلَفَآءَ الْأَرْضِ﴾ أي خلفاء فيها تتوارثون سكناها.

﴿أَمَّنْ يَّهْدِيكُمْ﴾ يعني الهداية بالنجوم والطرقات. ﴿نُشْرًا﴾ ذكر في الأعراف.

﴿مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ الرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات.

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ تعجيز للمشركين.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذه الآية تقتضي انفراد الله تعالى بعلم الغيب، وأنه لا يعلمه سواه، ولذلك قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]: «**من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد أعظم الفرية على الله**» ثم قرأت هذه الآية، فإن

(١) أورده الزمخشري: ٣/٣٦٦، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٣١٨ بدون ذكر سند.

قيل: فقد كان النبي ﷺ يخبر بالغيوب وذلك معدود في معجزاته، فالجواب: أنه ﷺ قال: «إني لا أعلم الغيب إلا ما علمني الله»[(١)].

فإن قيل: كيف ذلك مع ما ظهر من إخبار الكهان والمنجمين وأشباههم بالأمور المغيبة؟ فالجواب: أن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف، أو عن وهم لا عن علم، وإنما اقتضت الآية نفي العلم، وقد قيل: إن الغيب في هذه الآية يراد به متى تقوم الساعة؛ لأن سبب نزولها أنهم سألوا عن ذلك ولذلك قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فعلى هذا يندفع السؤال الأول والثاني؛ لأن علم الساعة انفرد به الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ ولقوله ﷺ: «في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ: إن الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة»[(٢)].

فإن قيل: كيف قال إلا الله بالرفع على البدل والبدل لا يصح إلا إذا كان

---

(١) أورده الزمخشري: ٣٦٦/٣ ولفظ الطبري: ١٣٥/١٨«إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فإن بعض من لم يرسخ في الإيمان، كان يظن ذلك، حتى كان يرى أن صحة النبوءة تستلزم اطلاع النبي ﷺ على جميع المغيبات، كما وقع في المغازي لابن إسحاق: أن ناقة النبي ﷺ ضلت، فقال زيد بن اللصيت: يزعم محمد أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال النبي ﷺ: «إن رجلا يقول كذا وكذا، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها وهي في شعب كذا، قد حبستها شجرة»، فذهبوا فجاءوه بها. فأعلم النبي ﷺ أنه لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ انظر فتح الباري: ٣٦٤/١٣، وقد أخرج هذه القصة الواقدي في المغازي: ٤٢٣/٢.

تكملة: وزيد بن اللصيت: كان ممن تعوذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره، وهو منافق من أحبار يهود من بني قينقاع، انظر الذهبي في تاريخ الإسلام، ص: ٣٩، ٤٠، وقد قيل: إنه تاب وحسن حاله. ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٣٩٦/٢.

(٢) البخاري الحديث رقم: (٤٤٩٩)، ومسلم الحديث رقم: (١٠٦)، وصحيح ابن خزيمة الحديث رقم: (٢٢٤٤)، وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (١٥٩)، وسنن ابن ماجه الحديث رقم: (٦٤).

الاستثناء متصلا ويكون ما بعد إلا من جنس ما قبلها والله تعالى ليس ممن في السموات والأرض باتفاق فإن القائلين بالجهة والمكان يقولون إنه فوق السموات والأرض والقائلين بنفي الجهة يقولون إن الله تعالى ليس بهما ولا فوقهما ولا داخلا فيهما ولا خارجا عنهما فهو على هذا استثناء منقطع فكان يجب أن يكون منصوبا؟

فالجواب: من أربعة أوجه:

الأول: أن البدل هنا جاء على لغة بني تميم في البدل وإن كان منقطعا كقولهم: ما في الدار أحد إلا حمار بالرفع، والحمار ليس من الأحدين، وهذا ضعيف؛ لأن القرآن أنزل بلغة الحجاز لا بلغة بني تميم.

والثاني: أن الله في السموات والأرض بعلمه، كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يعني بعلمه فجاء البدل على هذا المعنى، وهذا ضعيف؛ لأن قوله في السموات والأرض وقعت فيه لفظة في الظرفية الحقيقية، وهي في حق الله على هذا المعنى للظرفية المجازية، ولا يجوز استعمال لفظة واحدة في الحقيقة والمجاز في حالة واحدة عند المحققين.

الجواب الثالث: أن قوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يراد به كل موجود فكأنه قال: من في الوجود فيكون الاستثناء على هذا متصلا فيصح الرفع على البدل، وإنما قال: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جريا على منهاج كلام العرب فهو لفظ خاص يراد به ما هو أعم منه.

الجواب الرابع: أن يكون الاستثناء متصلا على أن يتأول من في السموات في حق الله، كما يتأول قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وحديث الجارية[1] وشبه ذلك.

---

(١) في الموطإ بالسند، عن عمر بن الحكم انه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن جارية لي كانت ترعى غنما لي، فجئتها وقد فقدت شاة من الغنم، فسألتها عنها، فقالت: أكلها الذئب فأسفت عليها، وكنت من بني آدم فلطمت وجهها، وعلي رقبة، أفأعتقها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله؟ فقالت: في السماء، فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله،=

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يشعرون من في السموات والأرض متى يبعثون؛ لأن علم الساعة مما انفرد به الله، روي[١]: أن سبب نزول هذه الآية أن قريشا سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متى الساعة؟.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ وزن ادارك تفاعل ثم سكنت التاء وأدغمت في الدال واجتلبت ألف الوصل، والمعنى: تتابع علمهم بالآخرة وتناهى إلى أن يكفروا بها، أو تناهى إلى أن لا يعلموا وقتها وقرئ[٢] أدرك بهمزة قطع على وزن أفعل، والمعنى على هذا: يدرك علمهم في الآخرة أي يعلمون فيها الحق لأنهم يشاهدون حينئذ الحقائق، فقوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ على هذا ظرف وعلى القراءة الأولى بمعنى الباء. ﴿عَمُونَ﴾ جمع عم وهو من عمى القلوب.

﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي تبعكم واللام زائدة أو ضمن معنى قرب وتعدى باللام، ومعنى الآية: أنهم استعجلوا العذاب بقولهم: متى هذا الوعد؟ فقيل لهم: عسى أن يكون قرب لكم بعض العذاب الذي تستعجلون، وهو قتلهم يوم بدر.

﴿غَائِبَةٍ﴾ الهاء فيه للمبالغة أي ما من شيء في غاية الخفاء إلا وهو عند الله في كتاب.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ شبه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء، ثم شبههم بالصم وبالعمي وإن كانوا صحاح الحواس، وأكد عدم سماعهم بقوله إذا ولوا مدبرين لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي زاد صممه وعدم سماعه بالكلية.

= فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أعتقها (١٤٦٨)، ومسلم الحديث رقم (١٢٢٧)، وفيه زيادة: (فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ). ورواه غيرهما.

(١) لم أجده مسندا. وأورده الكشاف: ٣/٣٨٣.

(٢) ﴿بل ادارك﴾ قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر بقطع الهمزة مفتوحة وإسكان الدال من غير ألف بعدها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد الدال مفتوحة وألف بعدها. النشر: ٢/٣٧٩.

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ربع

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا حان وقت عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله في ذلك وهو قضاؤه، والمعنى: إذا قربت الساعة أخرجنا لهم دابة من الأرض وخروج الدابة من أشراط الساعة، وروي: أنها تخرج من المسجد الحرام، وقيل: من الصفا، وأن طولها ستون ذراعا، وقيل: هي الجساسة التي وردت في الحديث[1]. ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ قيل: تكلمهم ببطلان الأديان كلها إلا دين الإسلام، وقيل: تقول لهم ألا لعنة الله على الظالمين، وروي: أنها تسم الكافر وتحطم أنفه وتسود وجهه وتبيض وجه المؤمن. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ من قرأ بكسر الهمزة[2] فهو ابتداء كلام ومن قرأ بالفتح فهو مفعول تكلمهم أي تقول لهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون أو مفعول من أجله تقديره

---

(١) قصة الجساسة أوردها مسلم في صحيحه الحديث رقم: (٧٥٧٣) ضمن حديث طويل، وهي في صحيح ابن حبان الحديث رقم: (٦٧٨٧)، والترمذي الحديث رقم: (٢٢٥٣)، والنسائي الحديث رقم: (٤٢٥٨)، وسنن أبي داود الحديث رقم: (٤٣٣٠).

(٢) قال الداني: الكوفيون ﴿أن الناس﴾ بفتح الهمزة والباقون بكسرها. التيسير ص/١١٢، ومعهم يعقوب. البدور الزاهرة، ص: ٢٦١

وقال ابن عطية: وقرأ جمهور القراء ﴿إن الناس﴾ بكسر إن، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم أن بفتح الألف، وفي قراءة عبد الله «تكلمهم بأن» وهذا تصديق للفتح، وعلى هذه القراءة يكون قوله «إن الناس» إلى آخر القراءة من تمام كلام الدابة، وروي ذلك عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله ﷻ.

المحرر الوجيز: ٤/٣٢٢.

تكلمهم لأن الناس لا يوقنون ثم حذفت اللام ويحتمل قوله لا يوقنون بخروج الدابة ولا يوقنون بالآخرة وأمور الدين وهذا أظهر.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يساقون بعنف. ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم استفهامية والمعنى إقامة الحجة عليهم كأنه قيل لهم إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوها.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي حق العذاب عليهم أو قامت الحجة عليهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إنما يسكتون لأن الحجة قد قامت عليهم وهذا في بعض مواطن القيامة وقد جاء أنهم يتكلمون في مواطن.

﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ذكر في يونس.

﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ذكر في الكهف. ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل: هم الشهداء، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين متذللين.

﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي قائمة ثابتة. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ يكون مرورها في أول أحوال يوم القيامة، ثم ينسفها الله في خلال ذلك فتكون كالعهن، ثم تصير هباء منبثا ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ مصدر والعامل فيه محذوف وقيل هو منصوب على الإغراء أي انظروا صنع الله

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيل: إن الحسنة لا إله إلا الله، واللفظ أعم، ومعنى خير منها: أن له بالحسنة الواحدة عشرا. ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ من نون فزع فتح الميم من يومئذ[1] ومن أسقط التنوين للإضافة قرأ بفتح الميم على البناء أو بكسرها على الإعراب.

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ السيئة هنا الكفر والمعاصي التي قضى الله بتعذيب فاعلها.

---

(١) ﴿وهم من فزع يومئذ﴾ قرأ الكوفيون بتنوين فزع وقرأ الباقون بغير تنوين وقرأ المدنيان والكوفيون بفتح ميم (يومئذ) وقرأ الباقون بكسرها. النشر: ٢/٣٨٠.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَصِ — ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

ثمن

﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة.

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حرما آمنا لا يقاتل فيها أحد ولا ينتهك حرمتها ونسب تحريمها هنا إلى الله؛ لأنه بسبب قضائه وأمره ونسبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: «إن إبراهيم حرم مكة»[١] لأن إبراهيم هو الذي أعلم الناس بتحريمها، فليس بين الحديث والآية تعارض، وقد جاء في حديث آخر[٢] أن مكة حرمها الله يوم خلق السموات والأرض.

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي إنما علي الإنذار والتبليغ.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وعيد بالعذاب الذي يضطرهم إلى معرفة آيات الله إما في الدنيا أو في الآخرة.

---

(١) في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم ما بين لابتيها» الحديث رقم: (٣١٨٧)، ومسلم الحديث رقم: (٣٣٧٩)، ولفظه: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لأَهْلِ مَكَّةَ». وغيرهما.

(٢) في صحيح البخاري: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرف». وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا؟ فقال: (إلا الإذخر) الحديث رقم: (١٧٣٦)، وسنن الترمذي الحديث رقم: (١٤٠٦)، وسنن ابن ماجه (٣١٠٩)، ومشكل الآثار الحديث رقم: (٥٠٤٧)، وشرح السنة للبغوي: ٣/٤٣٤، وغيرهم.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ
نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ربع

سورة القصص

﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تكبر وطغا. ﴿شِيَعًا﴾ أي فرقا مختلفين فجعل فرعون القبط ملوكا وبني إسرائيل خداما لهم وهم الطائفة الذين استضعفهم وأراد الله أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة أي ولاة في الأرض أرض فرعون وقومه.

﴿وَهَامَانَ﴾ هو وزير فرعون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ اختلف: هل كان هذا الوحي بإلهام أو منام أو كلام بواسطة الملك؟ وهذا أظهر لثقتها بما أوحى إليها وامتثالها ما أمرت به. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أي إذا خفت عليه أن يذبحه فرعون لأنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل لما أخبره الكهان أن هلاكه على يد غلام منهم.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ الالتقاط اللقاء من غير قصد، روي: أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت في البحر وهو النيل فأمرت أن يساق لها ففتحته فوجدت فيه صبيا فأحبته وقالت لفرعون: هذا قرة عين لي ولك. ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ اللام لام العاقبة، وتسمى أيضا لام الصيرورة.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ روي: أن فرعون هم بذبحه إذ توسم أنه من بني إسرائيل فقالت امرأته: لا تقتلوه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون أن هلاكهم يكون على يديه،

والضمير الفاعل لفرعون وقومه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغاً﴾ أي ذاهلا لا عقل معها، وقيل: فارغا من الحزن إذ لم يغرق، وهذا بعيد لما بعده، وقيل: فارغا من كل شيء إلا من ذكر الله، وقرئ[1] فزعا بالزاي من الفزع. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِے﴾ أي تظهر أمره وفي الحديث[2]: «كادت أم موسى أن تقول وإبناه، وتخرج صائحة على وجهها». ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي رزقناها الصبر. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدقين بالوعد الذي وعدها الله.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعيه والقص طلب الأثر فخرجت أخته تبحث عنه في خفية. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي رأته من بعيد ولم تقرب منه لئلا يعلموا أنها أخته، وقيل: معنى عن جنب عن شوق إليه، وقيل: معناه أنها نظرت إليه كأنها لا تريده. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون أنها أخته.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ أي منع منها بأن بغضها الله له، والمراضع جمع مرضعة وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع بفتح الميم والضاد وهو موضع الرضاع يعني الثدي. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من أول مرة. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ القائلة أخته تخاطب آل فرعون.

﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰ أُمِّهِۦ﴾ لما منعه الله من المراضع وقالت أخته: هل أدلكم على أهل بيت الآية جاءت بأمه فقبل ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه فما قبل ثدي امرأة إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة اللبن، فذهبت به إلى بيتها وقرت عينها بذلك، وعلمت أن وعد الله حق في قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

(١) قال ابن عطية: وقرأ فضالة بن عبد الله، ويقال ابن عبيد والحسن «فزعا» من الفزع بالفاء والزاي، وقرأ ابن عباس قرعا بالقاف والراء من القارعة وهي الهم العظيم. المحرر الوجيز: ٤/٣٢٨.

(٢) لم أجده مسندا وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٣٢٨.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ۞ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

ثمن

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ذكر في يوسف. ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي كمل عقله وذلك مع الأربعين سنة.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني مصر، وقيل: قرية حولها، والأول أشهر. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ قيل: في القائلة، وقيل: بين العشاءين، وقيل: يوم عيد، وقيل: كان قد جفا فرعون وخاف على نفسه فدخل مختفيا متخوفا. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ الذي من شيعته من بني إسرائيل، والذي من عدوه من القبط. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضربه والوكز الدفع بأطراف الأصابع، وقيل: بجمع الكف. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله ولم يرد أن يقتله ولكن وافقت وكزته الأجل، فندم وقال: هذا من عمل الشيطان، أي إن الغضب الذي أوجب ذلك كان من الشيطان، ثم اعترف واستغفر فغفر الله له، **فإن قيل**: كيف استغفر من القتل وكان المقتول كافرا؟ **فالجواب**: أنه لم يؤذن له في قتله، ولذلك يقول يوم القيامة: «إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها»[1].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الظهير المعين والباء سببية، والمعنى بسبب إنعامك علي لا أكون ظهيرا للمجرمين، فهي معاهدة

---

(١) جاء ذلك صحيحا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواه البخاري الحديث رقم: (٤٤٣٥) ضمن حديث الشفاعة، ومسلم الحديث رقم: (٥٠١)، والمسند: ١٥/٣٨٥، والترمذي الحديث رقم: (٢٤٣٤).

عاهد موسى عليها ربه، وقيل: الباء باء القسم وهذا ضعيف؛ لأن قوله فلن أكون لا يصلح لجواب القسم، وقيل: جواب القسم محذوف تقديره: وحق نعمتك لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين، وقيل: الباء للتحليف أي اعصمني بحق نعمتك علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين، ويحتج بهذه الآية على المنع من صحبة ولاة الجور.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في الموضعين أي يستحس هل يطلبه أحد. ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي يستغيث به، لقي موسى الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل رجلا آخر من القبط فاستغاث بموسى لينصره كما نصره بالأمس، فعظم ذلك على موسى وقال له: إنك لغوي مبين.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَّبْطِشَ بِالَّذِے هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ الضمير في أراد وفي يبطش لموسى، وفي قال للإسرائيلي، والمعنى: لما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي ظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به إذ قال له إنك لغوي مبين، فقال الإسرائيلي لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس، وقيل: الضمير في أراد للإسرائيلي، والمعنى: فلما أراد الإسرائيلي أن يبطش موسى بالقبطي ولم يفعل موسى ذلك لندامته على قتله الآخر بالأمس فنصح الإسرائيلي، فقال له: أتريد أن تقتلني فاشتهر خبر قتله للآخر إلى أن وصل إلى فرعون.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قيل: إنه مؤمن آل فرعون، وقيل: غيره. ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يسرع في مشيه ليدرك موسى فينصحه. ﴿إِنَّ اَلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون، وقيل: يأمر بعضهم بعضا بقتلك كما قتلت القبطي.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين، وهي مدينة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يَّهْدِيَنِے سَوَآءَ اَلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق يعني طريق مدين إذ كان قد خرج فارا بنفسه وكان لا يعرف الطريق وبين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام، وقيل: أراد سبيل الهدى وهذا أظهر، ويدل كلامه هذا على أنه كان

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

عارفا بالله قبل نبوءته.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إليه وكان بئرا. ﴿يَسْقُونَ﴾ أي يسقون مواشيهم.

﴿ٱمْرَأَتَيْنِ﴾ روي: أن اسمهما ليا وصفوريا، وقيل: صفيرا وصفرا. ﴿تَذُودَانِ﴾ أي تمنعان الناس عن غنمهما، وقيل: تذودان غنمهما عن الماء حتى يسقي الناس، وهذا أظهر لقولهما: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، أي كانت عادتهما ألا يسقيا غنمهما إلا بعد الناس لقوة الناس ولضعفهما أو لكراهتهما التزاحم مع الناس. ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء وكسر الدال فعل متعد والمفعول محذوف تقديره: حتى يصدر الرعاء مواشيهم، وقرئ[1] بفتح الياء وضم الدال أي ينصرفون عن الماء. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي لا يستطيع أن يباشر سقي غنمه، وهذا الشيخ هو شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الجمهور، وقيل: ابن أخيه، وقيل: رجل صالح ليس من شعيب بنسب.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي أدركته شفقته عليهما فسقى غنمهما، وروي: أنه كان على فم البئر صخرة لا يرفعها إلا ثلاثون رجلا فرفعها وحده. ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي جلس في الظل وروي: أنه كان ظل سمرة. ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

(١) ﴿يصدر الرعاء﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال. النشر: ٢/٣٨١.

طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قبل هذا كلام محذوف تقديره: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين وكانت عادتهما الإبطاء في السقي فأخبرتاه بما كان من أمر سقي الرجل لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته، واختلف: هل التي جاءته الصغرى أو الكبرى؟. ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ روي أنها سترت وجهها بكم درعها والمجرور يتعلق بما قبله وقيل بما بعده وهو ضعيف. ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي ذكر له قصته. ﴿لَا تَخَفْ﴾ أي قد نجوت من فرعون وقومه لأن بلد مدين لم يكن من ملك فرعون.

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي اجعله أجيرا لك. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ هذا الكلام حكمة جامعة بليغة، روي: أن أباها قال لها من أين عرفت قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته ففي رفعه الحجر عن فم البئر، وأما أمانته فإنه لم ينظر إلي.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ﴾ زوجه التي دعته، واختلف: هل زوجه الكبرى أو الصغرى؟ واسم التي زوجه صفور، وقيل: صفوريا، ومن لفظ شعيب حسن أن يقال في عقود الأنكحة: أنكحه إياها أكثر من أن يقال أنكحها إياه. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ أي أزوجك بنتي على أن تخدمني ثمانية أعوام، قال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها: أنه لم يعين الزوجة، ولا حد أول الأمد، وجعل المهر إجارة.

قلت: فأما التعيين فيحتمل أن يكون عند عقد النكاح بعد هذه المراودة، وقد قال الزمخشري: إن كلامه معه لم يكن عقد نكاح وإنما كان مواعدة، وأما ذكر أول الأمد فالظاهر أنه من حين العقد، وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وقد قرره شرعنا حسبما ورد في الحديث الصحيح من قوله ﷺ للرجل: «قد زوجتكها

ربع

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

على ما معك من القرآن»[1] أي على أن تعلمها ما معك من القرآن وقد أجاز النكاح بالإجارة الشافعي وابن حنبل وابن حبيب للآية والحديث ومنعه مالك.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ جعل الأعوام الثمانية شرطا ووكل العامين إلى مروءة موسى فوفى له العشر وقيل وفي العشرة وعشرا بعدها وهذا ضعيف لقوله.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي الأجل المذكور. ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ﴾ الأهل هنا الزوجة مشى بها إلى مصر. ﴿جِذْوَةٍ﴾ أي قطعة ويجوز كسر الجيم[2] وضمها، وقد ذكر آنس والطور وتصطلون.

﴿شَاطِئِ ٱلْوَادِ﴾ جانبه والأيمن صفة للشاطئ اليمين، ويحتمل أن يكون من اليمن فيكون صفة للوادي. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ روي: أنها كانت عوسجة.

﴿جَآنٌّ﴾ ذكر في النمل.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي أدخلها فيه، والجيب هو فتح الجبة من حيث

(١) الموطأ الحديث رقم: (١٠٩٦)، والبخاري الحديث رقم: (٤٧٤١)، ومسلم الحديث رقم: (٣٥٥٣)، وشرح السنة للبغوي: ٦٢/٥، وسنن النسائي: ٣٢٠/٣، وسنن الترمذي الحديث رقم: (١١١٤)، وغيرهم.

(٢) ﴿جذوة﴾ قرأ عاصم بفتح الجيم، وقرأ حمزة وخلف بضمها، وقرأ الباقون بكسرها. النشر: ٣٨١/٢.

يخرج الإنسان رأسه ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ الجناح اليد أو الإبط أو العضد أمره الله لما خاف من الحية أن يضمه إلى جنبه ليخف بذلك خوفه، فإن من شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يخف خوفه، وقيل: ذلك على وجه المجاز، والمعنى: أنه أمر بالعزم على ما أمر به، كقوله: اشدد حيازمك واربط جأشك[١] ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي من أجل الرهب[٢] وهو الخوف وفيه ثلاثة لغات فتح الراء والهاء وفتح الراء وإسكان الهاء وضم الراء وإسكان الهاء. ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَانَانِ﴾ أي حجتان والإشارة إلى العصا واليد. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ يتعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام.

﴿رِدْءًا﴾ أي معينا، وقرئ[٣] بالهمز وبغير همز على التسهيل من المهموز، أو يكون من أرديت أي زدت.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ استعارة في المعونة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله نجعل أو بيصلون أو بالغالبون.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي اصنع الآجر لبنيان الصرح الذي رام أن يصعد منه إلى السماء، وروي: أنه أول من عمل الآجر وكان هامان وزير فرعون، وانظر ضعف عقولهما وعقول قومهما وجهلهم بالله تعالى في كونهم طمعوا أن يصلوا إلى السماء ببنيان الصرح، وقد روي: أنه عمله وصعد عليه ورمى بسهم إلى السماء فرجع مخضوبا بدم، وذلك فتنة له ولقومه وتهكم بهم ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) هذا مثل سائر عند العرب: انظر البحر المحيط لأبي حيان: ١١٢/٧، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٣٣٩/٤ الجواهر الحسان للثعالبي: ١٧٦/٣.

(٢) ﴿الرهب﴾ قرأ المدنيان والبصريان وابن كثير بفتح الراء والهاء ورواه حفص بفتح الراء وإسكان الهاء وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الهاء. النشر: ٣٨١/٢.

(٣) قال ابن الجزري: ﴿ردءاً يصدقني﴾ في القصص، فقرأه بالنقل نافع وأبو جعفر، إلا أن أبا جعفر أبدل من التنوين ألفاً في الحالين، ووافقه نافع في الوقف. النشر: ٤٧٠/١.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ • وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثمن

﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يعني في دعوى الرسالة والظن هنا يحتمل أن يكون على بابه أو بمعنى اليقين.

﴿أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي كانوا يدعون الناس إلى الكفر الموجب للنار.

﴿مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين، وقيل: قبحت وجوههم، وقيل: قبح ما يفعل بهم وما يقال لهم.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ خطاب لسيدنا محمد ﷺ، والمراد به إقامة حجة لإخباره بحال موسى وهو لم يحضره، والغربي المكان الذي في غربي الطور وهو المكان الذي كلم الله فيه موسى، والأمر المقضي إلى موسى هو النبوءة، ومن الشاهدين معناه من الحاضرين هنالك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ المعنى: لم تحضر يا محمد للاطلاع على هذه الغيوب التي تخبر بها، ولكنها صارت إليك بوحينا فكان الواجب على الناس المسارعة إلى الإيمان بك، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها فغابت عقولهم واستحكمت جهالتهم فكفروا بك، وقيل: المعنى لكنا أنشأنا قرونا بعد زمان موسى فتطاول عليهم العمر وطالت الفترة فأرسلناك على فترة من الرسل. ﴿ثَاوِيٗا﴾ أي مقيما.

﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ يعني تكليم موسى والمراد بذلك إقامة حجة سيدنا محمد ﷺ لإخباره بهذه الأمور مع أنه لم يكن حاضرا حينئذ. ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

انتصب على المصدر، أو على أنه مفعول من أجله، والتقدير: ولكن أرسلناك رحمة منا لك ورحمة للخلق بك.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ لو هنا حرف امتناع، ولولا الثانية عرض وتحضيض، والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار إليهم وإقامة الحجة عليهم، لئلا يقولوا ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن ونبوءة محمد ﷺ. ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ يعنون إنزال الكتاب عليه من السماء جملة واحدة، وقلب العصا حية، وفلق البحر، وشبه ذلك. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ هذا رد عليهم فيما طلبوا، والمعنى: أنهم كفروا بما أوتي موسى فلو آتينا محمدا مثل ذلك لكفروا به، ومن قبل على هذا يتعلق بقوله: أوتي موسى، ويحتمل أن يتعلق بقوله: أولم يكفروا إن كانت الآية في بني إسرائيل، والأول أحسن. ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعنون موسى وهارون أو موسى ومحمدا ﷺ، والضمير في أولم يكفروا وفي قالوا لكفار قريش، وقيل: لآبائهم، وقيل: لليهود، والأول أصح؛ لأنهم المقصودون بالرد عليهم.

﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ﴾ أمر على وجه التعجيز لهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ الضمير يعود على كتاب موسى وكتاب سيدنا محمد ﷺ.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قد علم أنهم لا يستجيبون للإتيان بكتاب هو أهدى منهما أبدا، ولكنه ذكره بحرف إن مبالغة في إقامة الحجة عليهم، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، المعنى: إن لم يأتوا بكتاب فاعلم أن كفرهم عناد واتباع لأهوائهم، لا بحجة وبرهان.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ الضمير لكفار قريش، وقيل: لليهود، والأول أظهر، لأن الكلام من أوله معهم، والقول هنا القرآن ووصلنا لهم: أبلغناه لهم ليتذكروا به، أو جعلناه موصلا بعضه ببعض.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ يعني من أسلم من اليهود، وقيل: النجاشي وقومه، وقيل: نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، وهم عشرون رجلا فآمنوا به، والضمير في قبله للقرآن، وقولهم: إنه الحق تعليل لإيمانهم، وقولهم: إنا كنا من قبله مسلمين بيان لأن إسلامهم قديم؛ لأنهم وجدوا ذكر سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتبهم قبل أن يبعث.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]: «ثلاثة يؤتون

---

(١) في صحيح البخاري: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران، ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمنا ثم آمن بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله أجران، والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده». الحديث رقم: (٢٨٤٩)، ومسلم الحديث رقم: (٤٠٤)، وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (٢٢٧)، وسنن الترمذي الحديث رقم: (١١١٦).

أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب ثم آمن بمحمد ﷺ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأعتقها وتزوجها». ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ يعني صبرهم على إذاية قومهم لهم لما أسلموا أو غير ذلك من أنواع الصبر. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون، ويحتمل أن يريد بالسيئة ما يقال لهم من الكلام القبيح، وبالحسنة ما يجاوبون به من الكلام الحسن، أو يريد سيئات أعمالهم وحسناتها كقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ﴾ يعني ساقط الكلام. ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ هذا على وجه التبري والبعد من القائلين للغو. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه هنا المتاركة والمباعدة لا التحية، أو كأنه سلام الانصراف والبعد. ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة في الكلام.

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في أبي طالب[1] إذ دعاه النبي ﷺ أن يقول عند موته: لا إله إلا الله، فقال: لولا أن تعيرني بها قريش لأقررت بها عينك ومات على الكفر. ولفظ الآية مع ذلك على عمومه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لفظ عام، وقيل: أراد به العباس بن عبد المطلب.

﴿وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ القائلون لذلك قريش وروي: أن الذي قالها منهم الحارث بن عامر بن نوفل، والهدى هو الإسلام ومعناه الهدى على زعمك، وقيل: إنهم قالوا قد علمنا أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك تخطفتنا العرب أي أهلكونا بالقتال لمخالفة دينهم. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً﴾ هذا رد عليهم فيما اعتذروا به من تخطف الناس لهم، والمعنى: أن الحرم لا تتعرض له العرب بقتال ولا يمكن الله أحدا من إهلاك أهله فقد كانت العرب يغير

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٦٧١)، ومسلم الحديث رقم: (١٤١)، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٩٤/٩، والطبري: ٦٠٠/١٩.

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ • أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

ثمن

بعضهم على بعض وأهل الحرم آمنون من ذلك. ﴿تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه الأرزاق مع أنه واد غير ذي زرع.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ معنى بطرت طغت وسفهت، ومعيشتها نصب على التفسير، مثل ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أو على إسقاط حرف الجر تقديره: بطرت في معيشتها أو يتضمن معنى بطرت كفرت. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني قليلا من السكنى، أو قليلا من الساكنين أي لم يسكنها بعد إهلاكها إلا مارا على الطريق ساعة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ أم القرى: مكة لأنها أول ما خلق الله من الأرض، ولأن فيها بيت الله، والمعنى: أن الله أقام الحجة على أهل القرى بأن بعث سيدنا محمدا ﷺ في أم القرى، فإن كفروا أهلكهم بظلمهم بعد البيان لهم وإقامة الحجة عليهم.

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية تحقير للدنيا وتزهيد فيها وترغيب في الآخرة.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ الآية إيضاح لما قبلها من البون بين الدنيا والآخرة، والمراد بمن وعدناه المؤمنين وبمن متعناه الكافرين، وقيل: سيدنا محمدا ﷺ وأبو جهل، وقيل: حمزة وأبو جهل، والعموم أحسن لفظا ومعنى ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي من المحضرين في العذاب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ العامل في الظرف مضمر وفاعل ينادي الله تعالى، ويحتمل

أن يكون نداؤه بواسطة أو بغير واسطة، والمفعول به المشركون. ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ توبيخ للمشركين ونسبهم إلى نفسه على زعمهم ولذلك قال الذين كنتم تزعمون فحذف المفعول وتقديره تزعمون أنهم شركاء لي أو تزعمون أنهم شفعاء لكم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ معنى حق عليهم القول وجب عليهم العذاب، والمراد بذلك رؤساء المشركين وكبراؤهم، والإشارة بقولهم هؤلاء الذين أغوينا إلى اتباعهم من الضعفاء.

فإن قيل: كيف الجمع بين قولهم: أغوينا، وبين قولهم: تبرأنا إليك، فإنهم اعترفوا بإغوائهم وتبرؤوا مع ذلك منهم؟ **فالجواب**: أن إغواءهم لهم هو أمرهم لهم بالشرك، والمعنى أنا حملناهم على الشرك كما حملنا أنفسنا عليه ولكن لم يكونوا يعبدوننا إنما كانوا يعبدون غيرنا من الأصنام وغيرها، فتبرأنا إليك من عبادتهم لنا فتحصل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغووا الضعفاء وتبرؤوا من أن يكونوا هم آلهتهم فلا تناقض في الكلام، وقد قيل في معنى الآية غير ذلك مما هو تكلف بعيد.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ فيه أربعة أوجه:

الأول: أن المعنى لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لم يعبدوا الأصنام.

والثاني: لو أنهم كانوا يهتدون لم يعذبوا.

والثالث: لو أنهم كانوا يهتدون في الآخرة لحيلة يدفعون بها العذاب لفعلوا، فلو على هذه الأقوال حرف امتناع وجوابها محذوف.

والرابع: أن يكون لو للتمني أي تمنوا لو كانوا مهتدين.

﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي هل صدقتم المرسلين أو كذبتموهم؟.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ عميت عبارة عن حيرتهم، والأنباء الأخبار

أي أظلمت عليهم الأمور فلم يعرفوا ما يقولون. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضا عن الأنباء لأنهم قد تساووا في الحيرة والعجز عن الجواب.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قيل: سببها[1] استغراب قريش لاختصاص سيدنا محمد ﷺ بالنبوءة، فالمعنى: أن الله يخلق ما يشاء ويختار لرسالته من يشاء من عباده، ولفظها أعم من ذلك، والأحسن حمله على عمومه، أي يختار ما يشاء من الأمور على الإطلاق ويفعل ما يريد. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ما نافية، والمعنى ما كان للعباد اختيار إنما الاختيار والإرادة لله وحده، فالوقف على قوله ويختار، وقيل: إن ما مفعولة بيختار ومعنى الخيرة على هذا الخير والمصلحة، وهذا يجري على قول المعتزلة وذلك ضعيف لرفع الخيرة على أنها اسم كان، ولو كانت ما مفعولة لكان اسم كان مضمرا يعود على ما وكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، وقد اعتذر عن هذا من قال إن ما مفعولة بأن قال: تقدير الكلام يختار ما كان لهم الخيرة فيه، ثم حذف الجار والمجرور وهذا ضعيف.

وقال ابن عطية[2]: يتجه أن تكون ما مفعولة إذا قدرنا كان تامة ويوقف على قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ أي يختار كل كائن ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة، وهذا بعيد جدا.

﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم وعبر عن القلب بالصدر لأنه يحتوي عليه.

---

(١) قال ابن عطية: وقوله تعالى «وربك يخلق ما يشاء ويختار» الآية، قيل: سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ وقول بعضهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ الزخرف: ٣١ فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع، ورد الله تعالى عليهم، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاء، وأنه يختار لرسالته من يريد ويعلم فيه المصلحة... ٤/٣٤٨.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٣٤٨.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

ربع

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْءَاخِرَةِ﴾ قيل: إن الحمد في الآخرة قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، وفي ذكر الأولى مع الآخرة مطابقة.

﴿سَرْمَدًا﴾ أي دائما والمراد بهذه الآيات إثبات الوحدانية وإبطال الشرك.

فإن قيل: كيف قال يأتيكم بضياء، وهلا قال: يأتيكم بنهار في مقابلة قوله ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾؟ فالجواب: أنه ذكر الضياء لكثرة ما فيه من المنافع والعبر.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في الليل.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي في النهار ففي الآية لف ونشر.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي أخرجنا من كل أمة شهيدا منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم؛ لأن كل نبيء يشهد على أمته. ﴿هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر وذلك إعذار لهم وتوبيخ وتعجيز.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي من بني إسرائيل، وكان ابن عم موسى، وقيل: ابن عمته. وقيل: ابن خالته. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تكبر وطغى ومن ذلك كفره بموسى عليه السلام. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ المفاتح هي التي يفتح بها، وقيل: هي الخزائن، والأول أظهر، والعصبة جماعة

الرجال من العشرة إلى الأربعين، وتنوء معناه تثقل، يقال ناء به الحمل إذا أثقله، وقيل: معنى تنوء تنهض بتحامل وتكلف، والوجه على هذا أن يقال إن العصبة تنوء بالمفاتح لكنه قلب كما جاء قلب الكلام عن العرب كثيرا، ولا يحتاج إلى قلب على القول الأول. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ الفرح هنا الذي يقود إلى الإعجاب والطغيان، ولذلك قال: إن الله لا يحب الفرحين، وقيل: السرور بالدنيا لأنه لا يفرح بها إلا من غفل عن الآخرة، ويدل على هذا قوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي اقصد الآخرة بما أعطاك الله من المال وذلك بفعل الحسنات والصدقات. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي لا تضيع حظك من دنياك وتمتع بها مع عملك للآخرة، وقيل: معناه لا تضيع عمرك بترك الأعمال الصالحات؛ فإن حظ الإنسان من الدنيا إنما هو بما يعمل فيها من الخير، فالكلام على هذا وعظ وعلى الأول إباحة للتمتع بالدنيا لئلا ينفر عن قبول الموعظة. ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بالغنى. ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ لما وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والروغان عما ألزموه من الموعظة، والمعنى: أن هذا المال إنما أعطاه الله لي بالاستحقاق له بسبب علم عندي استوجبته به. واختلف في هذا العلم، فقيل: إنه علم الكيمياء وقيل: التجارب للأمور والمعرفة بالمكاسب، وقيل: حفظه التوراة، وهذا بعيد؛ لأنه كان كافرا، وقيل: المعنى: إنما أوتيته على علم من الله وتخصيص خصني به، ثم جعل قوله عندي كما تقول في ظني واعتقادي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ﴾ هذا رد عليه في اغتراره بالدنيا، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾: يعني جمعا للمال، أو جمعا للخدم، والأول أظهر. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه متصل بما قبله، والضمير في ذنوبهم يعود على القرون

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ • تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ثمن

المتقدمة، والمجرمون من بعدهم أي لا يسأل المجرمون عن ذنوب من تقدمهم من الأمم الهالكة؛ لأن كل أحد إنما يسأل عن ذنوبه خاصة.

والثاني: أنه إخبار عن حال المجرمين في الآخرة، وأنهم لا يسألون عن ذنوبهم لكونهم يدخلون النار من غير حساب، والصحيح أنهم يحاسبون على ذنوبهم ويسألون عنها لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وأن هذا السؤال المنفي السؤال على وجه الاختبار وطلب التعريف، لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوجه، لكن يسألون على وجه التوبيخ، وحيثما ورد في القرآن إثبات السؤال في الآخرة فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ، وحيثما ورد نفيه فهو على وجه الاستخبار والتعريف ومنه قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في ثياب حمر، وقيل: في عبيده وحاشيته، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَيْلَكُمْ﴾ زجر للذين تمنوا مثل حال قارون. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الضمير عائد على الخصال التي دل عليها الكلام المتقدم وهي الإيمان والعمل الصالح، وقيل: على الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم، أي لا تصدر الكلمة إلا عن الصابرين والصبر هنا إمساك النفس عن الدنيا وزينتها.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ روي: أن قارون لما بغى على بني إسرائيل

إِنَّ الذِے فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِے ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُّلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذُ انزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

(ترتيبها ٢٩) (آياتها ٦٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُّتْرَكُوٓاْ أَن يَّقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَّسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٥﴾

وآذى موسى دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه، فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه وفي أتباعه، فقال موسى: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب فاستغاثوا بموسى، فقال: يا أرض خذيهم حتى تم بهم الخسف.

﴿مَكَانَهُۥ﴾ أي منزلته في المال والعزة. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ يحتمل أن يريد به اليوم الذي كان قبل ذلك اليوم، أو ما تقدم من الزمان القريب. ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ مذهب سيبويه أن وي حرف تنبيه، ثم ذكرت بعدها كأن، والمعنى على هذا أنهم تنبهوا لخطئهم في قولهم: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أي ما أشبه الحال بهذا وقال الكوفيون: ويك هو ويلك حذفت منها اللام لكثرة الاستعمال ثم ذكرت بعدها أن، والمعنى: ألم يعلموا أن الله، وقيل: ويكأن كلمة واحدة معناها ألم تعلم.

﴿عُلُوّاً فِے الْأَرْضِ﴾ أي تكبرا وطغيانا لا رفعة المنزلة، فإن إرادتها جائزة.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ أي أنزله عليك وأثبته، وقيل: معناه أعطاك القرآن، والمعنى متقارب، وقيل: فرض عليك أحكام القرآن، فهو على حذف مضاف. ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ المعاد الموضع الذي يعاد إليه، فقيل: يعني مكة والآية نزلت حين الهجرة، ففيها وعد بالرجوع إلى مكة وفتحها، وقيل: يعني الآخرة فمعناها إعلام بالحشر، وقيل: يعني الجنة.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي ما كنت تطمع أن تنال النبوءة ولا أن ينزل عليك الكتاب، ولكن الله رحمك بذلك ورحم الناس بنبوءتك، والاستثناء بمعنى لكن فهو منقطع، ويحتمل أن يكون متصلا والمعنى: ما أنزل عليك الكتاب إلا رحمة من ربك لك أو رحمة للناس ورحمة على هذا مفعول من أجله، أو حال وعلى الأول منصوب على الاستثناء.

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون من الدعاء بمعنى الرغبة، أو من دعوة الناس إلى الإيمان بالله، فالمفعول محذوف على هذا تقديره: ادع الناس.

﴿وَلاَ تَدْعُ﴾ أي لا تعبد. ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُۥ﴾ الآية أي إلا إياه والوجه هنا عبارة عن الذات.

❋❋ ❋❋ ❋❋

سورة العنكبوت

﴿الٓمٓ﴾ ذكر في البقرة. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ نزلت[١] في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين منهم عمار بن ياسر وغيره، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى والثبوت على الإيمان، فأعلمهم الله تعالى أن تلك سيرته في عباده يسلط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، ولفظها مع ذلك عام فحكمها على العموم في كل من أصابته فتنة من مصيبة أو مضرة في النفس والمال وغير ذلك، ومعنى حسب ظن، و﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ مفعولها والهمزة للإنكار، ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ في موضع الحال من الضمير في يتركوا، تقديره: غير مفتونين، وأن يقولوا تعليل في موضع المفعول من أجله.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي يعلم صدقهم علما ظاهرا في الوجود، وقد كان علمه في الأزل، والصدق والكذب في الآية يعني بهما صحة الإيمان والثبوت عليه أو ضد ذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أم معادلة لقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ والمراد بالذين يعملون السيئات الكفار الذين يعذبون المؤمنين، ولفظها مع ذلك عام في كل كافر أو عاص، ومعنى يسبقونا يفوتون من عقابنا ويعجزوننا، فمعنى الكلام نفي سبقهم كما أن معنى الآية قبلها نفي ترك المؤمنين بغير فتنة.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ الآية تسلية للمؤمنين ووعد لهم بالخير في الدار الآخرة، والرجاء هنا على بابه، وقيل: هو بمعنى الخوف، وأجل الله هو الموت،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٩/٣٠٣١، والطبري في جامع البيان: ١٩/٩.

ومعنى الآية: من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب الإتيان، وكل ما هو آت قريب.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي منفعة جهاده فإنما هي لنفسه فإن الله لا تنفعه طاعة العباد، والجهاد هنا يحتمل أن يراد به القتال، أو جهاد النفس.

﴿حُسْنًاۖ﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حسنا، أو مصدرا من معنى وصينا أي وصية حسنة. ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية نزلت[1] في سعد بن أبي وقاص، فإنه لما أسلم حلفت أمه أن لا تستظل بظل

(١) في صحيح مسلم عن مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ - قَالَ - حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لاَ تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلاَ تَأْكُلَ وَلاَ تَشْرَبَ. قَالَتْ زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ مَكَثَتْ ثَلاَثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ وَفِيهَا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قَالَ وَأَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنِيمَةً عَظِيمَةً فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ فَأَخَذْتُهُ فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ فَقُلْتُ: نَفِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ. فَقَالَ: رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبَضِ لاَمَتْنِي نَفْسِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: أَعْطِنِيهِ. قَالَ فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ: رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ قَالَ: وَمَرِضْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِي ﷺ فَأَتَانِي فَقُلْتُ: دَعْنِي أَقْسِمْ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ. قَالَ فَأَبَى. قُلْتُ فَالنِّصْفَ. قَالَ فَأَبَى. قُلْتُ فَالثُّلُثَ. قَالَ فَسَكَتَ فَكَانَ بَعْدُ الثُّلُثُ جَائِزًا. قَالَ: وَأَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ فَقَالُوا تَعَالَ نُطْعِمْكَ وَنَسْقِيكَ خَمْرًا. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ - قَالَ - فَأَتَيْتُهُمْ فِي حَشٍّ - وَالْحَشُّ الْبُسْتَانُ - فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عِنْدَهُمْ وَزِقٌّ مِنْ خَمْرٍ - قَالَ - فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ - قَالَ - فَذُكِرَتِ الأَنْصَارُ وَالْمُهَاجِرُونَ عِنْدَهُمْ فَقُلْتُ الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الأَنْصَارِ - قَالَ - فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيَيِ الرَّأْسِ فَضَرَبَنِي بِهِ فَجَرَحَ بِأَنْفِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأْنَ الْخَمْرِ ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الحديث رقم: (٦٣٩١)، والسنن الكبرى للبيهقي: ٩/٢٦، والبخاري في الأدب المفرد: ١/٢٢.

وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذِے كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ • وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِے مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِے الصَّٰلِحِينَ ﴿٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِے اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِے صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَٰفِقِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَےْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٣﴾

ربع

حتى يكفر، وقيل: نزلت في غيره ممن جرى له مثل ذلك، فأمرهم الله بالثبات على الإسلام، وألا يطيعوا الوالدين إذا أمروهم بالكفر، وعبر عن أمر الوالدين بالجهاد مبالغة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ نزلت[1] في قوم كانوا مؤمنين بألسنتهم فإذا عذبهم الكفار رجعوا عن الإيمان فإذا نصر الله المؤمنين قالوا إنا كنا معكم، فمعنى: ﴿أُوذِيَ فِے اللَّهِ﴾ أوذي بسبب إيمانه بالله وفتنة الناس تعذيبهم، وقيل: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه.

﴿اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا، ونحمل نحن عنكم الإثم والعقاب إن كان، وروي: أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة حكاه المهدوي، وقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزاء قولهم اتبعوا سبيلنا ولكنهم ذكروه على وجه الأمر للمبالغة، ولما كان معناه الخبر صح تكذيبهم فيه أخبر الله أنهم كاذبون أي لا يحملون أوزار هؤلاء بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزار أتباعهم من الكفار.

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ الظاهر أنه لبث هذه المدة بعد بعثه ويحتمل أن يكون ذلك من أول ولادته، وروي: أنه بعث وهو ابن أربعين سنة وأنه عمر بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٥٦ فقد أورده عن مجاهد معلقا.

ثمن

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ اَ۬لسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤﴾ • وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اِ۪عْبُدُواْ اُ۬للَّهَ وَاتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ أَوْثَٰناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاًۖ إِنَّ اَ۬لذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُواْ عِندَ اَ۬للَّهِ اِ۬لرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى اَ۬لرَّسُولِ إِلَّا اَ۬لْبَلَٰغُ اُ۬لْمُبِينُ ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۖ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اَ۬للَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي اِ۬لْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ اَ۬لْخَلْقَۖ ثُمَّ اَ۬للَّهُ يُنشِئُ اُ۬لنَّشْأَةَ اَ۬لْأٓخِرَةَۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي اِ۬لْأَرْضِ وَلَا فِي اِ۬لسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اِ۬للَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾ وَالذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

فإن قيل: لم قال ألف سنة، ثم قال: إلا خمسين عاما، فاختلف اللفظ مع اتفاق المعنى؟ **فالجواب:** أن ذلك كراهة لتكرار لفظ السنة، فإن التكرار مكروه إلا إذا قصد به تفخيم أو تهويل.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً﴾ يحتمل أن يعود الضمير على السفينة أو على النجاة أو على القصة بكمالها.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ هو من الخلقة يريد به نحت الأصنام فسماه خلقة على وجه التجوز، وقيل: هو من اختلاق الكذب. ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ الآية احتجاج على الوحدانية ونفي الشركاء، **فإن قيل:** لم نكر الرزق أولا ثم عرفه في قوله فابتغوا عند الله الرزق؟ **فالجواب:** أنه نكره في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ لقصد العموم في النفي فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم، ثم عرفه بعد ذلك لقصد العموم في طلب الرزق كله من الله لأنه لا يقتضي العموم في سياق الإثبات إلا مع التعريف، فكأنه قال: ابتغوا الرزق كله عند الله.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ الآية يحتمل أن تكون من كلام إبراهيم، أو من كلام الله تعالى، ويحتمل مع ذلك أن يراد به وعيد الكفار وتهديدهم، أو يراد به تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه له بالتأسي بغيره من الأنبياء الذين كذبهم قومهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْخَلْقَ﴾ يقال بدأ الله الخلق وأبدأه بمعنى واحد، وقد جاءت اللغتان في هذه السورة، والمعنى: أولم ير الكفار أن الله خلق الخلق فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر، فقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ اُ۪قْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَيٰهُ اُ۬للَّهُ مِنَ اَ۬لنَّارِۖ إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُومِنُونَ (٢٣) وَقَالَ إِنَّمَا اَ۪تَّخَذتُّم مِّن دُونِ اِ۬للَّهِ أَوْثَٰناً مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ فِے اِ۬لْحَيَوٰةِ اِ۬لدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاٗ وَمَأْوَيٰكُمُ اُ۬لنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٤) • فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۖ وَقَالَ إِنِّے مُهَاجِرٌ اِلَيٰ رَبِّيَۖ إِنَّهُۥ هُوَ اَ۬لْعَزِيزُ اُ۬لْحَكِيمُ (٢٥) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِے ذُرِّيَّتِهِ اِ۬لنُّبُوٓءَةَ وَالْكِتَٰبَۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِے اِ۬لدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِے اِ۬لْأٓخِرَةِ لَمِنَ اَ۬لصَّٰلِحِينَ (٢٦) وَلُوطاً اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَ۬لْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ اَ۬لْعَٰلَمِينَ (٢٧) ٓاَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَ۬لرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ اَ۬لسَّبِيلَ (٢٨) وَتَأْتُونَ فِے نَادِيكُمُ اُ۬لْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ اُ۪ئْتِنَا بِعَذَابِ اِ۬للَّهِ إِن كُنتَ مِنَ اَ۬لصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ اِ۪نصُرْنِے عَلَي اَ۬لْقَوْمِ اِ۬لْمُفْسِدِينَ (٣٠)

ربع

بمعطوف على يبدأ لأن المعنى فيهما مختلف، لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة فإنها تعلم بالنظر والاستدلال، وإنما هو معطوف على الجملة كلها وقد قيل إنه يريد إعادة النبات وإبدائه، وعلى هذا يكون ثم يعيده عطفا على يبدئ لاتفاق المعنى، والأول أحسن وأليق بمقاصد الكلام. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اَ۬للَّهِ يَسِيرٞ﴾ يعني إعادة الخلق وهي حشرهم ثم أمرهم بالسير في الأرض ليروا مخلوقات الله فيستدلوا بها على قدرته على حشرهم، ولذلك ختمها بقوله: ﴿إِنَّ اَ۬للَّهَ عَلَيٰ كُلِّ شَےْءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي ترجعون. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله وليس لكم مهرب في الأرض ولا في السماء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِے﴾ يحتمل أن يكون يأسهم في الآخرة أو يكون وصف لحالهم في الدنيا؛ لأن الكافر يائس من رحمة الله والمؤمن راج خائف، وهذا الكلام من قوله أولم يروا إلى هنا يحتمل أن يكون خطابا لمحمد ﷺ معترضا بين قصة إبراهيم، ويحتمل أن يكون خطابا لإبراهيم وبعد ذلك ذكر جواب قومه له.

﴿مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾ نصب مودة على أنها مفعول من أجله أو مفعول ثان لاتخذتم، ورفعها على أنها خبر ابتداء مضمر أو خبر إن وتكون ما موصولة ونصب بينكم على الظرفية وخفضه بالإضافة.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ • وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

ثمن

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ تضمن آمن معنى انقاد ولذلك تعدى باللام. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ القائل لذلك إبراهيم، وقيل: لوط وهاجرا من بلادهما بأرض بابل إلى الشام.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم، وعلى ذريته أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: أراد قطع الطرق للسلب والقتل، وقيل: أراد قطع سبيل النسل بترك النساء وإتيان الرجال.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي المجلس الذي يجتمع فيه الناس، والمنكر فعلهم بالرجال، وقيل: إذايتهم للناس.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ الرسل هنا الملائكة والبشرى بشارة إبراهيم بالولد وهو قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أو بشارته بنصر سيدنا لوط، والأول أظهر. ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني قرية سيدنا لوط.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ليس إخبارا بأنه فيها، وإنما قصد نجاة سيدنا لوط من العذاب الذي يصيب أهل القرية وبراءته من الظلم الذي وصفوه به، فكأنه قال: كيف تهلكون أهل القرية وفيها لوط؟ وكيف تقولون إنهم ظالمون وفيهم لوط؟.

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قد ذكر وكذلك ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذابا.

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَٰلِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

﴿وَارْجُواْ الْيَوْمَ الْأَخِرَ﴾ قيل: الرجاء هنا الخوف، وقيل: هو على بابه. ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني نقصهم المكيال والميزان.

﴿الرَّجْفَةُ﴾ هي الصيحة.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي آثار مساكنهم باقية تدل على ما أصابهم ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قيل: معناه لهم بصيرة في كفرهم وإعجاب به، وقيل: لهم بصيرة في الإيمان، ولكنهم كفروا عنادا، وقيل: معنى مستبصرين عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، ولكنهم لم يفعلوا.

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي لم يفوتونا.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ الحاصب الحجارة، والحاصب أيضا الريح الشديدة، فيحتمل عندي أنه أراد به المعنيين لأن قوم سيدنا لوط أهلكوا بالحجارة، وعادا أهلكوا بالريح، وإن حملناه على المعنى الواحد نقص ذكر الآخر، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد في معنيين كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ويقوي ذلك هنا؛ لأن المقصود هنا ذكر عموم أخذ أصناف الكفار. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود ومدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾

شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتا ضعيفا، فكما أن ما اعتمدت عليه العنكبوت في بيتها ليس بشيء، فكذلك ما اعتمدت عليه الكفار من آلهتهم ليس بشيء؛ لأنهم لا ينفعون ولا يضرون. ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي أضعفها ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ ما موصولة بمعنى الذي مفعولة للفعل الذي قبلها، وقيل: هي نافية والفعل معلق عنها، والمعنى على هذا لستم تدعون من دون الله شيئا له بال فلا يصلح أن يسمى شيئا.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالواجب لا على وجه العبث واللعب.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ إذا كان المصلي خاشعا في صلاته متذكرا لعظمة من وقف بين يديه، حمله ذلك على التوبة من الفحشاء والمنكر فكأن الصلاة ناهية عن ذلك ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قيل: فيه ثلاثة معان:

الأول: أن المعنى أن الصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله لأن ذكر الله أعظم ما فيها، كأنه أشار بذلك إلى تعليل نهيها عن الفحشاء والمنكر؛ لأن ذكر الله فيها هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر.

الثاني: أن ذكر الله على الدوام أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة لأنها في بعض الأوقات دون بعض.

الثالث: أن ذكر الله أكبر أجرا من الصلاة ومن سائر الطاعات كما ورد في الحديث: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم قالوا: بلى، قال: ذكر الله»[1].

(١) لفظه:.. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل. أخرجه الحاكم في المستدرك (١٨٢٥)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وابن ماجه=

﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝﴾

﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي لا تجادلوا كفار أهل الكتاب إذا اختلفتم معهم في الدين إلا بالتي هي أحسن، لا بضرب ولا قتال، وكان هذا قبل أن يفرض الجهاد، ثم نسخ بالسيف، ومعنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي ظلموكم وصرحوا بإذاية نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: معنى الآية لا تجادلوا من أسلم من أهل الكتاب فيما حدثوكم به من الأخبار إلا بالتي هي أحسن، ومعنى: إلا الذين ظلموا على هذا من بقي منهم على كفره، والمعنى الأول أظهر. ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا وما بعده يقتضي مواعدة ومسالمة وهي منسوخة بالسيف، ويقتضي أيضا الإعراض عن مكالمتهم وفي الحديث: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم**»[1] فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي كما أنزلنا الكتاب على من قبلك أنزلناه عليك ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني عبد الله بن سلام وأمثاله، ممن أسلم من اليهود والنصارى ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآية: أراد بالذين أوتوا الكتاب أهل التوراة والإنجيل وأراد بقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ كفار

= الحديث رقم: (٣٧٩٠)، والترمذي الحديث رقم: (٣٣٧٧)، وصححه الألباني.

(١) أوله في البخاري الحديث رقم: (٧١٠٣) إلى قوله تعالى: ﴿وأنزل إليكم... ونحن له مسلمون﴾. وبقية الحديث رواها أبو داود الحديث رقم (٣٦٤٦) قال الألباني: ضعيف.

قريش، وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب المتقدمين من أهل التوراة والإنجيل، وأراد بهؤلاء المعاصرين لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم كعبد الله بن سلام.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ هذا احتجاج على أن القرآن من عند الله؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يقرأ ولا يكتب ثم جاء بالقرآن، فإن قيل: ما فائدة قوله بيمينك؟ فالجواب: أن ذلك تأكيد للكلام وتصوير للمعنى المراد ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب لتطرق الشك إلى الكفار فكانوا يقولون لعله تعلم هذا الكتاب أو قرأه، وقيل: وجه الاحتجاج أن أهل الكتاب كانوا يجدون في كتبهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمي لا يقرأ ولا يكتب، فلما جعله الله كذلك قامت عليهم الحجة، ولو كان يقرأ أو يكتب لكان مخالفا للصفة التي وصفه الله بها عندهم، والمذهب الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقرأ قط ولا كتب، وقال الباجي وغيره: أنه كتب لظاهر حديث[1] الحديبية، وهذا القول ضعيف.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ الضمير للقرآن والإضراب ببل عن كلام محذوف تقديره ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المعنى كيف يطلبون آية والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة النبوءة فهلا اكتفوا به عن طلب الآيات؟

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ذكر معناه في الرعد وفي الأنعام.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الضمير للكفار، يعني قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وقولهم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وشبه ذلك. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لولا أن الله قدر لعذابهم أجلا مسمى لجاءهم به حين طلبوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ يحتمل أن يريد القتل الذي أصابهم يوم بدر، أو الجوع الذي أصابهم بتوالي القحط، أو يريد

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين الحديث رقم: (٢٦٥٧)، والسنن الكبرى للبيهقي الحديث رقم: (١٩٣٠٣).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ * وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

ثمن

عذاب الآخرة وهذا أظهر لقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يحيط بهم والعامل في الظرف محذوف أو محيطة.

﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ تحريض على الهجرة من مكة إذ كان المؤمنون يلقون فيها أذى الكفار وترغيبا في غيرها من أرض الله، فحينئذ هاجروا إلى أرض الحبشة ثم إلى المدينة.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي ننزلهم، وقرئ[1] لنثوينهم بالثاء المثلثة من الثوى وهو الإقامة في المنزل.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على حمل رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها، والقصد بالآية تقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة إلى بلاد الناس، أي كما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ في الموضعين إقامة حجة عليهم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمدا لله على ظهور الحجة، ويكون المعنى إلزامهم أن

(١) قال ابن عطية: وقرأ حمزة والكسائي ﴿لنثوينهم﴾ من أثوى يثوي وهو معدى ثوى بمعنى أقام وهي قراءة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابن مسعود والربيع بن خيثم وابن وثاب وطلحة. المحرر الوجيز: ٤/ ٣٧٧، والسبعة لابن مجاهد، ص: ٥٠٢، والحجة في القراآت، ص: ٥٥٤، وتحبير التيسير، ص: ٥٠٢.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ — ترتيبها ٣٠ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

يحمدوا الله لما اعترفوا أنه خلق السموات والأرض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضراب عن كلام محذوف، تقديره: يجب عليهم أن يعبدوا الله لما اعترفوا به ولكنهم لا يعقلون.

﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي الحياة الدائمة التي لا موت فيها، ولفظ الحيوان مصدر كالحياة.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ الآية إقامة حجة عليهم بدعائهم الله حين الشدائد، ثم يشركون به في حال الرخاء.

﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أمر على وجه التهديد أو على وجه الخذلان والتخلية، كما تقول لمن تنصحه فلا يقبل نصحك: اعمل ما شئت.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ الضمير لكفار قريش، والحرم الآمن مكة لأنها كانت لا تغير عليها العرب كما تغير على سائر البلاد، ولا ينتهك أحد حرمتها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ عبارة عما يصيب غير أهل مكة من القتل، أو أخذ الأموال.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني جهاد النفس في الصبر على إذاية الكفار واحتمال الخروج عن الأوطان وغير ذلك، وقيل: يعني القتال وذلك ضعيف لأن القتال لم يكن مأمورا به حين نزول الآية ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنوفقنهم لسبيل الخير ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المعنى أنه معهم بإعانته ونصره.

سورة الروم

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أي هزم كسرى ملك الفرس جيش ملك الروم، وسميت الروم باسم جدهم وهو روم ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: هي الجزيرة وهي بين الشام والعراق، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس، وقيل: في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ إخبار بأن الروم سيغلبون الفرس.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ روي: أن غلب الروم فارس وقع يوم بدر، وقيل: يوم الحديبية ففرح المؤمنون بنصر الله لهم على كفار قريش، وقيل: فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب إلى الإسلام، كذلك فرح الكفار من قريش بنصر الفرس على الروم؛ لأن الفرس ليسوا بأهل كتاب فهم أقرب إلى كفار قريش.

وروي: أنه لما فرح الكفار بذلك خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «**إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون وراهنهم على عشر قلاص إلى ثلاث سنين، وذلك قبل أن يحرم القمار**»[١]، «**فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: زدهم في الرهن واستزدهم في الأجل، فجعل القلاص مائة والأجل تسعة أعوام، وجعل معه أبي ابن خلف مثل ذلك، فلما وقع الأمر على ما أخبر الله به، أخذ أبو بكر القلاص من ذرية أبي بن خلف إذ كان قد مات، وجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: تصدق بها**»[٢].

---

(١) سنن الترمذي الحديث رقم: (٣١٩٤)... وفيه: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿في بضع سنين﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. ومسند الإمام أحمد: ١/٣٠٤.

(٢) بقية هذا الحديث لم أجدها مسندة، وهي متعارضة مع الأثر الذي ذكرنا. وانظر المحرر الوجيز: ٤/٣٨١.

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

ربع

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد كقوله: له على ألف درهم عرفا لأن معناه اعترفت له بها اعترافا.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ قيل: معناه يعلمون ما يدرك بالحواس دون ما يدرك بالعقول، فهم في ذلك مثل البهائم، وقيل: الظاهر ما يعلم بأوائل العقول والباطن ما يعلم بالنظر والدليل، وقيل: هو من الظهور بمعنى العلو في الدنيا، وقيل: ظاهر بمعنى زائل ذاهب.

والأظهر: أنه أراد بالظاهر المعرفة بأمور الدنيا ومصالحها؛ لأنه وصفهم بعد ذلك بالغفلة عن الآخرة، وذلك يقتضي عدم معرفتهم بها، وانظر كيف نفى العلم عنهم أولا ثم أثبت لهم العلم بالدنيا خاصة، وقال بعض أهل البيان: إن هذا من المطابقة لاجتماع النفي والإثبات، وجعل بعضهم العلم المثبت كالعدم لقلة منفعته، فهو على هذا بيان للنفي.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن تكون النفس ظرفا للفكرة في خلق السموات والأرض، كأنه قال: أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله ما خلق السموات والأرض إلا بالحق.

والثاني: أن يكون المعنى أو لم يتفكروا في ذواتهم وخلقتهم ليستدلوا بذلك على الخالق ويكون قوله: ﴿مَّا خَلَقَ﴾ الآية استئناف كلام، والمعنى الأول أظهر.

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي حرثوها.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيّٗا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ
مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ
﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجٗا
لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحْمَةً إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحْيِۦ
بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

ثمن

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ معنى السوآى هلاك الكفار، ولفظ السوأى تأنيث الأسوإ كما أن الحسنى تأنيث الأحسن، وقرئ عاقبة بالرفع على أنه اسم كان والسوأى خبرها وقرئ[1] بنصب عاقبة على أنها خبر كان والسوأى اسمها، و﴿أن كَذَّبُواْ﴾ مفعول من أجله، ويحتمل أن تكون السوأى مصدر أساءوا.

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الإبلاس الكون في شر، مع اليأس من الخير.

﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ معناه في المنازل والجزاء.

﴿يُحْبَرُونَ﴾ تنعمون، من الحبور وهو السرور والنعيم، وقيل: تكرمون.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليم للعباد، أي قولوا (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون).

﴿وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي حين تدخلون في وقت الظهيرة وهي وسط النهار، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض بين المعطوفات، وقيل: أراد بذلك الصلوات الخمس، فحين تمسون المغرب والعشاء، وحين تصبحون الصبح، وعشيا العصر، وحين تظهرون الظهر.

---

(١) ﴿عاقبة الذين أساؤوا﴾ قرأ المدنيان وابن كثير والبصريان بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب. النشر: ٢/٣٨٤.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ ذكر في آل عمران ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ينبت فيها النبات ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض، كذلك يخرجكم من الأرض للبعث يوم القيامة.

﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أي تتصرفون في الدنيا.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي من صنفكم وجنسكم، وقيل: أراد خلقة حواء من ضلع آدم، وخاطب الناس بذلك لأنهم ذرية آدم ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: المودة الجماع، والرحمة الولد، والعموم أحسن وأبلغ.

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي لغاتكم ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ يعني البياض والسواد، وقيل: يعني أصنافكم، والأول أظهر.

﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ ذكر في الرعد. ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ معناه تثبت، أو يقوم تدبيرها ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ إذا الأولى شرطية والثانية فجائية، وهي جواب الأولى، والدعوة في هذه الآية قوله للموتى: قوموا بالنفخة الثانية في الصور، و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يتعلق بقوله ﴿تَخْرُجُونَ﴾ أو بقوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾ على أن تكون الغاية بالنظر إلى المدعو، كقولك: دعوتك من الجبل إذا كان المدعو في الجبل.

﴿قَٰنِتُونَ﴾ ذكر في البقرة.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي الإعادة يوم القيامة أهون عليه من الخلقة الأولى، وهذا تقريب لفهم السامع وتحقيق للبعث، فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة، ولكن الأمور كلها متساوية عند الله، فإن كل شيء على الله يسير. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الوصف الأعلى الذي يصفه به أهل السموات والأرض.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ هذا هو المثل المضروب

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ • مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣٠﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣١﴾

ربع

معناه أنكم أيها الناس لا يشارككم عبيدكم في أموالكم، ولا يستوون معكم في أحوالكم، فكذلك الله تعالى لا يشاركه عبيده في ملكه، ولا يماثله أحد في ربوبيته، فذكر حرف الاستفهام ومعناه التقرير على النفي، ودخل في النفي قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لستم في أموالكم سواء مع عبيدكم ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم؛ لأن العبيد عندكم أقل وأذل من ذلك.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ الإضراب ببل عما تضمنه معنى الآية المتقدمة، كأنه يقول: ليس لهم حجة في إشراكهم بالله، بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ هو دين الإسلام وإقامة الوجه في الموضعين من السورة عبارة عن الإقبال عليه والإخلاص فيه، وفي قوله: ﴿أَقِمْ﴾ و﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ ضرب من ضروب التجنيس. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر كقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أو مفعولا بفعل مضمر، تقديره: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، ومعناه خلقة الله والمراد به دين الإسلام؛ لأن الله خلق الخلق عليه إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله ﷺ[1]: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه».

---

(١) البخاري الحديث رقم: (١٣١٩)، ولفظ مسلم «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» الحديث=

﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أن الله لا يبدلها أي لا يخلق الناس على غيرها ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى، أو يكون المعنى: أن تلك الفطرة لا ينبغي للناس أن يبدلوها فالنفي على هذا حكم لا خبر، وقيل: إنه على الخصوص في المؤمنين، أي لا تبديل لفطرة الله في حق من قضى الله أنه يثبت على إيمانه، وقيل: إنه نهى عن تبديل خلقة الله، كخصاء الفحول من الحيوان، وقطع آذانها، وشبه ذلك.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ منصوب على الحال من قوله: أقم وجهك؛ لأن الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وأمته، ولذلك جمعهم في قوله: منيبين، وقيل: هو حال من ضمير الفاعل المستتر في الزموا فطرة الله، وقيل: هو حال من قوله: ﴿فَطَرَ النَّاسَ﴾، وهذا بعيد. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ وما بعده معطوف على أقم وجهك، أو على العامل في فطرة الله وهو: الزموا المضمر.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ المجرور بدل من المجرور قبله، ومعنى فرقوا دينهم جعلوه فرقا، أي اختلفوا فيه وقرئ[1] فارقوا من المفارقة، أي تركوه والمراد بالمشركين هنا أصناف الكفار، وقيل: هم المسلمون الذين تفرقوا فرقا مختلفة، وفي لفظ المشركين على هذا تجوز بعيد، ولعل قائل هذا القول إنما قاله في قول الله في الأنعام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فإنه ليس هناك ذكر المشركين.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ الآية: إنحاء على المشركين لأنهم يدعون الله في الشدائد ويشركون به في الرخاء.

= رقم: (٦٩٢٦)، وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (١٢٣)، والترمذي الحديث رقم: (٢١٣٨)، ولفظه: «كل مولود يولد على الملة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه» قيل يا رسول الله فمن هلك قبل ذلك؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين به».

(١) ﴿فرقوا﴾ في الأعراف والروم قرأهما حمزة والكسائي ﴿فارقوا﴾ بالألف مع تخفيف الراء وقرأ الباقون بغير ألف مع التشديد فيهما النشر: ٢/٣٠١، وقد تقدمت.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ ذكر في العنكبوت.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة، والسلطان الحجة وكلامه مجاز كما تقول: نطق الكتاب بكذا، والمعنى: ليس لهم حجة تشهد بصحة شركهم.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ إنحاء على من يفرح ويبطر إذا أصابه الخير، ويقنط إذا أصابه الشر، وانظر كيف: قال هنا إذا، وقال في الشر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ لأن إذا للقطع بوقوع الشرط، بخلاف إن فإنها للشك في وقوعه، ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المعنى: أن ما يصيب الناس من المصائب فإنه بسبب ذنوبهم.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني صلة رحم القرابة بالإحسان والمودة ولو بالكلام الطيب.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ الآية معناها كقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. أي ما أعطيتم من أموالكم على وجه الربا فلا يزكو عند الله، وما آتيتم من الصدقات فهو الذي يزكو عند الله وينفعكم به، وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدي له ليعوضه أكثر من ذلك، فهذا وإن كان جائزا فإنه لا ثواب فيه، وقرئ وما آتيتم بالمد[1] بمعنى أعطيتم وبالقصر يعني جئتم أي فعلتموه،

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿ما آتيتم بالمعروف﴾ هنا ﴿وما آتيتم من ربا﴾ في الروم فقرأ ابن كثير بقصر الهمزة فيهما من باب المجيء، وقرأ الباقون بالمد من باب الإعطاء، واتفقوا على المد في الموضع الثاني من الروم وهو قوله تعالى: ﴿وما آتيتم من زكوة﴾ النشر: ٢/٢٦٠.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

وقرئ[1] لتربوا بالتاء مضمومة وليربوا بالياء مفتوحة ونصب الواو. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ المضعف ذو الإضعاف من الحسنات وفي هذه الجملة التفات لخروجه من الغيبة إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: وما آتيتم من زكاة فأنتم المضعفون، وفيها أيضا حذف؛ لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما، وتقديره: المضعفون به، أو فمؤتوه هم المضعفون.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قيل: البر البلاد البعيدة من البحر والبحر هو البلاد التي على ساحل البحر، وقيل: البر اللسان والبحر القلب وهذا ضعيف، والصحيح أن البر والبحر المعروفان فظهور الفساد في البر بالقحط والفتن وشبه ذلك، وظهور الفساد في البحر بالغرق وقلة الصيد وكساد التجارات وشبه ذلك، وكل ذلك بسبب ما يفعله الناس من الكفر والعصيان.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي لا رجوع له ولا بد من وقوعه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ أو بقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي لا يرده الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ من الصدع وهو الفرقة أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يوطنون وهو استعارة من تمهيد الفراش ونحوه، والمعنى: أنهم يعملون ما ينتفعون به في الآخرة.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ يتعلق بيمهدون أو يصدعون أو بمحذوف.

---

(١) ﴿ليربوا﴾ قرأ المدنيان ويعقوب بالخطاب وضم التاء وإسكان الواو وقرأ الباقون بالغيب وفتح الياء والواو. النشر: ٢/٣٨٥.

﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي تبشر بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ عطف على مبشرات كأنه قال: ليبشركم وليذيقكم، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره: ليذيقكم. ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أرسلها.

﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ انتصب حقا لأنه خبر كان واسمها نصر المؤمنين، وقيل: اسمها مضمر يعود على مصدر ﴿انْتَقَمْنَا﴾ أي وكان الانتقام حقا فعلى هذا يوقف على حقا ويكون نصر المؤمنين مبتدأ وهذا ضعيف.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي تحركها وتنشرها. ﴿كِسَفًا﴾ أي قطعا، وقرئ[1] بإسكان السين وهما بناءان للجمع، وقيل: معنى الإسكان أن السحاب قطعة واحدة ﴿الْوَدْقَ﴾ هو المطر ﴿مِنْ خِلَالِهِۦ﴾ الخلال الشقاق الذي بين بعضه وبعض؛ لأنه متخلل الأجزاء، والضمير يعود على السحاب.

﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ كرر للتأكيد وليفيد سرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي قانطين كقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ الضمير للنبات الذي ينبته الله بالمطر، والمعنى: إن أرسل الله ريحا فاصفر به النبات لكفر الناس بالقنوط والاعتراض على الله، وقيل: الضمير للريح، وقيل: للسحاب، والأول أحسن في المعنى.

﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية استعارة في عدم سمع الكفار للمواعظ والبراهين، فشبه الكفار بالموتى في عدم إحساسهم.

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ الضعف الأول كون الإنسان من ماء مهين وكونه ضعيفاً في حال الطفولية، والضعف الآخر هو الهرم، وقرئ[2] بفتح الضاد وضمها

(١) ﴿كسفا﴾ قرأه أبو جعفر وابن ذكوان بإسكان السين، واختلف فيه عن هشام... وقرأ الباقون بفتح السين. النشر: ٢/٣٨٧.

(٢) قال الداني: أبو بكر وحمزة ﴿من ضعف﴾ في الثلاثة بفتح الضاد وكذلك روى حفص عن عاصم=

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ربع ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

وهما لغتان.

﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ هذا جواب القسم، ومعناه: أنهم يحلفون أنهم ما لبثوا في القبور تحت التراب إلا ساعة، أي ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة وذلك لاستقصارهم تلك المدة. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل هذا الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق والتحقيق حتى يروا الأشياء على غير ما هي عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ردوا مقالة الكفار التي حلفوا عليها. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني اللوح المحفوظ أو علم الله، والمجرور على هذا يتعلق بقوله لبثتم، وقيل: يعني القرآن فعلى هذا يتعلق هذا المجرور بقوله: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير، وتقديره على هذا: قال الذين أوتوا العلم في كتاب الله أي العلماء بكتاب الله، وقولهم: لقد لبثتم، خطاب للكفار، وقولهم: فهذا يوم البعث تقرير لهم وهو في المعنى جواب لشرط مقدر، تقديره: إن كنتم تنكرون البعث فهذا يوم البعث.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العتبى بمعنى الرضا أي ولا يرضون، وليست استفعل هنا للطلب.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني ما وعد من النصر على الكفار. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ من الخفة أي لا تضطرب لكلامهم.

= فيهن، غير أنه ترك ذلك واختار الضم... والباقون بضم الضاد فيهن. التيسير، ص: ١١٤.

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ﴾ ذكر في يونس.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ هو الغناء، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «شراء المغنيات وبيعهن حرام»[1] وقرأ هذه الآية، وقيل: نزلت في قرشي اشترى جارية مغنية تغني بهجاء رسول الله ﷺ، فالشراء على هذا حقيقة، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث وكان قد تعلم أخبار فارس، فذلك هو لهو الحديث وشراء لهو الحديث استحبابه وقوله وسماعه، فالشراء على هذا مجاز، وقيل: لهو الحديث الباطل، وقيل: الشرك ومعنى اللفظ يعم ذلك كله، وظاهر الآية أنه لهو مضاف إلى كفر، واستخفاف بالدين لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية وأن المراد شخص معين لوصفه بعد ذلك بجملة أوصاف.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ذكر في الرعد: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد بكم.

﴿لُقْمَٰنَ﴾ رجل ينطق بالحكمة، واختلف هل هو نبيء أم لا؟ وفي الحديث[2]: «لم يكن لقمان نبيئا ولكن كان عبدا أحسن اليقين، أحب الله فأحبه فمن عليه

---

(١) في سنن ابن ماجه: نهى ﷺ عن بيع المغنيات وشرائهن الحديث رقم: (٢١٦٨)، وفي المعجم الكبير: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن» الحديث رقم: (٧٨٠٥)، وفي الترمذي: باب ما جاء في كراهة بيع المغنيات: (٥١)، وانظر الكشاف: ٤٧٥/٣. قال ابن حجر في فتح الباري إسناده ضعيف ٩١/١١.

(٢) لم أجده في كتب الحديث، وهو موجود في كتب التفسير بدون سند القرطبي: ٥٨/١٤، وابن عطية: ٤٠٢٢/٤، والكشاف: ٣١٢/٧.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ (١٩)﴾

بالحكمة» روي: أنه كان ابن أخت أيوب، أو ابن خالته، وروي: أنه كان قاضي بني إسرائيل، واختلف في صناعته، فقيل: كان نجارا، وقيل: خياطا، وقيل: راعي غنم، وكان ابنه كافرا فما زال يوصيه حتى أسلم، وروي: أن اسم ابنه ثاران.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هذه الآية والتي بعدها اعتراض في أثناء وصية لقمان لابنه على وجه التأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بالله، ونزلت الآية في سعد بن أبي وقاص وأمه حسبما ذكرنا في العنكبوت. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفا على ضعف؛ لأن الحمل كلما عظم ازدادت الحامل به ضعفا، وانتصابه هنا بفعل مضمر، تقديره: تهن وهنا. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه، وأشار بذلك إلى غاية مدة الرضاع. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ تفسير للوصية واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب.

﴿يَٰبُنَىَّ﴾ الآية رجع إلى كلام لقمان، والتقدير: وقال لقمان يا بني. ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وزنها والمراد بذلك أن الله يأتي بالقليل والكثير من أعمال العباد، فعبر بحبة الخردل ليدل على ما هو أكثر. ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ قيل: المراد الصخرة التي عليها الأرض، وهذا ضعيف وإنما معنى الكلام أن مثقال خردلة من الأعمال أو من الأشياء ولو كانت في أخفى موضع كجوف صخرة فإن الله يأتي بها يوم القيامة، وكذلك لو كانت في السموات أو في الأرض.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ
كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ
نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ
أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

حزب

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ أمر بالصبر على المصائب عموما، وقيل: المعنى ما يصيب من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يحتمل أن يريد مما أمر الله به على وجه العزم والإيجاب أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهل الحزم والجد، ولفظ العزم مصدر يراد به المفعول أي من معزومات الأمور.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ الصعر في اللغة الميل أي لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبرا عليهم. ﴿مَرَحاً﴾ ذكر في الإسراء. ﴿مُخْتَالٍ﴾ من الخيلاء.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي اعتدل فيه ولا تتسرع إسراعا يدل على الطيش والخفة، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر.

﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ الظاهرة الصحة والمال وغير ذلك، والباطنة النعم التي لا يطلع عليها الناس، ومنها ستر القبيح من الأعمال، وقيل: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العقبى، واللفظ أعم من ذلك كله. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأمثاله(١).

﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يسلم أي يخلص أو يستسلم أو ينقاد، والوجه هنا

---

(١) قال ابن عطية: وقال النقاش: الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه؛ لأنهم كانوا ينكرون الله ويشركون الأصنام. المحرر الوجيز: ٤/٤٠٨.

عبارة عن القصد. ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ذكر في البقرة.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وما بعده ذكر في العنكبوت.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ الآية إخبار بكثرة كلمات الله، والمراد: اتساع علمه، ومعنى الآية أن شجر الأرض لو كانت أقلاما والبحر لو كان مدادا يصب فيه سبعة أبحر صبا دائما، وكتبت بذلك كلمات الله لنفدت الأشجار والبحار ولم تنفد كلمات الله؛ لأن الأشجار والبحار متناهية وكلمات الله غير متناهية.

فإن قيل: لم لم يقل: والبحر مدادا كما قال في الكهف: قل لو كان البحر مدادا؟ **فالجواب**: أنه أغنى عن ذلك قوله: يمده لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها.

فإن قيل: لم قال من شجرة ولم يقل من شجر باسم الجنس الذي يقتضي العموم؟ **فالجواب**: أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة حتى لا يبقى منها واحدة.

فإن قيل: لم قال كلمات الله ولم يقل كلام الله بجمع الكثرة؟ **فالجواب**: أن هذا أبلغ لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنها جمع قلة، فكيف ينفد الجمع الكثير؟ وروي: أن سبب الآية أن اليهود قالوا قد أوتينا التوراة وفيها العلم كله فنزلت الآية لتدل أن ما عندهم قليل من كثير، والآية على هذا مدنية، وقيل: إن سببها أن قريشا قالوا إن القرآن سينفد.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ بيان لقدرة الله على بعث الناس ورد على من استبعد ذلك.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي يدخل كل واحد منهما في الآخر بما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر، أو بإدخال ظلمة الليل على ضوء النهار وإدخال ضوء النهار على ظلمة الليل. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون الباء سببية أو يكون المعنى ذلك بأن الله شاهد هو الحق.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ۞ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

ثمن

سُورَةُ السَّجْدَةِ — ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد بذلك ما تحمله السفن من الطعام والتجارات فتكون الباء للإلصاق أو للمصاحبة، أو يريد الريح فتكون الباء سببية. ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ مبالغة في صابر وشاكر.

﴿كَالظُّلَلِ﴾ جمع ظلة وهو ما يعلوك من فوق، شبه الموج بذلك إذا ارتفع وعظم حتى علا فوق الإنسان. ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ المقتصد المتوسط في الأمر فيحتمل أن يريد كافرا متوسطا في كفره لم يسرف فيه، أو مؤمنا متوسطا في إيمانه؛ لأن الإخلاص الذي كان عليه في البحر كان يزول عنه، وقيل: معنى مقتصد مؤمن ثبت في البر على ما عاهد الله عليه في البحر. ﴿خَتَّارٍ﴾ أي غدار شديد الغدر، وذلك أنه جحد نعمة الله غدرا.

﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ أي لا يقضي عنه شيئا، والمعنى: أنه لا ينفعه ولا يدفع عنه مضرة. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ أي ولد فكما لا يقدر الوالد لولده على شيء كذلك لا يقدر الولد لوالده على شيء. ﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان وقيل الأمل والتسويف.

﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي متى تكون الساعة، فإن ذلك مما انفرد الله بعلمه، ولذلك جاء في الحديث: **«مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية»**[1]. ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يعني من خير، أو شر، أو مال، أو ولد، أو غير ذلك.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٣٥١)، وصحيح مسلم الحديث رقم: (١٠٦)، والسنن الكبرى للنسائي: ٤/٤١١، والترمذي الحديث رقم: (٣٢٧٨)، وصحيح ابن خزيمة الحديث رقم: (٢٢٤٤)، وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (١٥٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

ربع

سورة السجدة

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه من عند الله ﷻ، ونفي الريب على اعتقاد أهل الحق وعلى ما هو الأمر في نفسه، لا على اعتقاد أهل الباطل. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يتعلق بتنزيل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الضمير لقريش، وأم بمعنى بل والهمزة.

﴿لِتُنذِرَ﴾ يتعلق بما قبله أو بمحذوف. ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ يعني من الفترة من زمن عيسى، وقد جاء الرسل قبل ذلك، كإبراهيم وغيره، ولما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله رسولا ينذرهم ليقيم الحجة عليهم.

﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد ذكر في الأعراف. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ نفي الشفاعة على وجهين:

أحدهما: الشفاعة للكفار وهي معدومة على الإطلاق.

والآخر: أن الشفاعة للمؤمنين لا تكون إلا بإذن الله كقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي واحد الأمور، وقيل: المأمور به من الطاعات، والأول أصح ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي ينزل ما دبره وقضاه من السماء إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس:

المعنى[١] ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره لو سير فيه السير المعروف من البشر ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء، وقيل: إن الله يلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من أعوام البشر، وهو يوم من أيام الله، فإذا فرغت ألقي إليهم مثلها، فالمعنى: أن الأمور تنفذ عنده لهذه المدة ثم تصير إليه آخرا؛ لأن عاقبة الأمور إليه فالعروج على هذا عبارة عن مصير الأمور إليه.

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ الغيب ما غاب عن المخلوقين، والشهادة ما شاهدوه.

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أتقن جميع المخلوقات وقرئ[٢] خلقه بإسكان اللام على البدل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿نَسْلَهُۥ﴾ يعني ذريته. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني المني والسلالة مشتقة من سل يسل فكأن الماء يسل من الإنسان والمهين الضعيف.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي قومه. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ عبارة عن إيجاد الحياة فيه وإضافة الروح إلى الله إضافة ملك إلى مالك، وقد يراد بها الاختصاص، لأن الروح لا يعلم كنهه إلا الله.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تلفنا وصرنا ترابا، ومعنى هذا الكلام المحكي عن الكفار استبعاد البعث، والعامل في إذا معنى قولهم ﴿إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، تقديره: نبعث.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ اسمه عزرائيل وتحت يده ملائكة.

---

(١) انظر الطبري: ١٠/٢٣١.

(٢) ﴿خلقه﴾ قرأ نافع والكوفيون بفتح اللام وقرأ الباقون بإسكانها. النشر: ٢/٣٨٧.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يحتمل أن تكون لو للتمني وتأويله في حق الله كتأويل الترجي وقد ذكر، أو تكون للامتناع وجوابها محذوف تقديره: ولو ترى حال المجرمين في الآخرة لرأيت أمرا مهولا. ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ عبارة عن الذل والغم والندم. ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ تقديره: يقولون ربنا قد علمنا الحقائق.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ يعني أنه لو أراد أن يهدي جميع الخلائق لفعل، فإنه قادر على ذلك بأن يجعل الإيمان في قلوبهم ويدفع عنهم الشياطين والشهوات، ولكنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي يقال لهم ذوقوا، والنسيان هنا بمعنى الترك.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي ترتفع، والمعنى: يتركون مضاجعهم بالليل من كثرة صلاتهم النوافل، ومن صلى العشاء والصبح في جماعة فقد أخذ بحظه من هذا[1].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ يعني أنه لا يعلم أحد مقدار ما

---

(١) ... قالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ: دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ الْمَسْجِدَ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، فَقَعَدَ وَحْدَهُ فَقَعَدْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ». صحيح مسلم الحديث رقم: (١٥٢٣).

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

ثمن

سُورَةُ الأَحْزَابِ — ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

يعطيهم الله من النعيم، وقرئ[1] أخفي بإسكان الياء على أن يكون فعل المتكلم وهو الله تعالى.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ الآية يعني المؤمنين والفاسقين على العموم، وقيل: يعني علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط.

﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ الذي نعت بالعذاب، ولذلك أعاد عليه الضمير المذكور في قوله به.

فإن قيل: لم وصف هنا العذاب وأعاد عليه الضمير ووصف في سبإ النار وأعاد عليها الضمير فقال: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه خص العذاب في السجدة بالوصف اعتناء به لما تكرر ذكره في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

والثاني: أنه قدم في السجدة ذكر النار فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ الضمير، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر، فكما لا يوصف المضمر لم يوصف ما قام مقامه وهو النار، ووصف العذاب ولم يصف النار.

والثالث: وهو الأقوى أنه امتنع في السجدة وصف النار فوصف العذاب، وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها، فإنك إذا ذكرت شيئا ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: رأيت رجلا فأكرمت الرجل، فلا يجوز وصفه لئلا يفهم أنه غيره.

---

(١) ﴿ما أخفي﴾ قرأ يعقوب وحمزة بإسكان الياء، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٢/٣٨٧.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني الجوع ومصائب الدنيا، وقيل: القتل يوم بدر، وقيل: عذاب القبر، وهذا بعيد لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هذا وعيد لمن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، وكان الأصل أن يقول: إنا منه منتقمون، ولكنه وضع المجرمين موضع المضمر ليصفهم بالإجرام، وقدم المجرور على منتقمون للمبالغة.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ المرية الشك والضمير لموسى أي لا تمتر في لقائك موسى ليلة الإسراء، وقيل المعنى: لا تشك في لقاء موسى والكتاب الذي أنزل عليه، والكتاب على هذا التوراة، وقيل: الكتاب هنا جنس، والمعنى: لقد آتينا موسى الكتاب فلا تشك أنت في لقائك الكتاب الذي أنزل عليك، وعبر باللقاء عن إنزال الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾.

﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ الضمير لجميع الخلق، وقيل: لبني إسرائيل خاصة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ذكر في طه. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ﴾ الضمير في يمشون لأهل مكة أي يمشون في مساكن القوم المهلكين كقوله ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ وقيل: الضمير للمهلكين، أي أهلكناهم وهم يمشون في مساكنهم، والأول أحسن لأن فيه حجة على أهل مكة.

﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ يعني التي لا نبات فيها من شدة العطش.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي الحكم بين المسلمين والكفار في الآخرة، وقيل: يعني فتح مكة وهذا بعيد لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ وذلك في الآخرة؛ لأن من آمن يوم فتح مكة نفعه إيمانه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ منسوخ بالسيف. ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي انتظر هلاكهم إنهم ينتظرون هلاكك وفي هذا تهديد لهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا النَّبِےٓءُ اُتَّقِ اِ۬للَّهَ وَلَا تُطِعِ اِ۬لْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماۖ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراۖ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اَ۬للَّهِۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاۖ (٣) مَّا جَعَلَ اَ۬للَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِے جَوْفِهِۦۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ اُ۬لَّٓـِٔے تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۖ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَاللَّهُ يَقُولُ اُ۬لْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِے اِ۬لسَّبِيلَۖ (٤) اُدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اَ۬للَّهِۖ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِے اِ۬لدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۖ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۖ وَكَانَ اَ۬للَّهُ غَفُوراً رَّحِيماۖ (٥) ● اُ۬لنَّبِےٓءُ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۖ وَأُوْلُواْ اُ۬لْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِے كِتَٰبِ اِ۬للَّهِ مِنَ اَ۬لْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفاًۖ كَانَ ذَٰلِكَ فِے اِ۬لْكِتَٰبِ مَسْطُوراۖ (٦)

ربع

سورة الأحزاب

﴿يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لنَّبِےٓءُ﴾ نداء فيه تكريم له ؛ لأنه ناداه بالنبوءة ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم. ﴿اِتَّقِ اِ۬للَّهَ﴾ أي دم على التقوى وزد منها. ﴿وَلَا تُطِعِ اِ۬لْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي لا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة ويعني بالكافرين المظهرين للكفر، وبالمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر، وروي: أن الكافرين هنا أبي بن خلف، والمنافقين هنا عبد الله بن أبي ابن سلول، والعموم أظهر.

﴿مَّا جَعَلَ اَ۬للَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِے جَوْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس[1]: كان في قريش رجل يقال له ذو القلبين لشدة فهمه، فنزلت الآية نفيا لذلك، ويقال إنه ابن أخطا، وقيل: جميل بن معمر، وقيل: إنما جاء هذا اللفظ توطئة لما بعده من النفي، أي كما لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه كذلك لم يجعل أزواجكم أمهاتكم ولا أدعياءكم أبناءكم. ﴿اُ۬لَّٓـِٔے تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ﴾ أي تقولون للزوجة: أنت علي كظهر أمي، وكانت العرب تطلق هذا اللفظ بمعنى التحريم، ويأتي حكمه في المجادلة، وإنما

(١) قال ابن عطية: اختلف الناس في السبب في قوله تعالى «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» فقال ابن عباس: سببها أن بعض المنافقين قال إن محمدا له قلبان؛ لأنه ربما كان في شيء فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول، فقالوا ذلك عنه فنفاه الله تعالى عنه، وقال ابن عباس: أيضا بل سببه أنه كان في قريش في بني فهر رجل فهم يدعي أن له قلبين ويقال له ذو قلبين... المحرر الوجيز: ٤/٤٢٢.

تعدى هذا الفعل بمن لأنه يتضمن معنى يتباعدون منهن. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الأدعياء جمع دعي وهو الذي يدعى ولد فلان وليس بولده، وسببها[1] أمر زيد بن حارثة وذلك أنه كان فتى من كلب، فسباه بعض العرب وباعه من خديجة، فوهبته للنبي ﷺ، فتبناه، فكان يقال له: زيد بن محمد، حتى أنزلت هذه الآية. ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم﴾ الإشارة إلى نسبة الدعي إلى غير أبيه، أو إلى كل ما تقدم من المنفيات وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تأكيد لبطلان القول.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ الضمير للأدعياء أي انسبوهم لآبائهم الذين ولدوهم.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يقتضي أن يحبوه ﷺ أكثر مما يحبون أنفسهم، وأن ينصروا دينه أكثر مما ينصرون أنفسهم. ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ جعل الله تعالى لأزواج النبي ﷺ حرمة الأمهات في تحريم نكاحهن، ووجوب مبرتهن، ولكن أوجب حجبهن عن الرجال ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ هذا نسخ لما كان في أول الإسلام من التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، وقد تكلمنا عليها في الأنفال. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، أو اللوح المحفوظ. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون بيانا لأولي الأرحام، أو يتعلق بـ ﴿أَوْلَىٰ﴾ أي أولوا الأرحام أولى بالميراث من المؤمنين الذين ليسوا بذوي أرحام. ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان إلى الأولياء الذين ليسوا بقرابة، ونفعهم في الحياة والوصية لهم عند الموت، فذلك جائز ومندوب إليه وإن لم يكونوا قرابة، وأما الميراث فللقرابة خاصة، واختلف: هل يعني بالأولياء المؤمنين خاصة أو المؤمنين والكافرين؟. ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يعني القرآن أو اللوح المحفوظ.

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢٠/٢٠٦، وابن كثير في تفسير القرآن: ٢/٢٥٣، والمحرر الوجيز: ٤/٤٢٣.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ • وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ هو الميثاق بتبليغ الرسالة والقيام بالشرائع، وقيل: الميثاق الذي أخذه حين أخرج بني آدم من صلب آدم كالذر، والأول أرجح لأنه هو المختص بالأنبياء. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قد دخل هؤلاء في جملة النبيئين ولكنه خصهم بالذكر تشريفا لهم، وقدم محمدا ﷺ تفضيلا له. ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يعني الميثاق المذكور، وإنما كرره تأكيدا وليصفه بأنه غليظ أي وثيق ثابت يجب الوفاء به.

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ﴾ اللام تحتمل أن تكون لام كي أو لام الصيرورة، والصدق هنا يحتمل أن يكون الصدق في الأقوال، أو الصدق في الأفعال والعزائم، ويحتمل أن يريد بالصادقين الأنبياء وغيرهم من المؤمنين.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هذه الآية وما بعدها نزلت في قصة غزوة الخندق[1] والجنود المذكورة هم قريش ومن كان معهم من الكفار، وسماهم الله في هذه السورة الأحزاب، وكانوا نحو عشرة آلاف حاصروا المدينة وحفر رسول الله ﷺ الخندق حولها ليمنعهم من دخولها. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أرسل الله عليهم ريح الصبا فأطفأت نيرانهم وأكفأت قدورهم، ولم يمكنهم معها قرار فانصرفوا خائبين. ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة.

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢٠/٣١٧.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي حصروا المدينة من أعلاها ومن أسفلها، وقيل: معنى ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أهل نجد؛ لأن أرضهم فوق المدينة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أهل مكة وسائر تهامة. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي مالت عن مواضعها وذلك عبارة عن شدة الخوف ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ جمع حنجرة وهي الحلق، وبلوغ القلوب إليها مجاز، وهو عبارة عن شدة الخوف، وقيل: بل هي حقيقة لأن الرئة تنتفخ من شدة الخوف فتربو ويرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي تظنون أن الكفار يغلبونكم، وقد وعدكم الله بالنصر عليهم، فأما المنافقون فظنوا ظن السوء وصرحوا به، وأما المؤمنون فربما خطرت لبعضهم خواطر مما لا يمكن للبشر دفعها ثم استبصروا ووثقوا بوعد الله، وقرأ نافع: ﴿الظُّنُونَا﴾ و﴿الرَّسُولَا﴾ و﴿السَّبِيلَا﴾ بالألف في الوصل وفي الوقف، وقرئ[1] بإسقاطها في الوصل والوقف وبإثباتها في الوقف دون الوصل، فأما إسقاطها فهو الأصل، وأما إثباتها فلتعديل رؤوس الآي لأنها كالقوافي، وتقتضي هذه العلة أن تثبت في الوقف خاصة، وأما من أثبتها في الحالين فإنه أجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي اختبروا أو أصابهم بلاء، والعامل في الظرف ابتلي، وقيل: ما قبله. ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أصل الزلزلة شدة التحريك، وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ روي: أنه معتب بن قشير.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ﴾ قال السهيلي: الطائفة تقع على الواحد فما فوق والمراد

(١) قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿الظنونا هنالك﴾ و﴿الرسولا وقالوا﴾ و﴿السبيلا ربنا﴾ فقرأ المدنيان وابن عامر وأبو بكر بألف في الثلاثة وصلاً ووقفا، وقرأ البصريان وحمزة بغير ألف في الحالين، وقرأ الباقون وهم: ابن كثير، والكسائي، وخلف، وحفص، بألف في الوقف دون الوصل، واتفقت المصاحف على رسم الألف في الثلاثة دون سائر الفواصل. النشر: ٢/٣٨٨.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ • يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

ربع

هنا أوس بن قبطي[1]. ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ يثرب اسم المدينة، وقيل: اسم البقعة التي المدينة في طرف منها، ومقام اسم موضع من القيام أي لا قرار لكم هنا، يعنون موضع القتال وقرئ[2] بالضم وهو اسم موضع من الإقامة، وقولهم ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى منازلكم بالمدينة، ودعوا القتال. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ أي يستأذنوه في الانصراف والمستأذن أوس بن قبطي وعشيرته، وقيل: بنو حارثة. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي منكشفة للعدو، وقيل: خالية للسراق، فكذبهم الله في ذلك.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي لو دخلت عليهم المدينة من جهاتها. ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ يريد بالفتنة الكفر أو قتال المسلمين. ﴿لَآتَوْهَا﴾ قرئ[3] بالقصر بمعنى جاؤوا إليها، وبالمد بمعنى أعطوها من أنفسهم. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ الضمير للمدينة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ دخلت قد على الفعل المضارع بمعنى التهديد، وقيل: للتعليل على وجه التهكم. ﴿الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي الذين يعوقون الناس عن الجهاد ويمنعونهم منه بأقوالهم وأفعالهم. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هم المنافقون

---

(١) انظر تفسير السراج المنير لمحمد بن أحمد الشربيني: ١٩٧/٣.

(٢) ﴿لا مقام لكم﴾ روى حفص بضم الميم، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٣٨٨/٢.

(٣) قال الداني: الحرميان ﴿لأتوها﴾ بالقصر والباقون بالمد. التيسير، ص: ١١٧.

الذين قعدوا بالمدينة عن الجهاد، وكانوا يقولون لقرابتهم أو للمنافقين مثلهم: هلم إلى الجلوس معنا بالمدينة وترك القتال، وقد ذكر هلم في الأنعام. ﴿وَلاَ يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ البأس القتال و﴿قَلِيلاً﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا إتيانا قليلا، أو مستثنى من فاعل يأتون، أي إلا قليلا منهم.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أشحة جمع شحيح بوزن فعيل معناه يشحون بأنفسهم فلا يقاتلون، وقيل: يشحون بأموالهم، وقيل: معناه أشحة عليكم وقت الحرب أي يشفقون أن يقتلوا، ونصب أشحة على الحال من القائلين، أو على المعوقين، أو من الضمير في يأتون، أو نصب على الذم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي إذا اشتد الخوف من الأعداء نظر إليك هؤلاء في تلك الحالة ولاذوا بك من شدة خوفهم. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ عبارة عن شدة خوفهم. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ السلق بالألسنة عبارة عن الكلام بكلام مستكره، ومعنى حداد: فصحاء قادرين على الكلام، وإذا نصركم الله فزال الخوف رجع المنافقون إلى إذايتكم بالسب وتنقيص الشريعة، وقيل: إذا غنمتم طلبوا من الغنائم. ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي يشحون بفعل الخير، وقيل: يشحون بالمغانم وانتصابه هنا على الحال من الفاعل في سلقوكم. ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ليس المعنى: أنها حبطت بعد ثبوتها، وإنما المعنى: أنها لم تقبل؛ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال، وقيل: إنهم نافقوا بعد أن آمنوا، فالإحباط على هذا حقيقة.

﴿يَحْسِبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ الأحزاب هنا هم كفار قريش ومن معهم، والمعنى: أن المنافقين من شدة جزعهم يظنون أن الأحزاب لم ينصرفوا عن المدينة، وهم قد انصرفوا. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ معنى يودوا يتمنوا، وبادون خارجون في البادية، والأعراب: هم أهل البوادي من

العرب، فمعنى الآية: أنه إن أتى الأحزاب إلى المدينة مرة أخرى تمنى هؤلاء المنافقون من شدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب، وأن لا يكونوا في المدينة بل غائبين عنها يسألون من ورد عليهم عن أنبائكم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قدوة تقتدون به ﷺ في اليقين والصبر وسائر الفضائل، وقرئ[1] أسوة بضم الهمزة والمعنى واحد.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قيل: إن هذا الوعد هو ما أعلمهم رسول الله ﷺ حين أمر بحفر الخندق، من أن الكفار ينزلون عليهم وأنهم ينصرفون خائبين، وقيل: إنه قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الآية فعلموا أنهم يبتلون ثم ينصرون.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يعني قتل شهيدا، قال أنس بن مالك[2]: يعني عمي أنس بن النضر، وقيل: يعني حمزة بن عبد المطلب، وقضاء النحب: عبارة عن الموت عند ابن عباس[3] وغيره، وقيل: قضى نحبه: وفى العهد الذي عاهد الله عليه، ويدل على هذا ما ورد أن رسول الله ﷺ قال: طلحة ممن قضى نحبه[4] وهو لم يقتل حينئذ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَنتَظِرُ﴾ المفعول محذوف أي ينتظر أن

---

(١) ﴿إسوة﴾ هنا وفي حرفي الممتحنة قرأ عاصم بضم الهمزة من الثلاثة، وقرأ الباقون بكسرها فيهن. النشر: ٢/٣٨٨.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان بسنده... قال أنس: فكنا نتحدّث أن هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ نزلت فيه، (أنس بن النضر) وفي أصحابه. ٢٠/٢٤٠.

(٣) الطبري في جامع البيان: ٢٠/٢٣٩، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٤٣٦.

(٤) أخرج الترمذي الحديث رقم: (٣٢٠٢)، وابن جرير الطبري: ٢١/٩٣، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن معاوية رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: طلحة ممن قضى نحبه. الدر المنثور: ٦/٥٨٧. وابن كثير: ٦/٣٩٤.

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

يقضي نحبه أو ينتظر الشهادة في سبيل الله على قول ابن عباس، أو ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصلاح، على القول الآخر.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ الصياصي: هي الحصون، ونزلت الآية[1] في يهود بني قريظة وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ، فنقضوا عهده وصاروا مع قريش، فلما انصرفت قريش عن المدينة حصر رسول الله بني قريظة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذريتهم. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني الرجال، وقتل منهم يومئذ كل من أنبت، وكانوا بين ثمانمائة وتسعمائة. ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني النساء والذرية.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ يعني أرض بني قريظة، قسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين. ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ هذا وعد بفتح أرض لم يكن المسلمون قد وطؤوها حينئذ وهي مكة واليمن والشام والعراق ومصر، فأورث الله المسلمين جميع ذلك وما وراءها إلى أقصى المشرق والمغرب، ويحتمل عندي أن يريد أرض بني قريظة؛ لأنه قال: أورثكم بالفعل الماضي وهي التي كانوا قد أخذوها حينئذ، وأما غيرها من الأرضين فإنما أخذوها بعد ذلك، فلو أرادها لقال: يورثكم إنما كررها بالعطف ليصفها بقوله: ﴿لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي لم تدخلوها قبل ذلك.

(١) ينظر الطبري: ٢٠/٢٤٣، والمحرر الوجيز: ٤/٤٣٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية سببها[١] أن أزواج رسول الله ﷺ تغايرن حتى غمه ذلك، وقيل: طلبن منه الملابس ونفقات كثيرة، وكان أزواجه يومئذ تسع نسوة خمس من قريش، وهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسودة بنت زمعة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وأربع من غير قريش؛ وهن: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي من بني إسرائيل، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق. ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أصل تعال أن يقوله من كان في موضع مرتفع لمن في موضع منخفض، ثم استعملت بمعنى أقبل في جميع الأمكنة، وأمتعكن من المتعة وهي الإحسان إلى المرأة إذا طلقت، والسراح الطلاق، فمعنى الآية: أن الله أمر رسوله ﷺ أن يخير نساءه بين الطلاق والمتعة إن أرادوا زينة الدنيا، وبين البقاء في عصمته إن أرادوا الآخرة، فبدأ ﷺ بعائشة فاختارت البقاء في عصمته، ثم تبعها سائرهن في ذلك، فلم يقع طلاق[٢] وقالت عائشة[٣]: «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعد ذلك طلاقا». وإذا اختارت المخيرة الطلاق فمذهب مالك أنه ثلاث، وقيل: طلقة بائنة، وقيل: طلقة رجعية. ووصف السراح بالجميل يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث، أو يريد أنه ثلاث، وجماله حسن الرعي والثناء، وحفظ العهد.

---

(١) قال ابن جرير الطبري: وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل أن عائشة سألت رسول الله ﷺ شيئا من عرض الدنيا، إما زيادة في النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرا، فيما ذكر، ثم أمره الله أن يخيرهنّ بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهنّ، والعمل بطاعة الله، وبين أن يمتِّعهنّ ويفارقهنّ إن لم يرضين بالذي يقسم لهن. وقيل: كان سبب ذلك غيرة كانت عائشة غارتها. جامع البيان: ٢٠/٢٥١.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٠٤.

(٣) المسند (٦/٤٥)، وصحيح البخاري برقم (٥٢٦٢)، وصحيح مسلم رقم (١٤٧٧)، والبغوي في معالم التنزيل: ٦/٣٤٧، وتفسير ابن كثير: ٤/٤٠٢.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيٓءِ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴿٣٤﴾ ۞ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾﴾

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ من للبيان لا للتبعيض؛ لأن جميعهن محسنات.

﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: يعني الزنا، وقيل: يعني عصيان زوجهن عليه الصلاة والسلام، أو تكليفه ما يشق عليه، وقيل: عموم في المعاصي. ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يكون عذابها في الآخرة مثل عذاب غيرها مرتين، وإنما ذلك لعلو رتبتهن؛ لأن كل أحد يطالب على مقدار حاله، وقرئ[1] يضاعف بالياء ورفع العذاب على البناء للمفعول وبالنون ونصب العذاب على البناء للفاعل.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قرئ بالياء حملا على لفظ من، وبالتاء حملا على المعنى[2] وكذلك ﴿تَعْمَلْ﴾[3] والقنوت هنا بمعنى الطاعة. ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي يضاعف لها ثواب الحسنات. ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ يعني الجنة، وقيل: في الدنيا، والأول هو الصحيح.

---

(١) ﴿يضاعف لها العذاب﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر بالنون وتشديد العين وكسرها من غير ألف قبلها ونصب ﴿العذاب﴾ وقرأ أبو جعفر والبصريان بالياء وتشديد العين وفتحها من غير ألف قبلها ورفع ﴿العذاب﴾ وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم بتخفيف العين وألف قبلها.. النشر: ٢/٣٨٨.

(٢) وقرأ عمرو بن فائد الجحدري، ويعقوب ﴿من تأت﴾ ﴿ومن تقنت﴾ بالتاء من فوق حملا على المعنى. المحرر الوجيز: ٤/٤٤٠.

(٣) ﴿وتعمل صالحاً نؤتها﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء فيهما، وقرا الباقون بالتاء على التأنيث في الأول، بالنون في الثاني. النشر. المصدر السابق..

﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ فضلهن الله على النساء بشرط التقوى، وقد حصل لهن التقوى فحصل التفضيل على جميع النساء، إلا أنه قد يخرج من هذا العموم فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، لشهادة رسول الله ﷺ لكل واحدة منهن بأنها سيدة نساء عالمها. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ نهى عن الكلام اللين الذي يعجب الرجال ويميلهن إلى النساء. ﴿فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي فجور وميل للنساء، وقيل: هو النفاق، وهذا بعيد في هذا الموضع. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو الصواب من الكلام أو الذي ليس فيه شيء مما نهى عنه.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئ[1] بكسر القاف ويحتمل وجهين: أن يكون من الوقار، أو من القرار في الموضع، ثم حذفت الراء الواحدة كما حذفت اللام في ظلت، وأما القراءة بالفتح فمن القرار في الموضع على لغة من يقول: قررت بالكسر أقر بالفتح، والمشهور في اللغة عكس ذلك، وقيل: هي من قار يقار إذا اجتمع، ومعنى القرار أرجح لأن سودة رضي الله عنها قيل لها: لم لا تخرجين؟ فقالت: أمرنا الله بأن نقر في بيوتنا، وكانت عائشة إذا قرأت هذه الآية تبكي على خروجها[2] أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمار: إن الله أمرك أن تقري في بيتك[3]. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ التبرج إظهار الزينة. ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن من الانكشاف والتعرض للنظر، وجعلها أولى بالنظر إلى حال الإسلام، وقيل: الجاهلية الأولى ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين موسى وعيسى. ﴿الرِّجْسَ﴾ أصله

---

(١) ﴿وقرن في بيوتكن﴾ قرأ المدنيان وعاصم بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها. النشر: ٢/٣٨٩.

(٢) ذكره القرطبي في جامعه: ذكر الثعلبي وغيره: أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبل خمارها. ١٤/١٧٩ قال الشيخ/محمد الطاهر بن عاشور: «لا ثقة بصحة سنده» التحرير والتنوير: ١٢/٢٢٢.

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٤٤٣.

النجس، والمراد به هنا النقائص والعيوب. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ منادى أو منصوب على التخصيص، وأهل بيت النبي ﷺ هم: أزواجه، وذريته، وأقاربه، كالعباس، وعلي، وكل من حرمت عليه الصدقة، وقيل: المراد هنا أزواجه خاصة، والبيت على هذا المسكن، وهذا ضعيف؛ لأن الخطاب بالتذكير، ولو أراد ذلك لقال عنكن، وروي[١]: أن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في خمسة في، وفي علي، وفاطمة، والحسن، والحسين.

﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ خطاب لأزواج النبي ﷺ خصهن بعد دخولهن مع أهل البيت، وهذا الذكر يحتمل أن يكون التلاوة أو التذكر بالقلب، وآيات الله هي القرآن، والحكمة هي السنة.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية سببها[٢] أن بعض النساء قلن ذكر الله الرجال ولم يذكرنا، فنزل فيها ذكر النساء. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الإسلام هو الانقياد والإيمان هو التصديق، ثم إنهما يطلقان بثلاثة أوجه باختلاف المعنى: كقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ وبالاتفاق لاجتماعهما كقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الآية، وبالعموم فيكون الإسلام أعم لأنه بالقلب والجوارح والإيمان أخص لأنه بالقلب خاصة وهذا هو الأظهر في هذا الموضع. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى العبادة أو الطاعة. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون من صدق القول أو من صدق العزم، أو اليمن.

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وفاطمة، وحسن، وحسين، ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾» الدر المنثور: ٦٠٤/٦، وتفسير الألوسي: ١١٧/١٦.

(٢) أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٦٩، والمحرر الوجيز: ٤٤٥/٤.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ اِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَّعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِے أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِے فِے نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَےْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِے أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيٓءِ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِے الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَٰتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ﴿٣٩﴾ ۞ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيٓـِٔينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِے يُصَلِّے عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴿٤٣﴾

ثمن

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية معناها أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة اختيار مع الله ورسوله، بل يجب عليهم التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله، والضمير في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ راجع إلى الجمع الذي يقتضيه قوله ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾؛ لأن معناه العموم في جميع المؤمنين والمؤمنات، وهذه الآية توطئة للقصة المذكورة بعدها، وقيل: سببها: أن رسول الله ﷺ خطب امرأة ليزوجها لمولاه زيد بن حارثة فكرهت هي وأهلها ذلك، فلما نزلت الآية قالوا رضينا يا رسول الله، واختلف: هل هذه المخطوبة زينب بنت جحش[(١)] أو غيرها؟ وقد قيل: إنها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[(٢)].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِے أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ هو زيد بن حارثة الكلبي وإنعام الله عليه بالإسلام وغيره، وإنعام النبي ﷺ بالعتق، وكانت عند زيد زينب بنت جحش وهي بنت أميمة، عمة النبي ﷺ، فشكا زيد إلى رسول الله ﷺ سوء معاشرتها وتعاظمها عليه، وأراد أن يطلقها، فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، يعني فيما وصفها به من سوء المعاشرة، أو اتق الله ولا تطلقها، فيكون نهيا عن الطلاق على وجه التنزيه، كما قال عليه الصلاة والسلام[(٣)]:

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢٠/٢٧١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الترمذي الحديث رقم: (٢١٨٠)، وسنن ابن ماجه الحديث رقم: (٢٠١٨)، وضعفه ابن ماجه.

«أبغض المباح إلى الله الطلاق». ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب، ولكنه خاف أن يسلط الله عليه ألسنتهم وينالوا منه، فأخفاه حياء وحشمة وصيانة لعرضه، وذلك أنه روي[١]: أن النبي ﷺ كان حريصا على أن يطلق زيد زينب ليتزوجها هو ﷺ لقرابتها منه ولحسبها[٢]، فقال: أمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص عليها خوفا من كلام الناس لئلا يقولوا تزوج امرأة ابنه؛ إذ كان قد تبناه فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزويجها فقالت عائشة[٣]: «لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه» وقيل: إن الله كان أوحى إلى رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب بعد طلاق زيد، فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ما أعلمه الله به من ذلك. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ لم يذكر أحد من الصحابة في القرآن باسمه غير زيد بن حارثة، والوطر الحاجة قال ابن عطية[٤]: ويراد به هنا الجماع، والأحسن أن يكون أعم من ذلك أي لما لم يبق لزيد فيها حاجة زوجها الله من نبيه ﷺ وأسند الله تزويجها إليه تشريفا لها، ولذلك كانت زينب تفتخر على نساء النبي ﷺ وتقول: إن الله زوجني نبيه من فوق سبع سموات[٥] واستدل بعضهم بقوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ على أن الأولى أن يقال في كتاب الصداق أنكحه إياها بتقديم ضمير الزوج على ضمير الزوجة كما في الآية. ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ المعنى: أن الله زوج زينب امرأة زيد من رسول الله ﷺ ليعلم المؤمنون أن تزوج نساء أدعيائهم حلال لهم، فإن الأدعياء ليسوا لهم بأبناء في الحقيقة.

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢٠/٢٧٣.
(٢) في: (أ): (وحسنها).
(٣) الترمذي الحديث رقم: (٣٢٠٧) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.
(٤) المحرر الوجيز: ٤/٤٤٧.
(٥) تفسير مقاتل: ٣/٤٨.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ المعنى أن تزوج النبي ﷺ لزينب بعد زيد حلال، لا حرج فيه ولا إثم ولا عتاب، وفي ذلك رد على من تكلم في ذلك من المنافقين، وفرض هنا بمعنى قسم له. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ أي عادة الله في الأنبياء المتقدمين أن ينالوا ما أحل الله لهم، وقيل: الإشارة بذلك إلى داود في تزوجه للمرأة التي جرى له فيها ما جرى[1]، والعموم أحسن، ونصب سنة على المصدر أو على إضمار فعل أو على الإغراء.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا من قبل، وهم الأنبياء، أو رفع على إضمار مبتدإ، أو نصب بإضمار فعل.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ هذا رد على من قال في زيد بن حارثة زيد ابن محمد، فاعترض على النبي ﷺ تزوج امرأة زيد، وعموم النفي في الآية لا يعارضه وجود الحسن والحسين لأنه ﷺ ليس أبا لهما في الحقيقة؛ لأنهما ليسا من صلبه وإنما كانا ابني بنته، وأما ذكور أولاده فماتوا صغارا فليسوا من الرجال. ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي آخرهم فلا نبي بعده ﷺ، وقرئ[2] بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم فهو خاتم، وبالفتح بأنهم ختموا به فهو كالخاتم والطابع لهم.

فإن قيل: إن عيسى ينزل في آخر الزمان فيكون بعده عليه الصلاة والسلام؟ فالجواب: أن النبوءة أوتيت عيسى قبله عليه الصلاة والسلام، وأيضا فإن عيسى يكون

---

(١) سنعلق على ذلك في محله إن شاء الله.

(٢) قال ابن عطية: وقرأ عاصم وحده والحسن والشعبي والأعرج بخلاف: ﴿وخاتم﴾ بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتم والطابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور ﴿وخاتم﴾ بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم أي جاء آخرهم. المحرر الوجيز: ٤٤٨/٤، وقال: شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي: واختلف في ﴿وخاتم النبيئين﴾ فعاصم بفتح التاء اسم للآلة كالطابع والقالب، ووافقه الحسن، والباقون بكسرها اسم فاعل. إتحاف فضلاء البشر في القراآت الأربعة عشر: ٤٥٥/١.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

إذا نزل على شريعته عليه الصلاة والسلام، فكأنه واحد من أمته.

﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ اشترط الله الكثرة في الذكر حيثما أمر به بخلاف سائر الأعمال، والذكر يكون بالقلب وباللسان وهو على أنواع كثيرة، من التهليل، والتسبيح، والحمد، والتكبير، وذكر أسماء الله تعالى.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قيل: إن ذلك إشارة إلى صلاة الصبح والعصر، والأظهر أنه أمر بالتسبيح في أول النهار وآخره، وقال ابن عطية: أراد في كل الأوقات فحد النهار بطرفيه[1].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم﴾ هذا خطاب للمؤمنين وصلاة الله عليهم رحمة لهم، وصلاة الملائكة عليهم دعاؤهم لهم، فاستعمل لفظ يصلي في المعنيين على اختلافهما، وقيل: إنه على حذف مضاف، تقديره: وملائكته يصلون.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ قيل: يعني يوم القيامة، وقيل: في الجنة، وهو الأرجح لقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ويحتمل أن يريد تسليم بعضهم على بعض، أو قول الملائكة لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي يشهد على أمته.

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٤٤٩.

﴿وَدَاعِياً إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمر الله وإرساله. ﴿وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه الدين.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لا تؤذهم فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول، ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين بآية السيف.

والآخر: احتمل إذايتهم لك وأعرض عن أقوالهم فالمصدر على هذا مضاف للفاعل.

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية معناها: سقوط العدة عن المطلقة قبل الدخول، فالنكاح في الآية هو العقد، والمس هو الجماع وتعتدونها من العدد ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ هذا يقتضي متعة المطلقة قبل الدخول، سواء فرض لها أو لم يفرض لها صداق، وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾: يقتضي أن المطلقة قبل الدخول وقد فرض لها يجب لها نصف الصداق ولا متعة لها، وقد اختلف: هل هذه الآية ناسخة لآية البقرة أو منسوخة بها؟ ويمكن الجمع بينهما بأن تكون آية البقرة مبينة لهذه مخصصة لعمومها.

﴿يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أن المراد أزواجه اللاتي في عصمته حينئذ كعائشة وغيرها، وكان قد أعطاهن مهورهن.

والآخر: أن المراد جميع النساء فأباح الله له أن يتزوج كل امرأة يعطي مهرها وهذا أوسع من الأول.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أباح الله له مع الأزواج السراري بملك اليمين ويعني

بقوله: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ الغنائم. ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يعني قرابته من جهة أبيه ومن جهة أمه، وكان له عليه الصلاة والسلام أعمام وعمات إخوة لأبيه ولم يكن لأمه عليه الصلاة والسلام أخ ولا أخت، وإنما يعني بخاله وخالاته عشيرة أمه، وهم بنو زهرة، ولذلك كانوا يقولون: نحن أخوال رسول الله ﷺ. فمن قال إن المراد بقوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ من كانت في عصمته، فهو عطف عليهن وإباحة لأن يتزوج قرابته زيادة على من كان في عصمته، ومن قال: إن المراد جميع النساء فهو تجريد منهن على وجه التشريف، بعد دخول هؤلاء في العموم. ﴿ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ تخصيص تحرز به ممن لم يهاجر كالطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة[(١)]. ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أباح الله له ﷺ من وهبت له نفسها من النساء، واختلف هل وقع ذلك أم لا؟ فقال ابن عباس[(٢)]: لم تكن عند النبي ﷺ امرأة إلا بنكاح أو ملك يمين، لا بهبة نفسها، ويؤيد هذا قراءة الجمهور: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكسر الهمزة، أي إن وقع، وقيل: قد وقع ذلك وعلى هذا قرئ[(٣)]: أن وهبت بفتح الهمزة، واختلف على هذا القول فيمن هي التي وهبت نفسها؟، فقيل: ميمونة بنت الحارث، وقيل: زينب بنت خزيمة أم المساكين، وقيل: أم شريك الأنصارية، وقيل: أم شريك العامرية. ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هبة المرأة نفسها

---

(١) قال ابن عطية: روي: عن أم هاني بنت أبي طالب أنها قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم نزلت هذه الآية فحرمني عليه؛ لأني لم أهاجر معه وإنما كنت من الطلقاء. المحرر الوجيز: ٤/٤٥٣.

(٢) لم أجده مسندا.

(٣) قال الدمياطي: وعن الحسن: أن وهبت بفتح الهمزة بدل من امرأة بدل اشتمال أو على حذف لام العلة أي لأن. الإتحاف مصدر سابق. وقال ابن عطية: وقرأ الحسن البصري وأبي بن كعب والثقفي والشعبي أن وهبت بفتح الألف فهي إشارة إلى ما وقع من الهبات قبل نزول الآيات. المحرر الوجيز: ٤/٤٥٣.

ربع

• تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

مزية خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون غيره، وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب ليخص المخاطب وحده، وقيل: إن خالصة يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن سائر المؤمنين قصروا على أربع نسوة، وأبيح له عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك، ومذهب مالك أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد، بخلاف أبي حنيفة، وإعراب خالصة مصدر أو حال أو صفة لامرأة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني أحكام النكاح من الصداق والولي والاقتصار على أربع وغير ذلك. ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ يتعلق بالآية التي قبله أي قد بينا أحكام النكاح لئلا يكون عليك حرج، أو لئلا يظن بك أنك فعلت ما لا يجوز، وقال الزمخشري(١): يتعلق بقوله خالصة لك.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ معنى ترجي تؤخر وتبعد ومعنى تؤوي تضم وتقرب واختلف في المراد بهذا الإرجاء والإيواء، فقيل: إن ذلك في القسمة بينهن أي تكثر لمن شئت وتقلل لمن شئت، وقيل: إنه في الطلاق أي تمسك من شئت وتطلق من شئت، وقيل: معناه تتزوج من شئت وتترك من شئت، والمعنى على كل قول: توسعة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإباحة له أن يفعل ما يشاء، وقد اتفق الناقلون على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعدل في القسمة بين نسائه أخذا

---

(١) الكشاف: ٣/٥٦٠.

منه بأفضل الأخلاق مع إباحة الله له، والضمير في قوله منهن يعود على أزواجه ﷺ خاصة أو على كل ما أحل الله له على حسب الخلاف المتقدم. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: من كنت عزلته من نسائك فلا جناح عليك في رده بعد عزله.

والآخر: من ابتغيت ومن عزلت سواء في إباحة ذلك، فمن للتبعيض على القول الأول، وأما على القول الثاني فنحو قولك: من لقيك ومن لم يلقك سواء.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي إذا علمن أن هذا حكم الله قرت به أعينهن ورضين به وزال ما كان بهن من الغيرة، فإن سبب نزول هذه الآية ما وقع لأزواج النبي ﷺ من غيرة بعضهن على بعض.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا يحل لك النساء غير اللاتي في عصمتك الآن ولا تزيد عليهن قال ابن عباس[1]: لما خيرهن رسول الله ﷺ فاخترن الله ورسوله جازاهن الله على ذلك بأن حرم غيرهن من النساء كرامة لهن.

والقول الثاني: لا يحل لك النساء غير الأصناف التي سميت، والخلاف هنا يجري على الخلاف في المراد بقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أي لا يحل لك غير من ذكر حسبما تقدم، وقيل: معنى لا يحل لك النساء لا يحل لك اليهوديات والنصرانيات من بعد المسلمات المذكورات، وهذا بعيد.

واختلف في حكم هذه الآية، فقيل: إنها منسوخة بقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ على القول بأن المراد جميع النساء، وقيل: إن هذه الآية ناسخة لتلك على القول بأن المراد من كان في عصمته، وهذا هو الأظهر لما ذكر عن

(١) المحرر الوجيز: ٤/٤٥٥.

ابن عباس، ولأن التسع في حقه عليه الصلاة والسلام كالأربع في حق أمته.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ معناه: لا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتتزوج غيرها بدلا منها، وقيل: معناه ما كانت العرب تفعله من المبادلة في النساء بأن ينزل الرجل عن زوجته لرجل، وينزل الآخر له عن زوجته، وهذا ضعيف. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في هذا دليل على جواز النظر إلى المرأة إذا أراد الرجل أن يتزوجها. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ المعنى: أن الله أباح له الإماء، والاستثناء في موضع رفع على البدل من النساء، أو في موضع نصب على الاستثناء من الضمير في حسنهن.

﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ سبب هذه الآية ما رواه أنس[1] أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش أولم عليها، فدعا الناس فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت فثقل ذلك على النبي ﷺ، فخرج ليخرجوا بخروجه ومر على حجر نسائه ثم عاد فوجدهم في مكانهم، فانصرف فخرجوا عن ذلك، وقال ابن عباس: نزلت في قوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام فيقعدون إلى أن يطبخ ثم يأكلون ولا يخرجون، فأمروا أن لا يدخلوا حتى يؤذن لهم وأن ينصرفوا إذا أكلوا.

قلت: والقول الأول أشهر، وقول ابن عباس أليق بما في الآية من النهي عن

---

(١) البخاري في صحيحه الحديث رقم: (٤٥١٣)، ومسلم الحديث رقم: (٣٥٧٨)، ولفظه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِىُّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ - قَالَ - فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ مِنَ الْقَوْمِ. زَادَ عَاصِمٌ وَابْنُ عَبْدِ الأَعْلَى فِى حَدِيثِهِمَا قَالَ فَقَعَدَ ثَلاَثَةٌ وَإِنَّ النَّبِىَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا - قَالَ - فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِىَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا - قَالَ - فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ - قَالَ - وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا﴾.

الدخول حتى يؤذن لهم، فعلى قول ابن عباس في النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم، والقول الأول في النهي عن القعود بعد الأكل فإن الآية تضمنت الحكمين.

﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ﴾ أي غير منتظرين لوقت الطعام والإنا الوقت وقيل إنا الطعام نضجه وإدراكه يقال أنى يأنى إناء. ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ﴾ أمر بالدخول بعد الدعوة وفي ذلك تأكيد للنهي عن الدخول قبلها ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ﴾ أي انصرفوا قال بعضهم: هذا أدَبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]: حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم. ﴿وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ معطوف على غير ناظرين أو تقديره ولا تدخلوا مستأنسين، ومعناه النهي عن أن يطلبوا الجلوس للأنس بحديث بعضهم مع بعض أو يستأنسوا لحديث أهل البيت واستئناسهم تسمعهم وتجسسهم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ يعني جلوسهم للحديث، أو دخولهم بغير إذن. ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ تقديره: يستحيي من إخراجكم بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي إن إخراجكم حق لا يتركه الله. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ المتاع الحاجة من الأثاث وغيره وهذه الآية نزلت في احتجاب أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسببها[2] ما رواه أنس من قعود القوم يوم الوليمة في بيت زينب، وقيل: سببها أن عمر بن الخطاب أشار على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يحجب نساءه فنزلت الآية موافقة لقول عمر[3] قال

(١) في البحر المحيط: وعن عائشة، وابن عباس: حسبك في الثقلاء، أن الله لم يحتملهم: ٢٣٧/٧، وبعضهم يقول: ابن أبي عائشة، وبلفظ: أن الشرع، المحرر الوجيز: ٤٥٧/٤ قال القرطبي: وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. الجامع لأحكام القرآن: ٢٢٣/١٤، وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: قال حماد بن زيد وإسماعيل بن أبي حكيم: هذه الآية أدبٌ أدَّبَ اللهُ به الثقلاء، وقال ابنُ أبي عائشة: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. التحرير والتنوير: ٨٤/٢٢.

(٢) تقدم قريبا.

(٣) تقدم تخريجه.

• لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَانِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ • لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

بعضهم: لما نزلت في أمهات المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ كن لا يجوز للناس كلامهن إلا من وراء حجاب، ولا يجوز أن يروهن متنقبات ولا غير متنقبات، خصصن بذلك دون سائر النساء. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد أنقى من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، والنساء في أمر الرجال. ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُۥ﴾ سببها[1] أن بعض الناس قالوا لو مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، فحرم الله على الناس تزوج نسائه بعده كرامة له ﷺ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ الآية لما أوجب الله الحجاب أباح لهن الظهور لذوي محارمهن من القرابة وهم: الآباء، والأبناء، والإخوة، وأولادهم، وأولاد الأخوات. ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قيل: يريد بالنساء القرابة والمتصرفات لهن، وقيل: يريد جميع نساء المؤمنات، ويقوي الأول تخصيص النساء بالإضافة لهن، ويقوي الثاني أنهن كن لا يحتجبن من النساء على الإطلاق. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ واختلف فيمن أبيح لهن الظهور له من ملك اليمين، فقيل: الإماء دون

(١) قال أهل التفسير: لما نزلت آية الحجاب، ومنع الرجال من الدخول في بيوت النبي، قال رجل من الصحابة: ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا، والله لئن حدث أمر لأتزوجن عائشة، والأكثرون على أن القائل لهذا طلحة بن عبيد الله، وكان من رهط أبي بكر الصديق. تفسير السمعاني: ٣٠١/٤، وتفسير مقاتل: ٥٣/٣.

العبيد، وقيل: الإماء والعبيد، وهذا أولى بلفظ الآية، ثم اختلف من ذهب إلى هذا، فقال قوم: من ملكنه من العبيد دون من ملكه غيرهن، وهذا هو الظاهر من لفظ الآية، وقال قوم: جميع العبيد كن في ملكهن أو في ملك غيرهن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ هذه الآية تشريف للنبي ﷺ، وقد ذكرنا معنى صلاة الله وصلاة الملائكة، في قوله ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾. ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الصلاة على النبي ﷺ فرض إسلامي، فالأمر به محمول على الوجوب، وأقله مرة في العمر، وأما حكمها في الصلاة فمذهب الشافعي أنها فرض تبطل الصلاة بتركه، ومذهب مالك أنها سنة، وصفتها: ما ورد في الحديث الصحيح: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[١].

وقد اختلفت الروايات في ذلك اختلافا كثيرا، أما السلام على النبي ﷺ فيحتمل أن يريد السلام عليه في التشهد في الصلاة، أو السلام عليه حين لقائه، وأما السلام عليه بعد موته فقد قال ﷺ: «من سلم علي قريبا سمعته، ومن سلم علي بعيدا أبلغته، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[٢].

---

(١) لفظ البخاري: ... سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. الحديث رقم: (٥٩٩٦)، وبصيغ أخرى قريبة من هذه. وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (١٩٦٤).

(٢) عن أوس بن أوس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَومَ الجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالَ: قالوا: يَا رسول الله، وَكَيفَ تُعْرَضُ صَلاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟! قَالَ: يقولُ بَلِيتَ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ» قال النووي: رواه أَبُو داود بإسنادٍ صحيح. ورواه ابن ماجه في سننه الحديث رقم: (١٦٣٦) قال الشيخ الألباني: صحيح.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إذاية الله هي بالإشراك به ونسبة الصاحبة والولد له، وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى لأنه تعالى لا يضره شيء ولا ينفعه شيء وقيل إنها على حذف مضاف تقديره يؤذون أولياء الله والأول أرجح لأنه ورد في الحديث: «**يقول الله تعالى يشتمني ابن آدم وليس له أن يشتمني ويكذبني وليس له أن يكذبني أما شتمه إياي فقوله: إن لي صاحبة وولدا، وأما تكذيبه إياي فقوله: لا يعيدني كما بدأني**»[1] وأما إذاية رسول الله ﷺ فهي التعرض له بما يكره من الأقوال أو الأفعال، وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين أخذ صفية بنت حيي.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ الآية في البهتان وهو ذكر الإنسان بما ليس فيه، وهو أشد من الغيبة مع أن الغيبة محرمة وهي ذكره ما فيه مما يكره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ كان نساء العرب يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعيا إلى نظر الرجال إليهن فأمرهن الله بإدناء الجلابيب ليسترن بذلك وجوههن ويقع الفرق بين الحرائر والإماء، والجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار، وقيل: هو الرداء وصورة إدنائه عند ابن عباس: أن تلويه على وجهها حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقيل: أن تلويه حتى لا يظهر إلا عيناها، وقيل: أن تغطي نصف وجهها. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك أقرب إلى أن يعرف الحرائر من الإماء، فإذا عرف أن المرأة حرة لم تعارض بما تعارض به الأمة، وليس المعنى: أن تعرف المرأة حتى يعلم من هي؟ إنما المراد أن يفرق بينها وبين الأمة؛ لأنه كان بالمدينة إماء يعرفن بالسوء، وربما تعرض لهن السفهاء.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٠٢١)، وأحمد في مسنده الحديث رقم: (٩١١٤)، والنسائي الحديث رقم: ٢٠٧٨).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ الآية تضمنت وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا، وقيل: إنهم لم ينتهوا ولم ينفذ الوعيد عليهم، ففي ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد في الآخرة، وقيل: إنهم انتهوا وستروا أمرهم فكف عنهم إنفاذ الوعيد، والمنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه، وقيل: هم الزناة كقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قوم كانوا يشيعون أخبار السوء ويخوفون المسلمين، فيحتمل أن تكون هذه الأصناف متفرقة، أو تكون داخلة في جملة المنافقين، ثم جردها بالذكر. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي نسلطك عليهم وهذا هو الوعيد. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ ذلك لأنه ينفيهم أو يقتلهم، والضمير المجرور للمدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ يحتمل أن يريد إلا جوارا قليلا، أو وقتا قليلا، أو عددا قليلا منهم، والإعراب يختلف بحسب هذه الاحتمالات، فقليلا على الاحتمال الأول مصدر، وعلى الثاني ظرف، وعلى الثالث منصوب على الاستثناء.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الذم أو بدل من قليلا على الوجه الثالث، أو حال من ضمير الفاعل في يجاورونك، تقديره: سينفون ملعونين. ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ أي حيث ما ظفر بهم أسروا والأخذ الأسر.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي عادته ونصب على المصدر. ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ يعني المنافقين من الأمم المتقدمة، وقيل: يعني الكفار من بدر، لأنهم أسروا وقتلوا.

﴿تَكُونُ قَرِيباً﴾ إنما قال قريبا بالتذكير، والساعة مؤنثة على تقدير شيئا قريبا، أو زمانا قريبا، أو لأن تأنيثها غير حقيقي.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ العامل في يوم قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أو ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ أو محذوف، وتقليب وجوههم تصريفها في جهة النار كما تدور

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ۞ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

ثمن

البضعة[1] في القدر إذا غلت من جهة إلى جهة، أو تغيرها عن أحوالها.

﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ هم قوم من بني إسرائيل وإذايتهم له ما ورد في الحديث: «أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة وكان موسى يستتر منهم إذا اغتسل، فقالوا إنه آدر، فاغتسل موسى يوما وحده وجعل ثيابه على حجر، ففر الحجر بثيابه واتبعه موسى وهو يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، فمر في اتباعه على ملإ من بني إسرائيل فرأوه سليما مما قالوا»[2] فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ وقيل: إذايتهم له أنهم رموه بأنه قتل أخاه هارون، فبعث الله ملائكة فحملته حتى رآه بنو إسرائيل ليس فيه أثر فبرأ الله موسى، وروي: أنه حيي فأخبرهم ببراءة موسى، والقول الأول هو الصحيح لوروده في الحديث الصحيح[3].

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قيل: يعني لا إله إلا الله، واللفظ أعم من ذلك.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانة في الأموال، وقيل:

---

(١) قطعة اللحم.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة الحديث رقم: (٢٧٤)، ومسلم الحديث رقم: (٧٩٦)، والنسائي مع شرح السيوطي الحديث رقم: (٥١٠٤)، وسنن الترمذي الحديث رقم: (٣٧١٤).

(٣) تقدم قريبا.

غسل الجنابة، والصحيح العموم في التكاليف، وعرضها على السموات والأرض والجبال يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الله خلق لها إدراكا فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها.

والثاني: أن تكون على وجه المجاز، والمراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث أنها لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين من حملها وأشفقن منها، فهذا ضرب من المجاز كقولك: عرضت الحمل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله، والمراد أنها لا تقدر على حمله.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ أي التزم الإنسان القيام بالتكاليف مع شدة ذلك وصعوبته على الأجرام التي هي أعظم منه، ولذلك وصفه الله: بأنه ظلوم جهول، والإنسان هنا جنس، وقيل: يعني آدم، وقيل: قابيل الذي قتل أخاه.

﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ اللام للصيرورة، فإن حمل الأمانة كان سبب تعذيب المنافقين والمشركين ورحمة للمؤمنين.

❊❊ ❊❊ ❊❊

سُورَةُ سَبَإٍ (مكية) (ترتيبها ٣٤) (آياتها ٥٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) • وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)

ربع

سورة سبأ

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يحتمل أن يكون الحمد الأول في الدنيا والثاني في الآخرة، وعلى هذا حمله الزمخشري[1] ويحتمل عندي أن يكون الحمد الأول للعموم والاستغراق فجمع الحمد في الدنيا والآخرة، ثم جرد منه الحمد في الآخرة، كقوله: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ثم إن الحمد في الآخرة يحتمل أن يريد به الجنس، أو يريد به قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾.

﴿مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يدخل فيها من المطر، والأموات، وغير ذلك. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من المطر والملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يصعد ويرتفع من الأعمال وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ روي: أن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب. ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ أي لا يغيب ولا يخفى. ﴿وَلَا أَصْغَرُ﴾ معطوف على مثقال، وقال الزمخشري: هو مبتدأ لأن حرف الاستثناء من حروف العطف ولا خلاف بين القراء السبعة في رفع أصغر وأكبر في هذا الموضع، وقد حكى ابن

---

(١) الكشاف: ٣/٥٧٦.

عطية[1] الخلاف فيه عن بعض القراء السبعة، وإنما الخلاف في يونس. ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أو بقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ أو بمعنى قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ﴾ مبتدأ وخبره الجملة بعده، وقال ابن عطية[2]: هو معطوف على الذين الأول وقد ذكر في الحج معنى ﴿سَعَوۡ﴾ و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾. ﴿أَلِيمٞ﴾ بالرفع صفة لعذاب، وبالخفض صفة لرجز.

﴿وَيَرَى﴾ معطوف على ليجزي أو مستأنف وهذا أظهر. ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ هم الصحابة أو من أسلم من أهل الكتاب، أو على العموم. ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ مفعول ثان ليرى لأن الرؤيا هنا بالقلب بمعنى العلم، والضمير ضمير فصل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي قال بعضهم لبعض هل ندلكم على رجل؟ يعني محمدا ﷺ. ﴿يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ معنى مزقتم: أي بليتم في القبور وتقطعت أوصالكم، و﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مصدر، والخلق الجديد: هو الحشر في القيامة، والعامل في إذا معنى ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؛ لأن معناه تبعثون إذا مزقتم، وقيل: العامل فيه فعل مضمر مقدر قبلها، وذلك ضعيف، و﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ معمول ينبئكم وكسرت اللام التي في خبرها، ومعنى الآية: أن ذلك الرجل يخبركم أنكم تبعثون بعد أن بليتم في الأرض ومرادهم استبعاد الحشر.

---

(١) قال ابن عطية: وقرأ الجمهور: ﴿ولا أصغر ولا أكبر عطفا﴾ على قوله ﴿مثقال﴾ وقرأ نافع والأعمش وقتادة أصغر وأكبر بالنصب عطفا على ﴿ذرة﴾ ورويت عن أبي عمرو... المحرر الوجيز: ٤/٤٦٨.

(٢) المحرر الوجيز المصدر السابق.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا من جملة كلام الكفار، ودخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل، وبقيت الهمزة مفتوحة غير ممدودة. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ هذا رد عليهم أي أنه لم يفتر على الله كذبا، وليس به جنة بل هؤلاء الكفار في ضلال وحيرة عن الحق توجب لهم العذاب، ويحتمل أن يريد بالعذاب عذاب الآخرة، أو العذاب في الدنيا بمعاندة الحق ومحاولة ظهور الباطل.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الضمير في يروا للكفار المنكرين للبعث، وجعل السماء والأرض بين أيديهم وخلفهم؛ لأنهما محيطتان بهم، والمعنى: ألم يروا إلى السماء والأرض فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم، ويحتمل أن يكون المعنى تهديد لهم، ثم فسره بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أفلم يروا إلى السماء والأرض أنهما محيطتان بهم فيعلمون أنهم لا مهرب لهم من الله. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ الإشارة إلى إحاطة السماء والأرض بهم، أو إلى عظمة خلق السماء والأرض، فإن فيهما آية تدل على البعث.

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ تقديره: قلنا يا جبال، والجملة تفسير للفضل، ومعنى أوبي سبحي، وأصله من التأويب وهو الترجيع؛ لأنه كان يرجع التسبيح فترجعه معه، وقيل: هو من التأويب بمعنى السير بالنهار، وقيل: كان ينوح فتساعده الجبال

بصداها والطير بأصواتها. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب عطف على موضع يا جبال، وقيل: مفعول معه، وقيل: معطوف على فضلا، وقرئ[١] بالرفع عطف على لفظ يا جبال. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه له لينا بغير نار كالطين والعجين، وقيل: لان له الحديد لشدة قوته.

﴿سَابِغَاتٍ﴾ هي الدروع الكاسية. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ معنى السرد هنا نسج الدروع، وتقديرها: أن لا يعمل الحلقة صغيرة فتضعف، ولا كبيرة فيصاب لابسها من خلالها، وقيل: لا يجعل المسمار دقيقا ولا غليظا. ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ خطاب لداود وأهله.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ بالنصب على تقدير وسخرنا وقرئ[٢] بالرفع على الابتداء. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي كانت تسير به بالغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر، فكان يجلس على سريره وكان من خشب يحمل فيها روي: أربعة آلاف فارس فترفعه الريح ثم تحمله. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس[٣]: كانت تسيل له باليمين عين من نحاس يصنع منها ما أحب والقطر النحاس، وقيل: القطر الحديد والنحاس وما جرى مجرى ذلك كان يسيل له منه أربعة عيون، وقيل: المعنى أن الله أذاب له النحاس بغير نار كما صنع بالحديد لداود. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني نار الآخرة، وقيل: كان معه ملك يضربهم بسوط من نار.

﴿مَحَارِيبَ﴾ هي القصور، وقيل: المساجد، ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ قيل: إنها كانت

---

(١) قال ابن الجزري: وانفرد ابن مهران عن هبة الله بن جعفر عن أصحابه عن روح برفع الراء من (طير) وهي رواية زيد عن يعقوب ووردت عن عاصم وأبي عمرو. النشر: ٣٨٩/٢.

(٢) قال الداني: أبو بكر ﴿ولسليمان الريح﴾ بالرفع والباقون بالنصب التيسير، ص: ١١٨.

(٣) الطبري في جامع البيان: ٣٦٤/٢٠، ولفظه: عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يعني: عين النحاس أسيلت.

على غير صور الحيوان، وقيل: على صور الحيوان، وكان ذلك جائزا عندهم. ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي البركة التي يجتمع فيها الماء. ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي ثابتات في مواضعها لا يستطيع أحد أن ينقلها لعظمها. ﴿إِعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية ما قيل لآل داود، وانتصب شكرا على أنه مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال، تقديره: شاكرين أو مصدر من العمل لأن العمل شكر تقديره: اشكروا شكرا أو مفعول به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود، أو مخاطبة لمحمد ﷺ.

﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ المنسأة: هي العصا، وقرئ[1] بهمز وبغير همز و﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي الأرضة وهي السوسة التي تأكل الخشب وغيره وقصص الآية: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل قبة من قوارير وقام يصلي متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها، فبقي كذلك سنة لم يعلم أحد بموته حتى وقعت العصا فخر إلى الأرض واختصرنا كثيرا مما ذكره الناس في هذه القصة لعدم صحته. ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وما بعدها بدل من الجن، والمعنى: ظهر للناس أن الجن لا يعلمون الغيب، وقيل: تبينت بمعنى علمت، وأن وما بعدها مفعول به على هذا، والمعنى: علمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب وتحققوا أن ذلك بعد التباس الأمر عليهم، أو علمت الجن أن كبارهم لا يعلمون الغيب، وأنهم كاذبون في دعوى ذلك. ﴿فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يعني الخدمة التي كانوا يخدمون سليمان وتسخيره لهم في أنواع الأعمال، والمعنى: لو كانت الجن تعلم الغيب ما خفي عليهم موت سليمان.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ سبأ قبيلة من العرب سميت باسم

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو ﴿منساته﴾ غير مهموز، وقرأ الباقون ﴿منسأته﴾ مهموزة مفتوحة الهمزة. السبعة لابن مجاهد، ص: ٥٢٧.

• لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

أبيها الذي تناسلت منه، وقيل: باسم أمها، وقيل: باسم موضعها، والأول أشهر لأنه ورد في الحديث: «وكانت مساكنهم بين الشام واليمن»[1]. ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ كان لهم واد وكانت الجنتان عن يمينه وشماله وجنتان بدل من آية أو مبتدأ أو خبر مبتدإ محذوف. ﴿كُلُوا﴾ تقديره: قيل لهم كلوا من رزق ربكم قالت لهم ذلك الأنبياء، وروي أنهم بعث لهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي كثيرة الأرزاق طيبة الهواء سليمة من الهوام.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي أعرضوا عن شكر الله أو عن طاعة الأنبياء. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ كان لهم سد يمسك الماء ليرتفع فتسقى به الجنتان فأرسل الله على السد الجرذ وهي دويبة خربته فيبست الجنتان، وقيل: لما خرب السد حمل السيل الجنتين وكثير من الناس، واختلف في معنى ﴿الْعَرِمِ﴾ فقيل: هو السد، وقيل: هو اسم ذلك الوادي بعينه، وقيل: معناه الشديد فكأنه صفة للسيل من العرامة وقيل هو الجرذ الذي خرب السد، وقيل: المطر الشديد. ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأكل: بضم الهمزة المأكول، والخمط: شجر الأراك، وقيل: كل شجرة ذات شوك، والأثل شجر يشبه الطرفا، والسدر شجر معروف، وإعراب خمط بدل من أكل، أو عطف بيان وقرئ[2] بالإضافة وأثل عطف على

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٤٧٧.

(٢) ﴿أكل خمط﴾ قرأ البصريان ﴿أكل﴾ بالإضافة من غير تنوين، وقرأ الباقون بالتنوين. النشر: ٢/٣٩٠.

الأكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له، والمعنى: أنه لما أهلكت الجنتان المذكورتان، قيل: أبدلهم الله منها جنتين بضد وصفهما في الحسن والأرزاق.

﴿وَهَلْ يُجَٰزَىٰٓ إِلَّا ٱلْكَفُورُ﴾ معناه: لا يناقش ويجازى بمثل فعله إلا الكفور؛ لأن المؤمن قد يسمح الله له ويتجاوز عنه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ هذه الآية وما بعدها وصف حال سبإ قبل مجيء السيل وهلاك جناتهم، ويعني بالقرى التي باركنا فيها الشام، والقرى الظاهرة قرى متصلة من بلادهم إلى الشام، ومعنى ظاهرة يظهر بعضها من بعض لاتصالها، وقيل: مرتفعة في الآكام، وقال ابن عطية[1]: معناه خارجة عن المدن كما تقول بظاهر المدينة أي خارجها. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي قسمنا مراحل السفر وكانت القرى متصلة فكان المسافر يبيت في قرية ويصبح في أخرى، ولا يخاف جوعا ولا عطشا ولا يحتاج إلى حمل زاد، ولا يخاف من أحد.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرئ[2] باعد وبعد بالتخفيف والتشديد على وجه الطلب، والمعنى: أنهم بطروا النعمة وملوا العافية وطلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار، فعجل الله إجابتهم وقرئ[3] ﴿بَٰعِدْ﴾ بفتح العين على الخبر، والمعنى: أنهم قالوا إن الله باعد بين قراهم، وذلك كذب وجحد للنعمة. ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني بقولهم باعد بين أسفارنا أو بذنوبهم على الإطلاق. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم، قيل: تفرقوا أيدي سبا وفي الحديث: «إن سبا

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٤٨٠.

(٢) ﴿باعد﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بنصب الباء وكسر العين مشددة من غير ألف مع إسكان الدال، وقرأ الباقون.. بالألف والتخفيف. ٢/٢٨٩.

(٣) قال ابن عطية: وقرأ ابن عباس وأبو رجاء والحسن البصري وابن الحنفية أيضا «ربنا بالرفع باعد» بفتح العين والدال. المحرر الوجيز: ٤/٤٨١.

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ • قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

أبو عشرة من القبائل فلما جاء السيل على بلادهم تفرقوا فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة»[1].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي وجد ظنه فيهم صادقا يعني قوله لأغوينهم وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ تعجيز للمشركين وإقامة حجة عليهم ويعني بالذين زعمتم آلهتهم ومفعول زعمتم محذوف أي زعمتم أنهم آلهة أو زعمتم أنهم شفعاء، وروي أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشا. ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي نصيب والظهير المعين.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُۥ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ المعنى لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن الله له أن يشفع فإنه لا يشفع أحد إلا بإذنه، وقيل المعنى لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الله أن يشفع فيه. والمراد: أن الشفاعة على كل وجه لا تكون إلا بإذن الله ففي ذلك رد على المشركين الذين كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية في الملائكة عليهم السلام فإنهم إذا سمعوا الوحي إلى جبريل يفزعون لذلك فزعا عظيما، فإذا زال الفزع عن قلوبهم قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق، ومعنى فزع عن قلوبهم زال عنها الفزع، والضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ وفي ﴿قَالُوا﴾ للملائكة، فإن قيل: كيف ذلك

---

(١) لم أجده مسندا وهو في المحرر الوجيز: ٤/٤٨١.

ولم يتقدم لهم ذكر يعود الضمير عليه؟ فالجواب: أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فذكر الشفاعة يقتضي ذكر الشافعين، فعاد الضمير على الشفعاء الذين دل عليهم لفظ الشفاعة.

فإن قيل: بم اتصل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولأي شيء وقعت حتى غائية؟ فالجواب: أنه اتصل بما فهم من الكلام من أن ثم انتظارا للإذن في الشفاعة وفزعا وتوقفا حتى يزول الفزع بالإذن في الشفاعة، ويقرب هذا في المعنى من قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ولم يفهم بعض الناس اتصال هذه الآية بما قبلها، فاضطربوا فيها حتى قال بعضهم: هي في الكفار بعد الموت، ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ رأوا الحقيقة، فقيل لهم: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق، فيقرون حين لا ينفعهم الإقرار، والصحيح أنها في الملائكة لورود ذلك في الحديث[1] ولأن القصد الرد على الكفار الذين عبدوا الملائكة، فذكر شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ سؤال قصد به إقامة الحجة على المشركين. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب عن السؤال بما لا يمكن المخالفة فيه، فلذلك جاء السؤال والجواب من جهة واحدة. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق، وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر، حتى يعلم من

(١) في صحيح البخاري: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير،...» إلخ الحديث رقم: (٤٥٢٢)، ومسلم الحديث رقم: (٥٩٥٦)، وغيرهما.

هو على الحق ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ إخبار يقتضي مسالمة نسخت بالسيف.

﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يحكم والفتاح الحاكم.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ إقامة حجة على المشركين، والرؤية هنا رؤية قلب، فشركاء مفعول ثالث، والمعنى: أروني بالدليل والحجة من هم له شركاء عندكم؟ وكيف وجه الشركة؟ وقيل: هي رؤية بصر، وشركاء حال من المفعول في ألحقتم، كأنه قال: أين الذين تعبدون من دونه؟ وفي قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾ تحقير للشركاء، وازدراء بهم، وتعجيز للمشركين، وفي قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإشراك، وفي وصف الله بالعزيز الحكيم رد عليهم بأن شركاءهم ليسوا كذلك.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ المعنى أن الله أرسل محمدا ﷺ إلى جميع الناس، وهذه إحدى الخصال[1] التي أعطاه الله دون سائر الأنبياء، وإعراب كافة حال من الناس قدمت للاهتمام، هكذا قال ابن عطية، وقال الزمخشري: ذلك خطأ؛ لأن تقدم حال المجرور عليه لا يجوز، وتقديره عنده: وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس، فكافة صفة للمصدر المحذوف، وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والتبشير، فجعله حالا من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كالتاء في راوية وعلامة.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ يعني يوم القيامة، أو نزول العذاب بهم في الدنيا

---

(١) هي المذكورة في قوله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا؛ فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» البخاري الحديث رقم: (٣٢٨)، ومسلم الحديث رقم: (١١٩١)، وغيرهما.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

ثمن

وهو الذي سألوا عنه على وجه الاستخفاف فقالوا متى هذا الوعد.

﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل، وإنما قال الكفار هذه المقالة حين وقع عليهم الاحتجاج بما في التوراة من ذكر محمد ﷺ وقيل الذي بين يديه يوم القيامة وهذا خطأ وعكس لأن الذي بين يدي الشيء هو ما تقدم عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يتكلمون ويجيب بعضهم بعضا.

﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي كفرتم باختياركم لا بأمرنا.

﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المعنى: أن المستضعفين قالوا للمستكبرين بل مكركم بنا في الليل والنهار سبب كفرنا، وإعراب مكر مبتدأ وخبره محذوف، أو خبر ابتداء مضمر، وأضاف مكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع، ويحتمل أن يكون إضافة إلى المفعول أو إلى الفاعل على وجه المجاز، كقولهم: نهاره صيام، وليله قيام، أي يصام فيه ويقام، ودلت الإضافة على كثرة المكر ودوامه بالليل والنهار.

فإن قيل: لم أثبت الواو في قول الذين استضعفوا دون قول الذين استكبروا؟ **فالجواب**: أنه قد تقدم كلام الذين استضعفوا قبل ذلك فعطف عليه كلامهم الثاني، ولم يتقدم للذين استكبروا كلام آخر فيعطف عليه.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أخفوها في نفوسهم، وقيل: أظهروها، فهو من الأضداد، والضمير لجميع المستضعفين والمستكبرين.

﴿مُتْرَفُوهَا﴾ يعني أهل الغنى والتنعم في الدنيا، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء، والقصد بالآية تسلية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تكذيب أكابر قريش له.

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ الضمير لقريش أو للمترفين المتقدمين، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار يتضمن الرد عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله، فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي ويضيق على المؤمن والمطيع، وبالعكس، فليس في ذلك دليل على أمر الآخرة.

﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى القرب، كأنه قال: تقربكم قربى. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء من المفعول في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ والمعنى: أن الأموال لا تقرب إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، وقيل: الاستثناء منقطع، والأول أحسن. ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ يعني تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها فما فوق ذلك.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ الآية كررت لاختلاف القصد، فإن القصد بالأول على الكفار والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق. ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ الخلف قد يكون بمال أو بالثواب.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ براءة من أن يكون لهم رضا بعبادة المشركين لهم وليس في ذلك نفي لعبادتهم لهم. ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ عبادتهم للجن طاعتهم لهم في الكفر والعصيان، وقيل: كانوا يدخلون في جوف الأصنام فيعبدون بعبادتها، ويحتمل أن يكون قوم عبدوا الجن لقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ • قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

ربع

﴿وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ الآية في معناها وجهان:

أحدهما: ليس عندهم كتب تدل على صحة أقوالهم ولا جاءهم نذير يشهد بما قالوه، فأقوالهم باطلة إذ لا حجة لهم عليها، فالقصد على هذا رد عليهم.

والآخر: أنهم ليس عندهم كتب ولا جاءهم نذير، فهم محتاجون إلى من يعلمهم وينذرهم، ولذلك بعث الله إليهم محمدا ﷺ، فالقصد على هذا إثبات نبوءة محمد ﷺ.

﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ المعشار العشر، وقيل: عشر العشر، والأول أصح، والضمير في بلغوا لكفار قريش، وفي آتيناهم للكتب المتقدمة، أي أن هؤلاء لم يبلغوا عشر ما أعطى الله المتقدمين من القوة والأموال، وقيل: الضمير في بلغوا للمتقدمين، وفي آتيناهم لقريش، أي ما بلغ المتقدمون عشر ما أعطى الله هؤلاء من البراهين والأدلة، والأول أصح وهو نظير قوله: ﴿كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري يعني عقوبة الكفار المتقدمين، وفي ذلك تهديد لقريش.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بقضية واحدة تقريبا عليكم. ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ هذا تفسير القضية الواحدة، وأن تقوموا بدل أو عطف بيان أو خبر ابتداء مضمر، ومعناه أن تقوموا للنظر في أمر محمد ﷺ قياما خالصا لله تعالى، ليس فيه اتباع هوى ولا ميل، وليس المراد بالقيام هنا القيام على الرجلين إنما

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

المراد القيام بالأمر والجد فيه. ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ حال من الضمير في تقوموا والمعنى أن تقوموا اثنين اثنين للمناظرة في الأمر وطلب التحقيق وتقوموا واحدا واحدا لإحضار الذهن واستجماع الفكرة ثم تتفكروا في أمر محمد ﷺ فتعلموا أن ما به من جنة لأنه جاء بالحق الواضح ومع ذلك فإن أقواله وأفعاله تدل على رجاحة عقله ومتانة علمه وأنه بلغ في الحكمة مبلغا عظيما فيدل ذلك على أنه ليس بمجنون ولا مفتر على الله. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ متصل بما قبله على الأصح أي تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقيل هو استئناف.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا كما يقول الرجل لصاحبه إن أعطيتني شيئا فخذه وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد البراءة من عطائه وكذلك معنى هذا فهو كقولك قل ما أسألكم عليه من أجر.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ القذف الرمي ويستعار للإلقاء فالمعنى يلقي الحق إلى أصفيائه أو يرمي الباطل بالحق فيذهبه. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ خبر ابتداء مضمر أو بدل من الضمير في يقذف أو من اسم إن على الموضع.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الإسلام. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ الباطل الكفر ونفى الإبداء والإعادة على أنه لا يفعل شيئا ولا يكون له ظهور أو عبارة عن

ذهابه كقوله جاء الحق وزهق الباطل وقيل الباطل الشيطان.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يعني قربه تعالى بعلمه وإحاطته.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ جواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما أو معنى فزعوا أسرعوا إلى الهروب والفعل ماض بمعنى الاستقبال وكذلك ما بعده من الأفعال ووقت الفزع البعث وقيل الموت وقيل يوم بدر. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي لا يفوتون الله إذ هربوا. ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أومن ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا، أو من أرض بدر إلى القليب والمراد على كل قول سرعة أخذهم.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي قالوا ذلك عند أخذهم والضمير المجرور لله تعالى أو للنبي ﷺ أو للقرآن أو للإسلام. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ التناوش بالواو التناول إلا أن التناوش تناول قريب سهل لشيء قريب وقرئ[1] بهمز الواو؛ فيحتمل أن يكون المعنى واحدا ويكون المهموز بمعنى الطلب، ومعنى الآية استبعاد وصولهم إلى مرادهم والمكان البعيد عبارة عن تعذر مقصودهم فإنهم يطلبون ما لا يكون، أو يريدون أن يتناولوا ما لا ينالون وهو رجوعهم إلى الدنيا أو انتفاعهم بالإيمان حينئذ.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ الضمير يعود على ما عاد عليه قولهم آمنا به. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقذفون فعل ماض في المعنى معطوف على كفروا، ومعناه أنهم يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار، ويقولون في الرسول عليه الصلاة والسلام: إنه ساحر أو شاعر، والمكان البعيد هنا

---

(١) ﴿التناوش﴾ فأبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالهمز المضموم، مصدر تناءش من ناش تناول من بعد، والباقون بواو مضمومة بلا همز مصدر ناش أجوف. إتحاف فضلاء البشر ص/٤٦١.

عبارة عن بطلان ظنونهم وبعد أقوالهم عن الحق.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي حيل بينهم وبين دخول الجنة، وقيل: حيل بينهم وبين الانتفاع بالإيمان حينئذ، وقيل: حيل بينهم وبين نعيم الدنيا والرجوع إليها. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ يعني الكفار المتقدمين وجعلهم أشياعهم لاتفاقهم في مذاهبهم و﴿مِّن قَبْلُ﴾ يحتمل أن يتعلق بفعل أو بأشياعهم على حسب معنى ما قبله. ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ هو أقوى الشك وأشده إظلاما.

*** *** ***

سورة فاطر

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي وسائط بين الله وبين الأنبياء متصرفين في أمر الله. ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات للأجنحة، ولم ينصرف للعدل والوصف والمعنى: أن الملائكة منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة. ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قيل: يعني حسن الصوت، وقيل: حسن الوجه، وقيل: حسن الحظ، والأظهر أنه يرجع إلى أجنحة الملائكة، أو يكون على الإطلاق في كل زيادة في المخلوقين.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ الفتح عبارة عن العطاء والإمساك عبارة عن المنع، والإرسال الإطلاق بعد المنع، والرحمة كل ما يمن الله به على عباده من خيري الدنيا والآخرة، فمعنى الآية لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع الله، فإن قيل: لم أنث الضمير في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وذكره في قوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ وكلاهما يعود على ما الشرطية؟ فالجواب: أنه لما فسر من الأولى بقوله: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ أنثه لتأنيث الرحمة، وترك الآخر على الأصل من التذكير. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد إمساكه.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ رفع غير على الصفة لخالق على الموضع، وخفضه صفة على الرفع، ورزق السماء المطر، ورزق الأرض النبات. والمعنى تذكير بنعم الله وإقامة حجة على المشركين، ولذلك أعقبه بقوله لا إله إلا هو.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه، كأنه يقول: إن يكذبوك فلا تحزن لذلك، فإن الله سينصرك عليهم كما كذبت رسل من قبلك فنصرهم الله.

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان، وقيل: التسويف.

ثمن

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ • يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ توقيف، وجوابه محذوف، تقديره: أفمن زين له سوء عمله، كمن لم يزين له، ثم بني على ذلك ما بعده، فالذي زين له سوء عمله هو الذي أضله الله، ومن لم يزين له سوء عمله هو الذي هداه الله. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ تسلية للنبي ﷺ عن حزنه لعدم إيمانهم؛ لأن ذلك بيد الله.

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي الحشر، والمعنى: كما يحيي الله الأرض بالنبات كذلك يحيي الموتى.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الآية تحتمل ثلاثة معان:

أحدها: وهو الأظهر من كان يريد نيل العزة فليطلبها من عند الله فإن العزة كلها لله.

والثاني: من كان يريد العزة بمغالبة الإسلام فلله العزة جميعا، فالمغالب له مغلوب.

والثالث: من كان يريد أن يعلم لمن العزة فليعلم أن العزة لله جميعا.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قيل: يعني لا إله إلا الله، واللفظ يعم ذلك وغيره من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن وتعليم العلم، فالعموم أولى. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ضمير الفاعل في يرفعه الله، وضمير المفعول للعمل الصالح،

فالمعنى على هذا: أن الله يرفع العمل الصالح أي يتقبله ويثيب عليه.

والثاني: أن ضمير الفاعل للكلام الطيب، وضمير المفعول للعمل الصالح، والمعنى على هذا: لا يقبل عمل صالح إلا ممن له كلام طيب، وهذا يصح إن قلنا إن الكلم الطيب لا إله إلا الله؛ لأنه لا يقبل العمل إلا من موحد.

والثالث: أن ضمير الفاعل للعمل الصالح، وضمير المفعول للكلم الطيب، والمعنى على هذا: أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب، فلا يقبل الكلم إلا ممن له عمل صالح، روي هذا المعنى عن ابن عباس(١) واستبعده ابن عطية، وقال: لم يصح عنه لأن اعتقاد أهل السنة أن الله يتقبل من كل مسلم، قال: وقد يستقيم بأن يتأول أن الله يزيد في رفعه وحسن موقعه.

﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ لا يتعدى مكر فتأويله يمكرون المكرات السيئات فتكون السيئات مصدرا، أو تضمن يمكرون معنى يكتسبون فتكون السيئات مفعولا والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه. ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ البوار الهلاك أو الكساد، ومعناه هنا أن مكرهم يبطل ولا ينفعهم.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي أصنافا، وقيل: ذكرانا وإناثا، وهذا أظهر. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ التعمير طول العمر والنقص قصره، والكتاب اللوح المحفوظ.

فإن قيل: إن التعمير والنقص لا يجتمعان لشخص واحد، فكيف أعاد الضمير في قوله: ﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ على الشخص المعمر؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو الصحيح أن المعنى: ما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، فوضع من معمر موضع من أحد، وليس المراد شخصا واحدا، وإنما

(١) المحرر الوجيز: ٤/٤٩٦.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ اُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)

ربع

ذلك كقولك: لا يعاقب الله عبدا ولا يثيبه إلا بحق.

والثاني: أن المعنى لا يزاد في عمر إنسان ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، وذلك أن يكتب في اللوح المحفوظ أن فلانا إن تصدق فعمره ستون سنة، وإن لم يتصدق فعمره أربعون، وهذا ظاهر قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «صلة الرحم تزيد في العمر» إلا أن ذلك مذهب المعتزلة، القائلين بالأجلين، وليس مذهب الأشعرية، وقد قال كعب حين طعن عمر لو دعا الله لزاد في أجله[٢] فأنكر الناس عليه، فاحتج بهذه الآية.

والثالث: أن التعمير هو كتب ما يستقبل من العمر، والنقص هو كتب ما مضى منه في اللوح المحفوظ، وذلك في حق كل شخص.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ قد فسرنا البحرين الفرات والأجاج في الفرقان، وسائغ في النحل، والقصد بالآية التنبيه على قدرة الله ووحدانيته وإنعامه على عباده، وقال الزمخشري: المعنى أن الله ضرب للبحرين الملح والعذب مثلين للمؤمن والكافر، وهذا بعيد. ﴿لَحْماً طَرِيّاً﴾ يعني الحوت. ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني الجوهر والمرجان.

---

(١) البخاري في الأدب المفرد الحديث رقم: (٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان الحديث رقم: (٣٤٤٢)، وصححه الألباني.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٤٩٨.

فإن قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب، فكيف قال: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي كل واحد منهما؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ذلك تجوز في العبارة، كما قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والرسل إنما هي من الإنس.

الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر، فلما كانت الأنهار والمطر وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعا.

الثالث: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب، وهذا قول يبطله الحس.

﴿مَوَاخِرَ﴾ ذكر في النحل.

﴿يُولِجُ﴾ ذكر في لقمان. ﴿قِطْمِيرٍ﴾ هو القشر الرقيق الأبيض الذي على نوى التمر، والمعنى: أن الأصنام لا يملكون أقل الأشياء، فكيف أكثرها.

﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم، فالمصدر مضاف للفاعل، وكفر الأصنام بالشرك يحتمل أن يكون بكلام يخلقه الله عندها، أو بقرينة الحال. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر عالم، يعني نفسه تعالى، في إخباره أن الأصنام يكفرون يوم القيامة بمن عبدهم.

﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لجميع الناس، وإنما عرف الفقر بالألف واللام ليدل على اختصاص الفقر بجنس الناس، وإن كان غيرهم فقراء ولكن فقراء الناس أعظم، ثم وصف نفسه بأنه الغني في مقابلة وصفهم بالفقر، ووصفه بأنه الحميد ليدل على جوده وكرمه الذي يوجب أن يحمده عباده.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ الحمل عبارة عن الذنوب

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

والمثقلة الثقيلة الحمل أو النفس الكثيرة الذنوب، والمعنى: أنها لو دعت أحدا إلى أن يحمل عنها ذنوبها لم يحمل عنها، وحذف مفعول إن تدع لدلالة المعنى وقصد العموم، وهذه الآية بيان وتكميل لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ المعنى ولو كان المدعو ذا قربى ممن دعاه إلى حمل ذنوبه لم يحمل منه شيئا؛ لأن كل واحد يقول: نفسي نفسي. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم، وليس المعنى اختصاصهم بالإنذار. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في موضع حال من الفاعل في يخشون أي يخشون ربهم وهم غائبون عن الناس، فخشيتهم حق لا رياء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ تمثيل للكافر والمؤمن.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ تمثيل للكفر والإيمان.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ تمثيل للثواب والعقاب، وقيل: الظل الجنة والحرور النار، والحرور في اللغة شدة الحر بالنهار والليل، والسموم بالنهار خاصة.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تمثيل لمن آمن فهو كالحي ومن لم يؤمن فهو كالميت. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ عبارة عن هداية الله لمن يشاء. ﴿وَمَا

أنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ عبارة عن عدم سماع الكفار للبراهين والمواعظ، فشبههم بالموتى في عدم إحساسهم، وقيل: المعنى أن أهل القبور وهم الموتى حقيقة لا يسمعون، فليس عليك أن تسمعهم، وإنما بعثت للأحياء. وقد استدلت عائشة بالآية على أن الموتى لا يسمعون وأنكرت ما ورد في خطاب النبي ﷺ لقتلى بدر حين جعلوا في القليب(١) ولكن يمكن الجمع بين قولها وبين الحديث بأن الموتى في القبور إذا ردت إليهم أرواحهم إلى أجسادهم سمعوا، وإن لم ترد لم يسمعوا.

﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيئا يقيم عليهم الحجة.

فإن قيل: كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة، ألا ترى أن بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، لم يبعث فيها نبيء؟ فالجواب: أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم، فقامت عليهم الحجة.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؟ فالجواب: أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم، وأيضا فإن المراد بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أن نبوءة محمد ﷺ ليست ببدع، فلا ينبغي أن تنكر لأن الله أرسله كما أرسل من قبله، والمراد بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنهم محتاجون إلى

(١) حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاَثًا ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِى رَبِّى حَقًّا». فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا». ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِى قَلِيبِ بَدْرٍ. مسلم الحديث رقم: (٧٤٠٣)، وقد تقدم.

الإنذار لكونهم لم يتقدم من ينذرهم، فاختلف سياق الكلام، فلا تعارض بينهما.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الآية تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتأسي.

﴿نَكِيرِ﴾ ذكر في سبإ.

﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ يريد الصفرة والحمرة وغير ذلك من الألوان، وقيل: يريد الأنواع، والأول أظهر لذكره البيض والحمر والسود بعد ذلك، وفي الوجهين دليل على أن الله تعالى فاعل مختار يخلق ما يشاء ويختار، وفيه رد على الطبائعيين؛ لأن الطبيعة لا يصدر عنها إلا نوع واحد. ﴿جُدَدٌ﴾ جمع جدة وهي الخطط والطرائق في الجبال. ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد، وقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر لقصد التأكيد، ولأن ذلك كثيرا ما يأتي في كلام العرب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يتعلق بما قبله، فيتم الوقف عليه، والمعنى: أن من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه مثل الجبال المختلف ألوانها، والثمرات المختلف ألوانها، وذلك كله استدلال على قدرة الله وإرادته. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يعني العلماء بالله وصفاته وشرائعه علما يوجب لهم الخشية من عذابه، وفي الحديث[1]: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» لأن العبد إذا عرف الله خاف من عقابه وإذا لم يعرفه لم يخف منه فلذلك خص العلماء بالخشية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يقرؤون القرآن، وقيل: معنى يتلون يتبعون، والخبر ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ أو محذوف. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تكسد، ويعني بالتجارة طلب الثواب.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ توفية الأجور وهو ما يستحقه المطيع من الثواب،

---

(١) لم أجده مسندا وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٥٠٣.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾

والزيادة التضعيف فوق ذلك، وقيل: الزيادة النظر إلى وجه الله.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدم في البقرة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والتوريث عبارة عن أن الله أعطاهم الكتاب بعد غيرهم من الأمم. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب[1] وعائشة وأكثر المفسرين: هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقي، والمقتصد: بينهما، وقال الحسن[2]: السابق: من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه: من رجحت سيئاته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»[3] وقيل: الظالم: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التقي، فالضمير في منهم على هذا يعود على العباد، وأما على القول الأول فيعود على ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ وهو أرجح وأصح، لوروده في الحديث، وجلالة القائلين به.

---

(١) ينظر الطبري: ٢٠/٤٦٦.

(٢) البغوي في معالم التنزيل: ٦/٤٢٢، وتفسير الثعلبي رقم: (١٨٦٦).

(٣) الجامع الصغير الحديث رقم: (٦٩٤٤)، وضعفه الألباني.

فإن قيل: لم قدم الظالم ووسط المقتصد وأخر السابق؟ **فالجواب:** أنه قدم الظالم لنفسه رفقا به لئلا ييئس، وأخر السابق لئلا يعجب بنفسه وقال الزمخشري: قدم الظالم لكثرة الظالمين، وأخر السابق لقلة السابقين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى الاصطفاء.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الفضل، أو خبر مبتدإ تقديره: ثوابهم جنات عدن، أو مبتدأ تقديره: لهم جنات عدن. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ضمير الفاعل يعود على الظالم والمقتصد والسابق على القول بأن الآية في هذه الأمة، وأما على القول بأن الظالم هو الكافر فيعود على المقتصد والسابق خاصة، وقال الزمخشري: إنه يعود على السابق خاصة، وذلك على قول المعتزلة في الوعيد. ﴿أَسَاوِرَ﴾ ذكر في الحج.

﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قيل: هو عذاب النار، وقيل: أهوال القيامة، وقيل: الموت، وقيل: هموم الدنيا، والصواب: العموم في ذلك كله.

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ هي الجنة، والمقامة هي الإقامة والموضع، وإنما سميت الجنة دار المقامة؛ لأنهم يقومون فيها ولا يخرجون منها. ﴿نَصَبٌ﴾ النصب تعب البدن، واللغوب تعب النفس اللازم عن تعب البدن.

﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ يفتعلون من الصراخ، أي يستغيثون فيقولون: ربنا أخرجنا، وفي قولهم: غير الذي كنا نعمل اعتراف بسوء عملهم، وتندم عليه. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ الآية توبيخ لهم وإقامة حجة عليهم، وقيل: إن مدة التذكير ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: البلوغ، والأول أرجح لقول رسول الله ﷺ[1]: «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر». ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني النبي ﷺ، وقيل: يعني الشيب لأنه نذير بالموت، والأول أظهر.

---

(١) في صحيح البخاري عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة» الحديث رقم: (٦٠٥٦)، والمسند الحديث رقم: (٧٦٩٩).

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ • قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

ربع

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تضمره الصدور وتعتقده، وقال الزمخشري: ذات هنا تأنيث ذو بمعنى صاحب؛ لأن المضمرات تصحب الصدور.

﴿خَلَـٰٓئِفَ﴾ ذكر في الأنعام.

﴿مَقْتًا﴾ المقت احتقار الإنسان وبغضه من أجل عيوبه أو ذنوبه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ الآية احتجاج على المشركين وإبطال لمذهبهم. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي نصيب. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ أي على أمر جلي، والضمير في ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ يحتمل أن يكون للأصنام أو للمشركين وهذا أظهر في المعنى، والأول أليق بما قبله من الضمائر.

﴿أَن تَزُولَا﴾ في موضع مفعول من أجله، تقديره: كراهة أن تزولا، أو مفعول به لأن يمسك بمعنى يمنع. ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ أي لو فرض زوالهما لم يمسكهما أحد، وقيل: أراد زوالهما يوم القيامة عند طي السماء وتبديل الأرض ونسف الجبال. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد تركه الإمساك.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ الضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى جاءتهم الرسل فكذبوهم، والله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى منهم. ﴿إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني اليهود والنصارى. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم.

﴿اسْتِكْبَارًا﴾ بدل من نفورا، أو مفعول من أجله. ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ هذا من

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سورة يس

ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثمن

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: مسجد الجامع، وجانب الغربي، والأصل أن يقال: المكر السيئ. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي لا يحيط وبال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبره، وقال كعب لابن عباس[1]: إن في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فقال ابن عباس: أنا أجد هذا في كتاب الله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هل ينتظرون إلا عادة الأمم المتقدمة في أخذ الله لهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا يفوته شيء ولا يصعب عليه.

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الضمير للأرض، والدابة عموم في كل ما يدب، وقيل: أراد بني آدم خاصة. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة وباقي الآية وعد ووعيد.

*** *** ***

(١) المحرر الوجيز: ٤/٥١٠.

سورة يس

قد تكلمنا في البقرة على حروف الهجاء، وقيل: في يس إنه من أسماء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: معناه يا إنسان.

﴿تَنزِيلَ﴾ بالرفع[1] خبر ابتداء مضمر، وبالنصب مصدر، أو مفعول بفعل مضمر.

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً﴾ هم قريش، ويحتمل أن يدخل معهم سائر العرب وسائر الناس. ﴿مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ما نافية، والمعنى لم يرسل إليهم ولا لآبائهم رسول ينذرهم، وقيل: المعنى لتنذر قوما مثل ما أنذر آباؤهم، فما على هذا موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية، والأول أرجح لقوله: ﴿فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ يعني أن غفلتهم بسبب عدم إنذارهم، وتكون بمعنى قوله: ﴿مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ولا يعارض هذا بعث الأنبياء المتقدمين، فإن هؤلاء القوم لم يدركوهم ولا آباؤهم الأقربون.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي سبق القضاء.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً﴾ الآية فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها عبارة عن تماديهم على الكفر ومنع الله لهم من الإيمان، فشبههم بمن جعل في عنقه غل يمنعه من الالتفات، وغطى على بصره، فصار لا يرى.

والثاني: أنها عبارة عن كفهم عن إذاية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أراد أبو جهل أن يرميه بحجر، فرجع عنه فزعا مرعوبا.

والثالث: أن ذلك حقيقة في حالهم في جهنم، والأول أظهر وأرجح لقوله قبلها: ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله بعدها: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) ﴿تنزيل العزيز﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بنصب اللام، وقرأ الباقون برفعها. النشر ٣/٣٩٢.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ الذقن هي طرف الوجه حيث تنبت اللحية، والضمير للأغلال، وذلك أن الغل حلقة في العنق فإذا كان واسعا عريضا وصل إلى الذقن فكان أشد على المغلول، وقيل: الضمير للأيدي على أنها لم يتقدم لها ذكر، ولكنها تفهم من سياق الكلام، لأن المغلول تضم يداه في الغل إلى عنقه، وفي مصحف ابن مسعود[1]: إنا جعلنا في أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان، وهذه القراءة تدل على هذا المعنى، وقد أنكره الزمخشري[2].

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يقال: قمح البعير إذا رفع رأسه، وأقمحه غيره: إذا فعل به ذلك، والمعنى أنهم لما اشتدت الأغلال حتى وصلت إلى أذقانهم اضطرت رؤوسهم إلى الارتفاع، وقيل: معنى مقمحون ممنوعون من كل خير.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ الآية السد الحائل بين الشيئين وذلك عبارة عن منعهم من الإيمان ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي غطينا على أبصارهم وذلك أيضا مجاز يراد به إضلالهم.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية ذكرنا معناها وإعرابها في البقرة.

---

(١) الذي في الطبري: ٢٠/٤٩٣ عن عبد الله بن مسعود (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ) وجاء بها بصيغة التمريض، (فيما ذكر) وقال ابن عطية: وروي أن في مصحف ابن مسعود وأبي «إنا جعلنا في أيمانهم وفي بعضها في أيديهم» المحرر الوجيز: ٤/٥١٣.

(٢) قال الزمخشري: فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل ما كان جامعاً لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كأن ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي؟ قلت: الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله: (فَهُم مُّقْمَحُونَ) ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله: (فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ) ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك الحق الأبلج إلى الباطل اللجلج. فإن قلت: فقد قرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (في أيديهم) وابن مسعود: (في أيمانهم)، فهل تجوّز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للأيمان؟ قلت: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال، وسداد المعنى عليه كما ذكرت. الكشاف: ٤/٧.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا من اتبع الذكر وهو القرآن. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ معناه كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ وقد ذكرناه في فاطر ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي نبعثهم يوم القيامة، وقيل: إحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، والأول أظهر.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ أي: ما قدموا من أعمالهم وما تركوه بعدهم كعلم علموه أو تحبيس حبسوه، وقيل: الآثار هنا الخطى إلى المساجد، وجاء ذلك في الحديث[1]. ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ، أو صحائف الأعمال.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ الضمير لقريش و﴿مَّثَلًا﴾ و﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعولان بـ(اضرب) على القول بأنها تتعدى إلى مفعولين وهو الصحيح، والقرية: أنطاكية. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ هم من الحواريين الذين أرسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام يدعون الناس إلى عبادة الله، وقيل: بل هم رسل أرسلهم الله، ويدل على

---

(١) عن جابر ابن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد قال: والبقاع خالية، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، وفي رواية أبي سعيد الخدري: شكت بنو سلمة بعد منازلهم إلى النبي ﷺ، فنزلت ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فقال: عليكم منازلكم تكتب آثاركم، انظر صحيح مسلم الحديث رقم: (٦٦٥)، والمسند الحديث رقم: (١٥٢٣١)، والطبري: ٤٢٩/١٠، وتفسير ابن كثير: ٧٤٤/٣، والقرطبي: ١٥/١٥.

هذا قول قومهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فإن هذا إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قوينا الاثنين برسول ثالث، قيل: اسمه شمعون.

﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ إنما أكدوا الخبر هنا باللام لأنه جواب للمنكرين بخلاف الموضع الأول فإنه إخبار مجرد.

﴿قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم وأصل اللفظة من زجر الطير ليستدل على ما يكون من شر أو خير، وإنما تشاءموا بهم لأنهم جاؤوهم بدين غير دينهم، وقيل: وقع فيهم الجذام لما كفروا، وقيل: قحطوا.

﴿قَالُواْ طَآئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قال الرسل لأهل القرية شؤمكم معكم، أي إنما الشؤم الذي أصابكم بسبب كفركم لا بسببنا. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف الشرط، وفي الكلام حذف تقديره: أتطيرون أن ذكرتم.

﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يسرع بجده ونصيحته، وقيل: اسمه حبيب النجار.

﴿اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي هؤلاء المرسلون لا يسألونكم أجرة على الإيمان فلا تخسرون معهم شيئا من دنياكم، وتربحون معهم الاهتداء في دينكم.

﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ المعنى أي شيء يمنعني من عبادة ربي وهذا توقيف وإخبار عن نفسه قصد به البيان لقومه ولذلك قال وإليه ترجعون فخاطبهم.

﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ هذا وصف للآلهة والمعنى: كيف أتخذ من دون الله آلهة لا يشفعون ولا ينقذونني من الضر.

﴿إِنِّيَ إِذاً لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن اتخذت آلهة غير الله فإني لفي ضلال مبين.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ خطاب لقومه أي اسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي، وقيل: خطاب للرسل ليشهدوا له.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ قيل: هنا محذوف يدل عليه الكلام، وروي في الأثر[1] وهو أن الرجل لما نصح قومه قتلوه، فلما مات قيل له ادخل الجنة، واختلف هل دخلها حين موته كالشهداء أو هل ذلك بمعنى البشارة بالجنة ورؤيته لمقعده منها. ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ تمنى أن يعلم قومه بغفران الله له على إيمانه فيؤمنون، ولذلك ورد في الحديث[2] أنه نصح لهم حيا وميتا، وقيل: أراد أن يعلموا ذلك فيندموا على فعلهم معه ويجزئهم[3] ذلك.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المعنى أن الله أهلكهم بصيحة صاحها جبريل، ولم يحتج في تعذيبهم إلى إنزال جند من السماء لأنهم أهون من ذلك، وقيل: المعنى ما أنزل الله على قومه ملائكة رسلا كما قالت قريش: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ولفظ الجند أليق بالمعنى الأول، وكذلك ذكر الصيحة بعد ذلك. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما كنا لننزل جندا من السماء على أحد.

﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ساكنون لا يتحركون ولا ينطقون.

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠/٣١٩٢.

(٢) لم نجد هذا الحديث في كتب السنة وهو في تفسير الكشاف بلفظ: «وفي حديث مرفوع نصح قومه حياً وميتاً» ولم يذكر له سندا ٤/١٠.

(٣) في المطبوعات وينفعهم ذلك.

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ﴾ نداء للحسرة، كأنه قيل: يا حسرة احضري فهذا وقتك، وهذا التفجع عليهم استعارة في معنى التهويل والتعظيم لما فعلوا من استهزائهم بالرسل، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة أو المؤمنين من الناس، وقيل: المعنى يا حسرة العباد على أنفسهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الضمير لقريش أو للعباد على الإطلاق، والرؤية هنا بمعنى العلم.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قرئ[1] لما بالتخفيف وهي لام التأكيد دخلت على ما المزيدة وإن على هذا مخففة من الثقيلة وقرئ بالتشديد وهي بمعنى إلا وإن على هذا نافية.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۖ﴾ ما معطوفة على ثمره أي ليأكلوا من الثمر وما عملته أيديهم بالحرث والزراعة والغراسة، وقيل: ما نافية، وقرئ[2] ما عملت من غير هاء وما على هذا معطوفة.

﴿ٱلْأَزْوَاجَ﴾ يعني أصناف المخلوقات ثم فسرها بقوله مما تنبت الأرض وما بعده فمن في المواضع الثلاثة للبيان. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أشياء لا يعلمها بنو آدم كقوله ويخلق ما لا تعلمون.

﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نجرده منه وهي استعارة.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أي لحد موقت تنتهي إليه من فلكها وهي نهاية جريها إلى أن ترجع في المنقلبين: الشتوي والصيف، وقيل: مستقرها وقوفها

---

(١) ﴿لما جميع﴾ شددها ابن عامر وعاصم وحمزة وابن جماز. النشر: ٣٢٨/٢.

(٢) ﴿وما عملته أيديهم﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عملت بغير هاء ضمير، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وقرأ الباقون بالهاء، ووصلها ابن كثير على أصله وهو في مصاحفهم كذلك. المصدر السابق.

كل وقت زوال بدليل وقوف الظل حينئذ، وقيل: مستقرها يوم القيامة حين تكور، وفي الحديث[١]: «مستقرها تحت العرش» تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها، وهذا أصح الأقوال لوروده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح، وقرئ:[٢] لا مستقر لها، أي لا تستقر عن جريها.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قرئ[٣] بالرفع على الابتداء أو عطف على الليل وبالنصب على إضمار فعل ولا بد في قدرناه من حذف تقديره قدرنا سيره منازل ومنازل القمر ثمانية وعشرون ينزل القمر كل ليلة واحدة منها من أول الشهر ثم يستتر في آخر الشهر ليلة أو ليلتين، وقال الزمخشري[٤]: وهذه المنازل هي مواضع النجوم وهي: السرطان البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العوى، السماك، الغفر، الزبنان، الاكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد بلع، سعد الذابح، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، بطن الحوت. ﴿حَتَّىٰ عَادَ

---

(١) البخاري: (٦٩٩٦)، ومسلم الحديث رقم: (٤١٨)، ولفظه: عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَتَدْرُونَ مَتَى ذاكُمْ ذَاكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا».

(٢) قال ابن كثير: وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لا مُسْتَقَرَّ لَهَا» أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلا ونهارًا، لا تفتر ولا تقف. تفسير القرآن العظيم: ٦/٥٧٧.

(٣) ﴿والقمر قدرناه﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وروح برفع الراء وقرأ الباقون بنصبها. النشر: ٢/٣٩٣.

(٤) الكشاف ٤/١٩.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ • وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ العرجون هو غصن النخلة شبه القمر به إذا انتهى في نقصانه، والتشبيه في ثلاثة أوصاف، وهي: الرقة، والانحناء، والصفرة، ووصفه بالقديم لأنه حينئذ تكون له هذه الأوصاف.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ المعنى: لا يمكن الشمس أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، وهكذا قال بعضهم: ويحتمل أن يريد أن سير الشمس في الفلك بطيء فإنها تقطع الفلك في سنة، وسير القمر سريع فإنه يقطع الفلك في شهر والبطيء لا يدرك السريع. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني أن كل واحد منهما جعل الله له وقتا موقتا واحدا معلوما لا يتعداه، فلا يأتي الليل حتى ينفصل النهار، كما لا يأتي النهار حتى ينفصل الليل، ويحتمل أن يريد أن آية الليل وهي القمر لا تسبق آية النهار وهي الشمس، أي لا تجتمع معه فيكون المعنى كالذي قيل في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فحصل من ذلك أن الشمس لا تجتمع مع القمر، وأن القمر لا يجتمع مع الشمس. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ذكر في الأنبياء.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ معنى المشحون المملوء والفلك هنا يحتمل أن يريد به جنس السفن أو سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما الذرية فقيل: إنه يعني الآباء الذين حملهم الله في سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسمى الآباء ذرية لأنها تناسلت منهم، وأنكر ابن عطية ذلك، وقيل: يعني النساء وذلك بعيد،

والأظهر أنه إن أراد بالفلك جنس السفن فيعني جنس بني آدم، وإنما خص ذريتهم بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة، وإن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بالذرية من كان في السفينة، وسماهم ذرية لأنهم ذرية آدم ونوح، فالضمير في ذريتهم على هذا النوع بني آدم كأنه يقول: الذرية منهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أراد بالفلك سفينة نوح، فيعني بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ سائر السفن التي يركبها سائر الناس، وإن أراد بالفلك جنس السفن فيعني بقوله من مثله الإبل وسائر المركوبات، فتكون المماثلة على هذا في أنه مركوب لا غير، والأول أظهر لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ ولا يتصور هذا في المركوبات غير السفن.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم ولا منقذ لهم من الغرق.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ قال الكسائي: نصب رحمة على الاستثناء، كأنه قال: إلا أن نرحمهم، وقال الزجاج: نصب رحمة على المفعول من أجله، كأنه قال: إلا لأجل رحمتنا إياهم. ﴿وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الضمير لقريش، وجواب إذا محذوف، تقديره: أعرضوا يدل عليه: ﴿إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ والمراد بما بين أيديهم وما خلفهم ذنوبهم المتقدمة والمتأخرة، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ عذاب الأمم المتقدمة ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ عذاب الآخرة.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ كان النبي ﷺ والمؤمنون يحضون الناس على الصدقات وإطعام المساكين، فيجيبهم الكفار بهذا الجواب، وفي معناه قولان:

أحدهما: أنهم قالوا: كيف نطعم المساكين؟ ولو شاء الله أن يطعمهم لأطعمهم، ومن حرمهم الله نحن نحرمهم، وهذا كقولهم: كن مع الله على المدبر.

والآخر: أن قولهم رد على المؤمنين، وذلك أن المؤمنين كانوا يقولون: إن الأمور كلها بيد الله، فكأن الكفار يقولون لهم: لو كان كما تزعمون لأطعم الله هؤلاء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا، ومقصدهم في الوجهين احتجاج لبخلهم ومنعهم الصدقات، واستهزاء بمن حضهم على الصدقات.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم خطابا للمؤمنين أو يكون من كلام الله خطابا للكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعنون يوم القيامة، أو نزول العذاب بهم.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهي النفخة الأولى في الصور، وهي نفخة الصعق. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يتكلمون في أمورهم، وأصل يخصمون يختصمون ثم أدغم وقرئ[1] بفتح الخاء وبكسرها واختلاس حركتها.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يقدرون أن يوصوا بما لهم وما عليهم لسرعة الأمر. ﴿وَلاَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يستطيعون أن يرجعوا إلى منازلهم لسرعة الأمر.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ هذه النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور، والأجداث هي القبور، وينسلون يسرعون

(١) قال الداني: ابن كثير وورش وهشام ﴿يخصمون﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد وقالون وأبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد، والنص عن قالون بإسكان وحمزة بإسكان الخاء وتخفيف الصاد، والباقون وهم عاصم وابن ذكوان والكسائي بكسر الخاء، وتشديد الصاد. التيسير، ص: ١٢٠.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠)

ربع

المشي، وقيل: يخرجون.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ الويل منادى أو مصدر. ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ المرقد يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان، قال أبي بن كعب ومجاهد: إن البشر ينامون نومة قبل الحشر، قال ابن عطية[1]: هذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في معنى قولهم: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أنها استعارة وتشبيه به، يعني أن قبورهم شبهت بالمضاجع لكونهم فيها على هيئة الرقاد وإن لم يكن رقاد في الحقيقة. ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا مبتدأ وما بعده خبر وقيل إن هذا صفة لمرقدنا وما وعد الرحمن مبتدأ محذوف الخبر وهذا ضعيف ويحتمل أن يكون هذا الكلام من بقية كلامهم أو من كلام الله أو الملائكة أو المؤمنين يقولونها للكفار على وجه التقريع.

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني النفخة الثانية وهي نفخة القيام.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ قيل هو افتضاض الأبكار وقيل سماع الأوتار والأظهر أنه عام في الاشتغال باللذات. ﴿فَٰكِهُونَ﴾ قرئ بالألف ومعناه أصحاب فاكهة وبغير ألف[2] وهو من الفكاهة بمعنى الراحة والسرور.

﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل وبالضم جمع ظلة. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرير.

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٥٢٦.

(٢) ﴿فاكهون﴾ قرأ أبو جعفر بغير ألف بعد الفاء. النشر: ٢/٣٩٤.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ما يتمنون، وقيل معناه أن ما يدعون به يأتيهم.

﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، وقيل: بدل مما يدعون. ﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكد والمعنى أن السلام عليهم قول من الله بواسطة الملك، أو بغير واسطة.

﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة. ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ الجبل الأمة العظيمة، وقال الضحاك: أقلها عشرة آلاف، ولا نهاية لأكثرها، وقرئ[1] بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وبضمهما مع التخفيف وبضم الجيم وإسكان الباء، وهي لغات بمعنى واحد. ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي نمنعهم من الكلام فتنطق أعضاؤهم يوم القيامة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ هذا تهديد لقريش، والطمس على الأعين هو العمى، والصراط الطريق، وأنى استفهام يراد به النفي، فمعنى الآية لو نشاء لأعميناهم فلو راموا أن يمشوا على الطريق لم يبصروه، وقيل: يعني عمي البصائر أي لو نشاء لختمنا على قلوبهم فالطريق على هذا استعارة بمعنى الإيمان والخير.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ هذا تهديد بالمسخ، فقيل: معناه المسخ قردة وخنازير وحجارة، وقيل: معناه لو نشاء لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفا، وقيل: إن هذا التهديد كله بما يكون يوم القيامة، والأظهر أنه في الدنيا. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ المكانة المكان، والمعنى: لو نشاء لمسخناهم مسخا يقعدهم في مكانهم. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي نحول خلقته من القوة إلى الضعف ومن الفهم إلى البله وشبه ذلك كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾

(١) نافع وعاصم ﴿جبلا كثيرا﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وأبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام، والباقون كذلك، غير أنهم ضموا الباء. التيسير، ص: ١٢٠.

وإنما قصد بذكر ذلك هنا للاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم.

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ الضميران لمحمد ﷺ، وذلك رد على الكفار في قولهم: إنه شاعر، وكان ﷺ لا ينظم الشعر ولا يزنه، وإذا ذكر بيت شعر كسر وزنه، **فإن قيل**: قد روي عنه ﷺ أنه قال:

أنـــا النبـــي لا كـــذب أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب

وروي أيضا عنه ﷺ:

هـــل أنـــت إلا أصـــبع دميـــت وفـــي ســـبيل الله مـــا لقيـــت

وهذا الكلام على وزن الشعر، **فالجواب**: أنه ليس بشعر وأنه لم يقصد به الشعر وإنما جاء موزونا بالاتفاق لا بالقصد فهو كالكلام المنثور ومثل هذا يقال في مثل ما جاء في القرآن من الكلام الموزون ويقتضي قوله: وما ينبغي له، تنزيه النبي ﷺ عن الشعر لما فيه من الأباطيل وإفراط التجاوز، حتى يقال: إن الشعر أطيبه أكذبه، وليس كل الشعر كذلك فقد قال ﷺ: «**إن من الشعر لحكمة**»[1]، وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه وإنما الإنصاف قول الشافعي: الشعر كلام، والكلام منه حسن ومنه قبيح. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ الضمير للقرآن يعني أنه ذكر لله أو تذكير للناس أو شرف لهم.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي حي القلب والبصيرة. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي يجب عليهم العذاب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ مقصد الآية تعديد النعم وإقامة الحجة والأيدي هنا عند أهل التأويل عبارة عن القدرة وعند أهل التسليم من المتشابه الذي يجب الإيمان به وعلمه عند الله.

(١) سنن ابن ماجه الحديث رقم: (٣٧٥٥).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ • أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الركوب بفتح الراء هو المركوب.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ يعني الأكل منها والحمل عليها والانتفاع بالجلود والصوف وغيره. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني الألبان.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ الضمير في يستطيعون للأصنام وفي نصرهم للمشركين، ويحتمل العكس ولكن الأول أرجح فإنه لما ذكر أن المشركين اتخذوا الأصنام لعلهم ينصرون، أخبر أن الأصنام لا يستطيعون نصرهم، فخاب أملهم. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ الضمير الأول للمشركين والثاني للأصنام، يعني أن المشركين يخدمون الأصنام ويتعصبون لهم حتى أنهم لهم كالجند، وقيل: بالعكس، بمعنى أن الأصنام جند محضرون لعذاب المشركين في الآخرة، والأول أرجح لأنه تقبيح لحال المشركين.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تسلية للنبي ﷺ معللة لما بعدها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة براهين على الحشر يوم القيامة، ورد على من أنكر ذلك، والنطفة هي نطفة المني التي خلق الإنسان منها، ولا شك أن الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث، وسبب الآية: أن العاصي بن وائل جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقال: يا محمد من يحيي هذا؟ وقيل: إن الذي جاء بالعظم أمية بن خلف، وقيل: أبي بن خلف فقال له رسول الله ﷺ:

«الله يحييه ويميتك ثم يحييك ويدخلك جهنم»[1]. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي متكلم قادر على الخصام يبين ما في نفسه بلسانه.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ إشارة إلى قول الكافرين من يحيي هذا العظم. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي نسي الاستدلال بخلقته الأولى على بعثه، والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول أو الترك. ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي بالية متفتتة.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ استدلال بالخلقة الأولى على البعث. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق كل شيء فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد فنائها، والخلق هنا يحتمل أن يكون مصدرا أو بمعنى المخلوق.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾ هذا دليل آخر على إمكان البعث، وذلك أن الذين أنكروه من الكفار والطبائعيين قالوا: طبع الموت يضاد طبع الحياة، فكيف تصير العظام حية؟ فأقام الله عليهم الدليل بخروج النار من الشجر الأخضر الممتلئ ماء مع مضادة طبع الماء للنار، ويعني بالشجر زناد العرب وهو شجر المرخ والعفار، فإنه يقطع من كل واحد منهما غصنا أخضر يقطر منه الماء فيسحق المرخ على العفار فتنقدح النار بينهما، قال ابن عباس[2]: ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب، ولكنه في المرخ والعفار أكثر.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ هذا دليل آخر على البعث، فإن الإله الذي قدر على خلق السموات والأرض على عظمهما وكبر أجرامهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها، والضمير في مثلهم يعود على الناس. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذكر في هذين الاسمين أيضا استدلال على البعث وكذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٥٣٣.

(٢) الكشاف: ٤/٣٣.

فَيَكُونُ﴾ لأن هذا عبارة عن قدرته على جميع الأشياء ولا شك أن الخلاق العليم القدير لا يصعب عليه إعادة الأجساد.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ في هذا استدلال على البعث وتنزيه لله عما نسبه الكفار إليه من العجز عن البعث فإنهم ما قدروا الله حق قدره وكل من أنكر البعث فإنما أنكره لجهله بقدرة الله سبحانه وتعالى.

*** *** ***

بسم الله الرحمن الرحيم
وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

ربع

سورة الصافات

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ تقديره: والجماعات الصافات، ثم اختلف فيها، فقيل: هي الملائكة التي تصف في السماء صفوفا لعبادة الله، وقيل: هو من يصف من بني آدم في الصلوات والجهاد، والأول أرجح لقوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ هي الملائكة تزجر السحاب وغيرها، وقيل: الزاجرون بالمواعظ من بني آدم، وقيل: هي آيات القرآن المتضمنة للزجر عن المعاصي.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي الملائكة تتلو القرآن والذكر، وقيل: هم التالون للقرآن والذكر من بني آدم، وهي كلها أشياء أقسم الله بها على أنه واحد.

﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ يعني مشارق الشمس وهي ثلاثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فإنها تشرق كل يوم من أيام السنة في مشرق منها وتغرب في مغرب، واستغنى بذكر المشارق عن ذكر المغارب لأنها معادلة لها فتفهم من ذكرها.

﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قرئ[١] بإضافة الزينة إلى الكواكب، والزينة تكون

---

(١) ﴿بزينة الكواكب﴾ قرأ أبو بكر بزينة منونا ونصب (الكواكب) فيحتمل أن تكون الزينة مصدرا... وقرأ حفص وحمزة بتنوين زينة وجر الكواكب على أن المراد بالزينة ما يتزين به، وقطعها عن الإضافة والكواكب عطف بيان أو بدل بعض... ووافقهما الحسن والأعمش، والباقون بحذف التنوين على إضافة زينة للكواكب إضافة الأعم إلى الأخص، فهي للبيان كثوب خز، إتحاف فضلاء البشر، ص: ٤٧١.

مصدرا واسما لما يزان به، فإن كان مصدرا فهو مضاف إلى الفاعل، تقديره: بأن زينة الكواكب اسما أو مضاف إلى المفعول، تقديره: بأن زينا الكواكب، وإن كانت اسما فالإضافة بيان للزينة، وقرئ: بتنوين زينة وخفض الكواكب على البدل، ونصب الكواكب على أنها مفعول بزينة، أو بدل من موضع زينة.

﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب على المصدر، تقديره: وحفظناها حفظا، أو مفعول من أجله، والواو زائدة أو محمول على المعنى؛ لأن المعنى: إنا جعلنا الكواكب زينة للسماء وحفظا. ﴿مَّارِدٍ﴾ أي شديد الشر.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الضمير في يسمعون للشياطين، والملأ الأعلى هم الملائكة الذين يسكنون في السماء، والمعنى: أن الشياطين منعت من سماع أحاديث الملائكة وقرئ[1] يسمعون بتشديد السين والميم ووزنه يتفعلون والسمع طلب السماع فنفى السماع على القراءة الأولى ونفى طلبه على القراءة بالتشديد، والأول أرجح لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ولكن ظاهر الأحاديث أنهم يستمعون لكنهم لا يسمعون شيئا منذ بعث محمد ﷺ لأنهم يرمون بالكواكب. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يرجمون يعني بالكواكب وهي التي يراها الناس تنقض قال النقاش ومكي: ليست الكواكب الراجمة للشياطين بالكواكب الجارية في السماء، لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها لقربها منا، قال ابن عطية: وفي هذا نظر.

﴿دُحُورًا﴾ أي طردا وإبعادا وإهانة؛ لأن الدحر الدفع بعنف، وإعرابه مفعول من أجله، أو مصدر من يقذفون على المعنى، أو مصدر في موضع الحال، تقديره: مدحورين. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائم لأنهم يرجمون بالنجوم في الدنيا، ثم يقذفون في جهنم.

(١) ﴿لا يسمعون﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتشديد السين والميم، وقرأ الباقون بتخفيفهما. النشر: ٢/٣٩٦.

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ (من) في وضع رفع، بدل من الضمير في قوله: ﴿لاَّ يَسَّمَّعُونَ﴾ والمعنى لا تسمع الشياطين أخبار السماء إلا الشيطان الذي خطف الخطفة. ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي شديد الإضاءة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الضمير لكفار قريش، والاستفتاء نوع من السؤال، وكأنه سؤال من يعتبر قوله، ويجعل حجة؛ لأن جوابهم عن السؤال مما تقوم به الحجة عليهم، و﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يراد به ما تقدم ذكره من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب، وقيل: يراد به من تقدم من الأمم، والأول أرجح لقراءة ابن مسعود[1]: أم من عددنا، ومقصد الآية إقامة الحجة عليهم في إنكارهم البعث في الآخرة، كأنه يقول: هذه المخلوقات أشد خلقا منكم، فكما قدرنا على خلقهم كذلك نقدر على إعادتكم بعد فنائكم. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ اللازب اللازم، أي يلزم ما جاوره ويلصق به، ووصفه بذلك يراد به ضعف خلقة بني آدم.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي عجبت يا محمد من ضلالهم وإعراضهم عن الحق أو عجبت من قدرة الله على هذه المخلوقات العظام المذكورة وقرئ[2] عجبت بضم التاء وأشكل ذلك على من يقول إن التعجب مستحيل على الله فتأولوه بمعنى أنه جعله على حال يتعجب منها الناس، وقيل: تقديره قل يا محمد عجبت وقد جاء التعجب من الله في القرآن والحديث كقوله ﷺ: «يعجب ربك من شاب ليس له صبوة»[3] وهو صفة فعل وإنما جعلوه مستحيلا على الله لأنهم قالوا إن التعجب استعظام خفي سببه والصواب أنه لا يلزم أن يكون خفي السبب بل هو لمجرد الاستعظام فعلى هذا لا يستحيل على الله. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ تقديره: وهم يسخرون منك أو من البعث.

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/٥٣٦.

(٢) ﴿بل عجبت﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٢/٣٩٦.

(٣) مسند الشهاب للقضاعي: ١/٣٣٦ الحديث رقم: (٥٧٦).

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ الآية هنا العلامة كانشقاق القمر ونحوه، وروي أنها نزلت في مشرك اسمه: ركانة أراه النبي ﷺ آيات فلم يؤمن، و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: معناه يسخرون، فيكون فعل، واستعمل بمعنى واحد، وقيل: معناه يستدعي بعضهم بعضا لأن يسخر، وقيل: يبالغون في السخرية.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية معناها استبعادهم، وقد تقدم الكلام على الاستفهامين في الرعد.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ بفتح الواو دخلت همزة الإنكار على واو العطف وقرئ[1] بالإسكان عطفا بأو.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي قل تبعثون، والداخر: الصاغر الذليل.

﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة في الصور للقيام من القبور. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون من النظر بالأبصار، أو من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم مثل الذي قبله، أو مما يقال لهم مثل الذي بعده.

﴿احْشُرُواْ﴾ الآية خطاب للملائكة خاطبهم به الله تعالى، أو خاطب به بعضهم بعضا. ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ يعني نساؤهم المشركات، وقيل: يعني أصنامهم وقرناءهم من الجن والإنس. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ يعني الأصنام والآدميين الذين كانوا يرضون بذلك.

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي دلوهم على طريق جهنم ليدخلوها.

﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ يعني إنهم يسألون عن أعمالهم توبيخا لهم، وقيل: يسألون عن قول لا إله إلا الله، والأول أرجح لأنه أعم، ويحتمل أن يسألوا عن

---

(١) قال ابن الجزري: قرأ قالون وابن عامر وأبو جعفر: ﴿أو آباؤنا﴾ هنا وفي الواقعة بإسكان الواو والباقون بفتحها. تحبير التيسير ص ٥٢٨.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

ثمن

عدم تناصرهم على وجه التهكم بهم فيكون، مسئولون عاملا فيما بعده، والتقدير: يقال لهم ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا وقد كنتم في الدنيا تقولون نحن جميع منتصر.

﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون عاجزون عن الانتصار.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ الضمير في قالوا للضعفاء من الكفار، خاطبوا الكبراء منهم في جهنم، أو للإنس خاطبوا الجن، واليمين هنا يحتمل ثلاث معان:

الأول: أن يراد بها طريق الخير والصواب، وجاءت العبارة عن ذلك بلفظ اليمين، كما أن العبارة عن الشر بالشمال، والمعنى: أنهم قالوا لهم إنكم كنتم تأتوننا عن طريق الخير فتصدوننا عنه.

والثاني: أن يراد به القوة والمعنى على هذا أنكم كنتم تأتوننا بقوتكم وسلطانكم فتأمروننا بالكفر وتمنعوننا من الإيمان.

والثالث: أن يراد بها اليمين التي يحلف بها أي كنتم تأتوننا بأن تحلفوا لنا أنكم على الحق فنصدقكم في ذلك ونتبعكم.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ الضمير في قالوا للكبراء من الكفار، أو للشياطين، والمعنى: أنهم قالوا لأتباعهم ليس الأمر كما ذكرتم بل كفرتم باختياركم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي وجب العذاب علينا وعليكم،

و﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ معمول القول وحذف معمول ذائقون، تقديره: وجب القول بأنا ذائقون العذاب.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي دعوناكم إلى الغي لأنا كنا على غي.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي إن المتبوعين والأتباع مشتركون في عذاب النار.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ الضمير في يقولون لكفار قريش ويعنون بشاعر مجنون محمد ﷺ فرد الله عليهم بقوله:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي جاء بالتوحيد والإسلام وهو الحق. ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين جاؤوا قبله؛ لأنه جاء بمثل ما جاؤوا به، ويحتمل المعنى أن يكون صدقهم؛ لأنهم أخبروا بنبوءته، فظهر صدقهم لما بعث عليه الصلاة والسلام.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن وقرئ[1] مخلصين بفتح اللام وكسرها في كل موضع وقد تقدم تفسيره.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السرر جمع سرير وتقابلهم في بعض الأحيان للسرور بالأنس، وفي بعض الأحيان ينفرد كل واحد بقصره.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ الذين يطوفون عليهم الولدان حسبما ورد في الآية الأخرى، والكأس الإناء الذي فيه خمر قاله ابن عباس، وقيل: الكأس إناء واسع الفم ليس له مقبض، سواء كان فيه خمر أم لا، والمعين: الجاري الكثير، ووزنه فعيل والميم فيه أصلية، وقيل: هو مشتق من العين والميم زائدة ووزنه مفعول.

﴿لَذَّةٍ﴾ أي ذات لذة فوصفها بالمصدر اتساعا.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ الغول اسم عام في الأذى والضير، ومنه يقال: غاله يغوله

---

(١) قرأ المدنيان والكوفيون بفتح اللام وقرأ الباقون بكسرها. النشر ٢/٣٣٢.

إذا أهلكه، وقيل: الغول وجع في البطن، وقيل: صداع في الرأس، وإنما قدم المجرور هنا تعريضا بخمر الدنيا؛ لأن الغول فيها. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا يسكرون من خمر الجنة، ومنه النزيف، وهو السكران، وعن هنا سببية كقولك: فعلته عن أمرك، أي لا ينزفون بسبب شربها.

﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ معناه أنهن قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم. ﴿عِينٌ﴾ جميع عيناء وهو الكبيرة العينين في جمال.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ قيل: شبههن في اللون ببيض النعام؛ لأنه بياض خالطه صفرة حسنة، وكذلك قال امرؤ القيس[1]:

❊ كبكر مقاناة البياض بصفرة ❊

وقيل: إنما التشبيه بلون قشر البيضة الداخلي الرقيق وهو المكنون المصون تحت القشرة الأولى، وقيل: أراد الجوهر المصون.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ هذا إخبار عن تحدث أهل الجنة، قال الزمخشري: هذه الجملة معطوفة على يطاف عليهم، والمعنى أنهم يشربون فيتحدثون على الشراب بما جرى لهم في الدنيا.

﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قيل: إن هذا القائل وقرينه من البشر مؤمن وكافر، وقيل: إن قرينه كان من الجن.

﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ معناه أنه كان يقول له على وجه الإنكار أتصدق بالدنيا والآخرة.

﴿لَمَدِينُونَ﴾ أي مجازون ومحاسبون على الأعمال ووزنه مفعول وهو من الدين بمعنى الجزاء والحساب.

---

(١) تمامه: غذاها نميرُ الماء غير المحلل. ديوان امرئ القيس، ص: ٤.

يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي قال ذلك القائل لرفقائه في الجنة أو للملائكة أو لخدامه: هل أنتم مطلعون على النار لأريكم ذلك العزيز فيها؟ وروي: أن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار.

﴿فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي تهلكني بإغوائك والردى الهلاك وهذا خطاب خاطب به المؤمن قرينه الذي في النار. ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ هذا من كلام المؤمن خطابا لقرينه أو خطابا لرفقائه في الجنة، ولهذا قال: ﴿نَحْنُ﴾ فأخبر عن نفسه وعنهم، ويحتمل أن يكون من كلامه وكلامهم جميعا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن أو من كلامه وكلام رفقائه في الجنة، أو من كلام الله تعالى، وكذلك يحتمل هذه الوجوه في قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ والأول أرجح فيه أن يكون من كلام الله تعالى؛ لأن الذي بعده من كلام الله فيكون متصلا به ولأن الأمر بالعمل إنما هو حقيقة في الدنيا، ففيه تحضيض على العمل الصالح.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ الإشارة بذلك إلى نعيم الجنة، وكل ما ذكر من وصفها وقال الزمخشري: الإشارة إلى قوله ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ والنزل الضيافة،

وقيل: الرزق الكثير وجاء التفضيل هنا بين شيئين ليس بينهما اشتراك لأن الكلام تقرير وتوبيخ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ قيل: سببها أن أبا جهل وغيره لما سمعوا ذكر شجرة الزقوم، قالوا كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ فالفتنة على هذا الابتلاء في الدنيا، وقيل: معناه عذاب الظالمين في الآخرة والمراد بالظالمين هنا الكفار.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم وترتفع أغصانها إلى دركاتها.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الطلع ثمر النخل فاستعير لشجرة الزقوم وشبه برؤوس الشياطين مبالغة في قبحه وكراهته، لأنه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها وإن لم يروها، ولذلك يقال للقبيح المنظر: وجه شيطان، وقيل: رؤوس الشياطين شجرة معروفة باليمن، وقيل: هو صنف من الحيات.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي مزاجا من ماء حار، فإن قيل: لم عطف هذه الجملة بثم؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان، فالمعنى: أنهم يملؤون البطون من شجر الزقوم وبعد ذلك يشربون الحميم.

والثاني: أنه لترتيب مضاعفة العذاب، فالمعنى أن شربهم للحميم أشد مما ذكر قبله.

﴿يُهْرَعُونَ﴾ الإهراع: الإسراع الشديد.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي دعانا، يعني دعاءه بإهلاك قومه ونصرته عليهم.

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني الغرق.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

ربع

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أهل الأرض كلهم من ذرية نوح لأنه لما غرق الناس في الطوفان ونجا نوح ومن كان معه في السفينة تناسل الناس من أولاده الثلاثة سام وحام ويافث.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ معناه أبقينا له ثناء جميلا في الناس إلى يوم القيامة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا التسليم من الله على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: إن هذه الجملة مفعول ﴿تَرَكْنَا﴾ وهي محكية أي تركنا هذه الكلمة تقال له يعني أن الخلق يسلمون عليه فيبتدأ بالسلام على القول الأول لا على الثاني، والأول أظهر ومعنى ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على القول الأول تخصيصه بالسلام من بين العالمين كما تقول: أحب فلانا في الناس، أي أحبه خصوصا من بين الناس، ومعناه على القول الثاني أن السلام عليه ثابت في العالمين وهذا الخلاف يجري حيث ما ذكر ذلك في هذه السورة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ الشيعة الصنف المتفق، فمعنى من شيعته من على دينه في التوحيد، والضمير يعود على نوح، وقيل: على سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأول أظهر.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ عبارة عن إخلاصه بكليته وإقباله على الله تعالى، وليس المراد المجيء بالجسد. ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي سليم من الشرك والشك وجميع العيوب.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ الإفك الباطل، وإعرابه هنا مفعول من أجله، وآلهة مفعول به، وقيل: أئفكا مفعول به، وآلهة بدل منه، وقيل: أئفكا مصدر في موضع الحال، تقديره: آفكين أي كاذبين، والأول أحسن.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المعنى: أي شيء تظنون برب العالمين، أن يعاقبكم به وقد عبدتم غيره، أو أي شيء تظنون أنه هو حتى عبدتم غيره، كما تقول: ما ظنك بفلان إذا قصدت تعظيمه، فالمقصد على المعنى الأول تهديد، وعلى الثاني تعظيم لله وتوبيخ لهم.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ روي: أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوه إلى الخروج معهم، فحينئذ قال: إني سقيم ليمتنع عن الخروج معهم فيكسر أصنامهم إذا خرجوا لعيدهم، وفي تأويل ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أنها كانت تأخذه الحمى في وقت معلوم فنظر في النجوم ليرى وقت الحمى، واعتذر عن الخروج لأنه سقيم من الحمى.

والثاني: أن قومه كانوا منجمين وكان هو يعلم أحكام النجوم فأوهمهم أنه استدل بالنظر في علم النجوم أنه يسقم، فاعتذر بما يخلف من السقم عن الخروج معهم.

والثالث: أن معنى نظر في النجوم أنه نظر وفكر فيما يكون من أمره معهم، فقال: إني سقيم، والنجوم على هذا ما ينجم من حاله معهم، وليست بنجوم السماء، وهذا بعيد، وقوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ على حسب هذه الأقوال، يحتمل أن يكون حقا لا كذب فيه ولا تجوز أصلا، ويعارض هذا ما ورد عن النبي ﷺ: أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات، أحدها: قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ ويحتمل أن يكون كذبا صراحا، وجاز له ذلك لهذا الاحتمال؛ لأنه فعل ذلك من أجل الله، إذ قصد كسر الأصنام، ويحتمل أن يكون من المعاريض، فإن أراد أنه سقيم فيما يستقبل؛ لأن

كل إنسان لا بد له أن يمرض، أو أراد أنه سقيم النفس من كفرهم وتكذيبهم له، وهذا التأويل أولى؛ لأن نفي الكذب بالجملة معارض للحديث، والكذب الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق، أما المعاريض: فهي جائزة.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي تركوه إعراضا عنه وخرجوا إلى عيدهم، وقيل: إنه أراد بالسقم الطاعون وهو داء يعدي فخافوا منه وتباعدوا عنه مخافة العدوى.

﴿فَرَاغَ﴾ أي مال. ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ إنما قال ذلك على وجه الاستهزاء بالذين يعبدون تلك الأصنام.

﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي يمين يديه، وقيل: بالقوة، وقيل: بالحلف، وهو قوله ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ والأول أظهر وأليق بالضرب، وضربا مصدر في موضع الحال.

﴿يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي تنجرون، والنحت: النجارة إشارة إلى صنعهم للأصنام من الحجارة والخشب.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ذهب قوم إلى أن ما مصدرية، والمعنى: الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وقيل: إنها موصولة بمعنى الذي، والمعنى: الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام، وقيل: إنها نافية، وقيل: إنها استفهامية، وكلاهما باطل.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ قيل: البنيان في موضع النار، وقيل: بل كان للمنجنيق الذي رمى عنه.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ يعني حرقه بالنار. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي المغلوبين.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قيل: إنه قال هذا بعد خروجه من النار وأراد أنه ذاهب أي مهاجر إلى الله فهاجر إلى أرض الشام، وقيل: إنه قال ذلك قبل أن يطرح في النار، وأراد أنه ذاهب إلى ربه بالموت؛ لأنه ظن أن النار تحرقه، و﴿سَيَهْدِينِ﴾ على القول الأول يعني الهدى إلى صلاح الدين والدنيا، وعلى القول الثاني إلى الجنة، وقالت المتصوفة: معناه إني ذاهب إلى ربي بقلبي، أي مقبل على الله بكليتي تاركا سواه.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني ولدا من الصالحين.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي عاقل، واختلف الناس في هذا الغلام المبشر به في هذا الموضع وهو الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين: هو إسماعيل وحجتهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا ابن الذبيحين»[١] يعني إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ووالده عبد الله حين نذر والده عبد المطلب أن ينحره إن يسر الله له أمر زمزم، ففداه بمائة من الإبل.

والثاني: أن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح غيره.

والثالث: أنه روي أن إبراهيم جرت له قصة الذبح بمكة، وإنما كان معه بمكة إسماعيل[٢].

---

(١) المستدرك للحاكم الحديث رقم: (٤٠٣٦) ج: ٢/٦٠٤.

(٢) الصحيح عند أهل العلم أن الذبيح هو إسماعيل، قال أبو الفداء الحافظ ابن كثير: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا=

وذهب علي بن أبي طالب وابن مسعود وجماعة من التابعين إلى أن الذبيح إسحاق وحجتهم من وجهين:

الأول: أن البشارة المعروفة لإبراهيم بالوادي إنما كانت بإسحاق لقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

والثاني: أنه روي[1] أن يعقوب كان يكتب من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ يريد بالسعي هنا العمل والعبادة، وقيل: المشي،

= «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى] قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام انظر ابن كثير: ٤/١٦، و: ٧/٢٨، وزاد المعاد: ١/٧١، والشنقيطي في أضواء البيان قال: اعلم، وفّقني الله وإياك، أن القرءان العظيم قد دلّ في موضعين، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أحدهما في «الصافّات»، والثاني في هود، وجاء بأدلة دامغة. في تفسير سورة الصافات.

(١) لم أجده مسندا وهو في الطبري: ٢/٦١.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ • وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

وكان حينئذ ابن ثلاثة عشر سنة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أن يكون رأى في المنام الذبح وهو الفعل، أو أمر في المنام أنه يذبحه، والأول أظهر في اللفظ هنا، والثاني أظهر في قوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ورؤيا الأنبياء حق فوجب عليه الامتثال على الوجهين. ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ إن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر فأجابه بأحسن جواب.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي استسلما وانقادا لأمر الله. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه بالأرض على جبينه وللإنسان جبينان حول الجبهة وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره فلما أسلما كان ما كان من الأمر العظيم وقال الكوفيون: جوابها تله والواو زائدة، وقال بعضهم: جوابها ناديناه والواو زائدة.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ يحتمل أنه يريد بقلبك أي كانت عندك رؤيا صادقة فعملت بحسبها، ويحتمل أن يريد صدقتها بعملك، أي وفيت حقها من العمل، فإن قيل: إنه أمر بالذبح ولم يذبح فكيف قيل له صدقت الرؤيا؟ فالجواب: أنه قد بذل جهده إذ قد عزم على الذبح، ولو لم يفده الله لذبحه، ولكن الله هو الذي منعه من ذبحه لما فداه فامتناع ذبح الولد، إنما كان من الله وبأمر الله، وقد قضى إبراهيم ما عليه.

﴿ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الاختبار البين الذي يظهر به طاعة الله أو المحنة البينة الصعوبة.

﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذبح اسم لما يذبح وأراد به هنا الكبش الذي فدى به وروي: أنه من كباش الجنة، وقيل: إنه الكبش الذي قرب به ولد آدم ووصفه بعظيم لذلك، أو لأنه من عند الله، أو لأنه متقبل، وروي في القصص أن الذبيح قال لإبراهيم: اشدد رباطي لئلا أضطرب، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني، وأنه أمر الشفرة على حلقه فلم تقطع، فحينئذ جاءه الكبش من عند الله، وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وتركناه لعدم صحته.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إن قيل: لم قال هنا في قصة إبراهيم كذلك دون قوله: إنا وقال في غيرها ﴿إِنَّا﴾؟ فالجواب: أنه قد تقدم في قصة إبراهيم نفسها إنا كذلك فأغنى عن تكرار إنا.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ يعني بالنبوة وغير ذلك.

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني الغرق أو تعذيب فرعون وإذلاله لهم.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما، وقيل: على موسى وهارون خاصة، وعاملهما معاملة الجماعة للتعظيم، وهذا ضعيف.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ يعني التوراة ومعنى المستبين البين، وفي هذه الآية وما بعدها نوع من أدوات البيان، وهو الترصيع.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلياس من ذرية هارون، وقيل: إنه إدريس، وقد أخطأ من قال إنه إلياس المذكور في أجداد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ البعل في اللغة الرب بلغة أهل اليمن، وقيل: بعل اسم صنم يقال له بعلبك.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ ءَالِ يَاسِينَ
﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ
﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ
ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ
مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ﴾ آل هنا على هذه القراءة بمعنى أهل ياسين اسم لإلياس، وقيل: لأبيه، وقيل: لسيدنا محمد ﷺ، وقرئ[1] إلياسين بكسر الهمزة ووصل اللام ساكنة على هذا جمع إلياس أو منسوب لإلياس حذفت منه الياء كما حذفت من أعجمين وقيل: سمي كل واحد من آل ياسين إلياس ثم جمعهم وقيل: هو لغة في إلياس.

﴿عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قد ذكر.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قد ذكرنا قصته في يونس والأنبياء.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي هرب إلى السفينة والفلك: هنا واحد والمشحون: المملوء، وسبب هروبه غضبه على قومه حين لم يؤمنوا، وقيل: إنه أخبرهم أن العذاب يأتيهم في يوم معين حسبما أعلمه الله، فلما رأوا قومه مخايل العذاب آمنوا، فرفع الله عنهم العذاب فخاف أن ينسبوه إلى الكذب فهرب.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ معنى ساهم ضرب القرعة، والسهمة هي: القرعة، والمدحض: المغلوب في القرعة والمحاجة، وسبب مقارعته: أنه لما ركب

---

(١) ﴿آل ياسين﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (آل ياسين) بفتح الهمزة ومد وقطع اللام من الياء وحدها مثل (آل يعقوب) وكذا رسمت في جميع المصاحف، وقرأ الباقون بكسر الهمزة وإسكان اللام بعدها ووصلها بالياء كلمة واحدة في الحالين. النشر: ٢/٤٠١.

السفينة وقفت ولم تجر فقالوا: إنما وقفت من حدث أحدثه أحدنا فنقترع لنرى على من تخرج القرعة فنطرحه، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس، فطرحوه في البحر.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فعل ما يلام عليه وذلك خروجه بغير أن يأمره الله بالخروج.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ تسبيحه هو قوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، حسبما حكى الله عنه في الأنبياء، وقيل: هو قوله سبحان الله، وقيل هو: الصلاة، واختلف على هذا هل يعني صلاته في بطن الحوت أو قبل ذلك؟ واختلف في مدة بقائه في بطن الحوت، فقيل: ساعة، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعون يوما.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ العراء الأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وقيل: يعني الساحل. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ روي: أنه كان كالطفل المولود بضعة لحم.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ أي أنبتناها فوقه لتظله وتقيه حر الشمس واليقطين: القرع، وإنما خصه الله به لأنه يجمع برد الظل، ولين اللمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وقيل: اليقطين كل شجرة لا ساق لها، كالبقول، والقرع، والبطيخ، والأول أشهر.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ يعني رسالته الأولى التي أبق بعدها، وقيل هذه رسالة ثانية بعد خروجه من بطن الحوت والأول أشهر. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قيل: أو هنا بمعنى بل وقرأ ابن عباس[1]: بل يزيدون، وقيل: هي بمعنى الواو، وقيل: هي للإبهام وقيل: المعنى أن البشر إذا نظر إليهم يتردد فيقول: هم مائة ألف أو يزيدون،

(١) المحرر الوجيز: ٤/٥٥٧.

واختلف في عددهم، فقيل: مائة وعشرون ألفا وقيل مائة وثلاثون ألفا وقيل مائة وأربعون ألفا وقيل مائة وسبعون ألفا.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ روي: أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم وفرقوا بينهم وبين الأمهات وناحوا وتضرعوا إلى الله وأخلصوا فرفع الله العذاب عنهم إلى حين يعني لانقضاء آجالهم، وقد ذكر الناس في قصة يونس أشياء كثيرة أسقطناها لضعف صحتها.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ قال الزمخشري: إن هذا معطوف على قوله فاستفتهم الذي في أول السورة وإن تباعد ما بينهما والضمير المفعول لقريش وسائر الكفار أي اسألهم على وجه التقرير والتوبيخ عما زعموا من أن الملائكة بنات الله فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور وتلك قسمة ضيزى، ثم قررهم على ما زعموا من أن الملائكة إناث، ورد عليهم بقوله: ﴿وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ ويحتمل أن يكون بمعنى الشهادة أو بمعنى الحضور، أي أنهم لم يحضروا ذلك ولم يعلموه، ثم أخبر عن كذبهم في قولهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ ثم قررهم على ما زعموا من أن الله اصطفى لنفسه البنات، وذلك كله رد عليهم وتوبيخ لهم، تعالى الله عن أقوالهم علوا كبيرا.

﴿أَصْطَفَى﴾ دخلت همزة التقرير والتوبيخ على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل.

﴿مَا لَكُمْ﴾ هذا استفهام معناه التوبيخ وهي في موضع رفع بالابتداء والمجرور بعدها خبرها، فينبغي الوقف على قوله مالكم.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أي برهان بين.

﴿فَأْتُواْ بِكِتَـٰبِكُمْ﴾ تعجيز لهم لأنهم ليس لهم كتاب يحتجون به.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

ترتيبها ٣٨ — سُورَةُ صٓ — آياتها ٨٨

﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب، وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أن الجنة هنا الملائكة وسميت بهذا الاسم لأنه مشتق من الاجتنان وهو الاستتار، والملائكة مستورون عن أعين بني آدم كالجن، والنسب الذي جعلوه بينهم وبين الله قولهم: إنهم بنات الله.

والقول الثاني: أن الجن هنا الشياطين وفي النسب الذي جعلوه بينه وبينهم قولان:

أحدهما: أن بعض الكفار قالوا إن الله والشياطين أخوان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

والآخر: أن بعضهم قال إن الله نكح في الجن فولدت له الملائكة، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ من قال إن الجن الملائكة فالضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يعود على الكفار، أي قد علمت الملائكة أن الكفار محضرون في العذاب، ومن قال إن الجن الشياطين، فالضمير يعود عليهم، أي قد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين أو من الفاعل في يصفون، والمعنى لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون في العذاب أو لكن عباد

الله المخلصين يصفونه بما هو أهله.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا خطاب للكفار، والمراد بما تعبدون الأصنام وغيرها، وما تعبدون عطف على الضمير في ﴿إِنَّكُم﴾ ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، ومعنى فاتنين مضلين، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على ما تعبدون وعلى سببية معناها التعليل، و﴿مَنْ هُوَ﴾ مفعول بفاتنين والمعنى إنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه لا تضلون أحدا إلا من قضى الله أنه يصلى الجحيم، أي لا تقدرون على إغواء الناس إلا بقضاء الله، وقال الزمخشري: الضمير في عليه يعود على الله تعالى.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا حكاية كلام الملائكة عليهم السلام، تقديره: ما منا ملك إلا وله مقام معلوم، وحذف الموصوف لفهم الكلام، والمقام المعلوم يحتمل أن يراد به المكان الذي يقومون فيه؛ لأن منهم من هو في السماء الدنيا، وفي الثانية، وفي سائر السموات، وحيث شاء الله، ويحتمل أن يراد به المنزلة من العبادة والتقريب والتشريف.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفا، ولذلك أمر المسلمون بتسوية الصفوف في صلاتهم ليقتدوا بالملائكة، وليس أحد من أهل الملل يصلون صفوفا إلا المسلمون.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قيل: معناه المصلون لأن الصلاة يقال لها تسبيح، وقيل: معناه القائلون سبحان الله، وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة رد على من قال إنهم بنات الله أو شركاء له؛ لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله والتنزيه له، ويدل هذا الكلام أيضا على أن المراد بالجن قبل هذا الملائكة، وقيل: إن هذا كله من كلام سيدنا محمد ﷺ، وكلام المسليمن، والأول أشهر.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الضمير لكفار قريش

وسائر العرب والمعنى أنهم كانوا قبل بعث محمد ﷺ يقولون لو أرسل الله إلينا رسولا وأنزل علينا كتابا لكنا عباد الله المخلصين.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ الضمير للذكر أو لسيدنا محمد ﷺ؛ لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يتقدم له ذكر. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد لهم على كفرهم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ المعنى: سبق القضاء بأن المرسلين منصورون على أعدائهم.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ هذا النصر والغلبة بظهور الحجة والبرهان، وبهزيمة الأعداد في القتال، وبالسعادة في الآخرة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي أعرض عنهم وذلك موادعة منسوخة بالسيف والحين هنا يراد به يوم بدر وقيل: حضور آجالهم وقيل يوم القيامة.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ هذا وعد للنبي ﷺ، ووعيد لهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إشارة إلى قولهم متى هذا الوعد وأمطر علينا حجارة من السماء وشبه ذلك.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ الساحة: الفناء حول الدار، والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من محظور وسوء. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الصباح مستعمل في ورود الغارات والرزايا، ومقصد الآية التهديد بعذاب يحل بهم بعد أن أنذروا فلم ينفعهم الإنذار، وذلك تمثيل بقوم أنذرهم ناصح بأن جيشا يحل بهم فلم يقبلوا نصحه حتى جاءهم الجيش فأهلكهم.

﴿وَأَبْصِرْ﴾ كرر الأمر بالتولي عنهم والوعد والوعيد على وجه التأكيد وقيل أراد بالوعيد الأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة، فإن قيل: لم قال أولا:

أبصرهم، وقال هنا أبصر، فحذف الضمير المفعول؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانيا، فحذفه اختصارا.

والآخر: أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم، كأنه قال: أبصر جميع الكفار، بخلاف الأول فإنه في قريش خاصة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزه الله تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالا كثيرة شنيعة، والعزة إن أراد بها عزة الله فمعنى رب العزة ذو العزة، وأضافها إليه لاختصاصه بها، وإن أراد بها عزة الأنبياء والمؤمنين فمعنى ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ مالكها وخالقها، ومن هذا قال محمد بن سحنون: من حلف بعزة الله فإن أراد صفة الله فهي يمين، وإن أراد العزة التي أعطى عباده فليست بيمين[1]، ثم ختم هذه السورة بالسلام على المرسلين.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأما السلام على المرسلين فيحتمل أن يريد به التحية، أو سلامتهم من أعدائهم، ويكون ذلك تكميلا لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وأما الحمد لله فيحتمل أن يريد به الحمد لله على ما ذكر في هذه السورة من تنزيه الله ونصرة الأنبياء وغير ذلك، ويحتمل أن يريد الحمد لله على الإطلاق.

*** *** ***

(١) وهذا منسوب أيضا لأشهب، قال القرافي في الذخيرة: وقال أشهب: إن أراد بعزة الله وأمانته القديمة وجبت الكفارة، أو المحدثة لم تجب، وقد قال تعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[الصافات: ١٨٥ الذخيرة: ٤/١٤، وهذا هو مشهر مذهب مالك، قال خليل في مختصره، عند الكلام على ما تنعقد به اليمين: «وكعزة الله وأمانته وعهده وعلي عهد الله إلا أن يريد المخلوق». ص: ٨٢.

سُورَةُ صٓ — مكية ٣٨ — آياتها ٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ثمن

• صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿١﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٢﴾ وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٣﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٤﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٥﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٦﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٧﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٨﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَٰبِ ﴿٩﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾

سورة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿صٓ﴾ تكلمنا على حروف الهجاء في البقرة، ويختص بهذا أنه قال فيه معناه صدق محمد، وقيل: هو حرف من اسم الله الصمد، أو صادق الوعد، أو صانع المصنوعات. ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ هذا قسم جوابه محذوف، تقديره: إن القرآن من عند الله وإن محمدا ﷺ لصادق وشبه ذلك، وقيل: جوابه في قوله ﷺ، إذ هو بمعنى صدق محمد، وقيل: جوابه ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ وهذا بعيد، وقيل: جوابه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهذا أبعد، ومعنى ذي الذكر ذي الشرف والذكر بمعنى الموعظة أو ذكر الله وما يحتاج إليه من الشريعة. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ الذين كفروا يعني قريشا، وبل للإضراب عن كلام محذوف، وهو جواب القسم أي إن كفرهم ليس ببرهان بل هو بسبب العزة والشقاق، والعزة هي: التكبر، والشقاق العداوة وقصد المخالفة، وتنكيرهما للدلالة على شدتهما وتفاخم الكفار فيهما.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ إخبار يتضمن تهديدا لقريش. ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك ولات بمعنى ليس، وهي لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث كما زيدت في ربت وثمت، ولا تدخل لات إلا على زمان واسمها مضمر وحين مناص خبرها، والتقدير: ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، والمناص المفر والنجاة من

قولك: ناص ينوص إذا فر.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ الضمير لقريش والمنذر سيدنا محمد ﷺ أي استبعدوا أن يبعث الله رسولا منهم، ويحتمل أن يريد من قبيلتهم أو يريد من البشر مثلهم. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كان الأصل وقالوا ولكن وضع الظاهر موضع المضمر قصدا لوصفهم بالكفر.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا إنكار منهم للتوحيد، وسبب نزول هذه الآية[1] أن قريشا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب كف ابن أخيك عنا فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفه أحلامنا، فكلمه أبو طالب في ذلك فقال ﷺ: إنما أريد منهم كلمة واحدة يملكون بها العجم، وتدين لهم بها العرب، فقالوا: نعم، وعشر كلمات معها، فقال: قولوا لا إله إلا الله فقاموا وأنكروا ذلك وقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا؟.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ﴾ انطلاق الملإ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب، وقيل: عبارة عن تفرقتهم في طرق مكة وإشاعتهم للكفر، وأن امشوا معناه: يقول بعضهم لبعض امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم ولا تطيعوا محمدا فيما يدعوا إليه من عبادة الله وحده. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ هذا أيضا مما حكى الله من كلام قريش، وفي معناه وجهان:

أحدهما: أن الإشارة إلى الإسلام والتوحيد، أي إن هذا التوحيد شيء يراد منا الانقياد إليه.

والآخر: أن الإشارة إلى الشرك والصبر على آلهتهم أي إن هذا لشيء ينبغي أن يراد ويتمسك، به أو أن هذا شيء يريده الله منا لما قضى علينا به، والأول أرجح؛ لأن الإشارة فيما بعد ذلك إليه فيكون الكلام على نسق واحد.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٠/٧٩، وابن كثير في تفسيره: ٤/٣٤.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ هذا أيضا مما حكى الله عنهم من كلامهم أي ما سمعنا بالتوحيد في الملة الآخرة، والمراد بالملة الآخرة ملة النصارى لأنها بعد ملة موسى وغيره، وهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، وقيل: المراد ملة قريش أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، وقيل: المراد الملة المنتظرة إذ كانوا يسمعون من الأحبار والكهان أن رسولا يبعث يكون آخر الأنبياء. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ هذا أيضا مما حكي من كلامهم والإشارة إلى التوحيد والإسلام ومعنى الاختلاق الكذب.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ الهمزة للإنكار، والمعنى أنهم أنكروا أن يخص الله محمدا ﷺ بإنزال القرآن عليه دونهم. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ هذا رد عليهم، والمعنى: أنهم ليست لهم حجة ولا برهان بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده، فلذلك كفروا ويحتمل أن يريد بالذكر القرآن. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ هذا وعيد لهم وتهديد، والمعنى أنهم إنما حملهم على الكفر كونهم لم يذوقوا العذاب فإذا ذاقوه زال عنهم الشك وأذعنوا للحق.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ هذا رد عليهم فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوءة، والمعنى أنهم ليس عندهم خزائن رحمة الله حتى يعطوا النبوءة من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا بل يعطيها الله لمن يشاء ثم وصف نفسه بالعزيز الوهاب؛ لأن العزيز يفعل ما يشاء والوهاب ينعم على من يشاء فلا حجة لهم فيما أنكروا.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا أيضا رد عليهم، والمعنى: أم لهم الملك فيتصرفون فيه كيف شاؤوا؟ بل مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء، وأم الأولى منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار، وأما أم الثانية فيحتمل أن تكون كذلك أو تكون عاطفة معادلة لما قبلها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ هذا تعجيز

لهم وتهكم بهم ومعنى يرتقوا يصعدوا والأسباب هنا السلالم والطرق وشبه ذلك مما يوصل به إلى العلو، وقيل: هي أبواب السماء، والمعنى: إن كان لهم ملك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدبروا الملك.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ هذا وعيد بهزيمتهم في القتال وقد هزموا يوم بدر وغيره، وما هنالك صفة لجند، وفيها معنى التحقير لهم والإشارة بهنالك إلى حيث وصفوا أنفسهم من الكفر والاستهزاء، وقيل: الإشارة إلى الارتقاء في الأسباب وهذا بعيد، وقيل: الإشارة إلى موضع بدر ومن الأحزاب معناه من جملة الأحزاب الذين تعصبوا للباطل فهلكوا.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس[١]: كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها، وقيل: كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم، وقيل: أراد المباني العظام الثابتة ورجحه ابن عطية[٢] وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل[٣]:

❊ في ظل ملك ثابت الأوتاد ❊

﴿وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قد ذكر. ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينظر هنا بمعنى ينتظر وهؤلاء يعني قريشا والصيحة الواحدة النفخة في الصور وهي نفخة الصعق، وقيل: الصيحة عبارة عما أصابهم من قتل وشدائد، والأول أظهر، وقد روي تفسيرها بذلك عن النبي ﷺ[٤]. ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: ما لها رجوع أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا، وهو على هذا مشتق من الإفاقة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٠/٨٣، وفي رواية: يلعب له بها.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٥٦٥.

(٣) هذا عجز بيت للأسود بن يعفر وصدره: (ولقد غنوا فيها بأعظم عيشة...) انظر الكشاف: ٤/٧٣.

(٤) انظر المحرر الوجيز: ٤/٤٩٥، والدر المنثور للسيوطي: ٥/٥٥٨.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٦﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٧﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿١٩﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٣﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٤﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٥﴾

الثاني: ما لها من ترداد أي إنما هي واحدة لا ثانية لها.

الثالث: ما لها من تأخير ولا توقف مقدار فواق ناقة وهي ما بين حلبتي اللبن، وهذا القول الثالث إنما يجري على قراءة فواق[1] بالضم لأن فواق الناقة بالضم، والقولان الأولان على الفتح والضم.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ القط في اللغة له معنيان:

أحدهما: الكتاب.

والآخر: النصيب وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: نصيبنا من الخير أي دعوا أن يعجله الله لهم في الدنيا.

والآخر: نصيبهم من العذاب فهو كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء.

الثالث: صحائف أعمالنا.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ الأيد القوة، وكان داود جمع قوة البدن والقوة في الدين والملك والجنود، والأواب الرجاع إلى الله.

فإن قيل: ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد ﷺ بالصبر على أقوال الكفار وبين أمره له بذكر داود؟ فالجواب عندي: أن ذكر داود ومن بعده من الأنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي ﷺ ووعد له بالنصر وتفريج الكرب

---

(١) ﴿فواق﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٢/٤٠١.

وإعانة له على ما أمر به من الصبر، وذلك أن الله ذكر ما أنعم به على داود من تسخير الطير والجبال وشدة ملكه وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب ثم الخاتمة له في الآخرة بالزلفى وحسن المآب، فكأنه يقول: يا محمد كما أنعمنا على داود بهذه النعم كذلك ننعم عليك، فاصبر ولا تحزن على ما يقولون، ثم ذكر ما أعطى سليمان من الملك العظيم وتسخير الريح والجن والخاتمة بالزلفى وحسن المآب، ثم ذكر من ذكر بعد ذلك من الأنبياء والمقصد ذكر الإنعام عليهم لتقوية قلب النبي ﷺ، وأيضا فإن داود وسليمان وأيوب أصابتهم شدائد ثم فرجها الله عنهم وأعقبها بالخير العظيم، فأمر سيدنا محمدا ﷺ بذكرهم ليعلمه أنه يفرج عنه ما يلقى من إذاية قومه ويعقبها بالنصر والظهور عليهم، فالمناسبة في ذلك ظاهرة، وقال ابن عطية: المعنى اذكر داود ذا الأيدي في الدين فتأس به وتأيد كما تأيد، وأجاب الزمخشري عن السؤال فإنه قال: كأن الله قال لنبيه ﷺ: اصبر على ما يقولون، وعظم أمر المعصية في أعين الكفار بذكر قصة داود، وذلك أنه نبي كريم عند الله ثم زل زلة فوبخه الله عليها فاستغفر وأناب، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم، وهذا الجواب لا يخفى ما فيه من سوء الأدب مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث جعله مثالا يهدد الله به الكفار، وصرح بأنه زل وأن الله وبخه على زلته، ومعاذ الله من ذكر الأنبياء بمثل هذا.

﴿وَالإِشْرَاقِ﴾ يعني وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفر شعاعها وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها.

﴿مَحْشُورَةً﴾ أي مجموعة. ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كل مسبح لأجل تسبيح داود، ويحتمل أن يكون أواب هنا بمعنى رجاع أي ليرجع إلى أمره.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: يعني النبوءة، وقيل: العلم والفهم، وقيل: الزبور. ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال ابن عباس[1]: هو فصل القضاء بين الناس بالحق،

(١) الطبري في جامع البيان: ١٠/٨٨.

وقال علي[1] بن أبي طالب: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه والبينة على المدعي وقيل: أراد قول أما بعد فإنه أول من قالها، وقال الزمخشري: معنى فصل الخطاب: البين من الكلام الذي يفهمه من يخاطب به، وهذا المعنى اختاره ابن عطية وجعله من قوله تعالى إنه: ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[2].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ جاءت هذه القصة بلفظ الاستفهام تنبيها للمخاطب ودلالة على أنها من الأخبار العجيبة التي ينبغي أن يلقي البال لها، والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة، كقولك: عدل وزور، واتفق الناس على أن هؤلاء الخصم كانوا ملائكة، وروي أنهما جبريل وميكائل بعثهما الله ليضرب بهما المثل لداود في نازلة وقع هو في مثلها فأفتى بفتيا هي واقعة عليه في نازلته، ولما شعر وفهم المراد أناب واستغفر وسنذكر القصة بعد هذا، ومعنى تسوروا المحراب علوا على سوره ودخلوه، والمحراب الموضع الأرفع من القصر أو المسجد، وهو موضع التعبد، ويحتمل أن يكون المتسور المحراب اثنين فقط لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين فقط فتجيء الضمائر في تسوروا ودخلوا وفزع منهم على وجه التجوز والعبارة عن الاثنين بلفظ الجماعة، وذلك جائز على مذهب من يرى أن أقل الجمع اثنان، ويحتمل أنه جاء مع كل واحد من الخصمين جماعة فيقع على جميعهم خصم وتجيء الضمائر المجموعة حقيقة، وعلى هذا عول الزمخشري.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ العامل في إذ هنا ﴿تَسَوَّرُواْ﴾، وقيل: هي بدل من الأولى، وأما إذ الأولى فالعامل فيها أتاك أو تسوروا، ورد الزمخشري ذلك، وقال: إن العامل فيها محذوف، تقديره: هل أتاك نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا، وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ودخلوا من غير الباب،

---

(١) وقال بهذا أيضا شريح والشعبي، ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/٥٦٧.

(٢) المحرر الوجيز المصدر السابق.

وقيل: إن ذلك كان ليلا. ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تقديره: نحن خصمان ومعنى بغى تعدى. ﴿وَلاَ تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر علينا في الحكم، يقال أشط الحاكم إذا جار وقرئ[1] في الشاذ: لا تشطط بفتح التاء أي لا تبعد عن الحق يقال شط إذا بعد. ﴿سَوَآءِ اِلصِّرَاطِ﴾ أي وسط الطريق ويعني القصد والحق الواضح.

﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِے لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِےَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِے فِے اِلْخِطَابِ﴾ هذه حكاية كلام أحد الخصمين، والأخوة هنا أخوة الدين والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن، وهي هنا عبارة عن المرأة، ومعنى أكفلنيها: أملكها لي، وأصله اجعلها في كفالتي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي، ومعنى عزني في الخطاب أي غلبني في الكلام والمحاورة، يقال: عز فلان فلانا إذا غلبه. وهذا الكلام تمثيل للقصة التي وقع داود فيها، وقد اختلف الناس فيها وأكثروا القول فيها قديما وحديثا، حتى قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«من حدث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ جلدته حدين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله»**[2].

ونحن نذكر من ذلك ما هو أشهر وأقرب إلى تنزيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

روي[3] أن أهل زمان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأة فيتزوجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في ذلك لا ينكرونها، وقد جاء عن الأنصار في أول الإسلام شيء من ذلك[4]، فاتفق أن وقعت عين داود على امرأة

---

(١) قال ابن عطية: وقرأ أبو رجاء وقتادة: «تشطط» بفتح التاء وضم الطاء وهي قراءة الحسن والجحدري، ومعناه ولا تبعد، يقال شط إذا بعد، وأشط إذا أبعد غيره، وقرأ زر بن حبيش «تشاطط» بضم التاء وبالألف المحرر الوجيز: ٤/٢٢٩.

(٢) انظر المحرر الوجيز: ٤/٥٦٩.

(٣) رواه ابن عباس بلفظ قريب من هذا اللفظ، أخرجه الطبري في جامع البيان الأثر رقم: (٢٩٨٥٣).

(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين=

رجل فأعجبته فسأله النزول عنها ففعل، وتزوجها داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فولد له منها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان لداود تسع وتسعون امرأة فبعث الله إليه ملائكة مثالا لقصته، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، إشارة إلى التسع والتسعين امرأة التي كانت لداود، ولي نعجة واحدة إشارة إلى أن ذلك الرجل لم تكن له إلا تلك المرأة الواحدة، فقال: أكفلنيها إشارة إلى سؤال داود من الرجل النزول عن امرأته فأجابه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، فقامت الحجة عليه بذلك فتبسم الملكان عند ذلك وذهبا ولم يرهما، فشعر داود أن ذلك عتاب من الله له على ما وقع فيه.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ ولا تقتضي هذه القصة على هذه الرواية أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع فيما لا يجوز شرعا، وإنما عوتب على أمر جائز كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلو مرتبته ومتانة دينه، فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم، كما قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[1]، وأيضا فإنه كان له تسع وتسعون امرأة فكان غنيا عن هذه المرأة، فوقع العتاب على الاستكثار من النساء وإن كان جائزا، وروي[2] هذا الخبر على وجه آخر: وهو أن داود انفرد

= سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق، فربح شيئا من أقط وسمن، فرآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مهيم يا عبد الرحمن؟ قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار، قال: فما سقت فيها؟. فقال: وزن نواة من ذهب، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أولم ولو بشاة» البخاري الحديث رقم: (٣٧٢٢)، ومَهْيَمْ: كلمةٌ يُسْتَفْهَمُ بها، معناها: ما حالُكَ وما شأنك..

(١) قال الشيخ/بكر أبو زيد: في كتابه: معجم المناهي اللفظية، ومعه فوائد في الألفاظ: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» هذا لا أصل له في الموضوع عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ثم هو باطل معنى؛ فكيف تكون الحسنة، سيئة؟! فهو باطل لفظاً، ومعنى. والله أعلم.

(٢) هذه القصة لا أساس لها وكان بإمكان المؤلف أن يصون كتابه عن ذكر هذا النوع من الروايات الباطلة، ويعتبر بما ذكر قبل قليل، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من حدث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ جلدته حدين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله»..

يوما في محرابه للتعبد فدخل عليه طائر من كوة فوقع بين يديه، فأعجبه فمد يده ليأخذه فطار على الكوة فصعد داود ليأخذه فرأى من الكوة امرأة تغتسل عريانة فأعجبته، ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده وأنه خرج للجهاد مع الجند، فكتب داود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت، وهو موضع قل ما تخلص أحد منه، فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيدا، فتزوج داود امرأته فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها، وقيل: إن داود هم بذلك كله ولم يفعله، وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك، وروي: أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة، وروي أيضا: أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتزم أن يبتلى كما ابتلوا، فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة. ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ سؤال مصدر مضاف إلى المفعول، وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة، كأنه قال بسؤال نعجتك مضافة أو مضمومة إلى نعاجه.

فإن قيل: كيف قال له داود لقد ظلمك قبل أن يثبت عنده ذلك؟ فالجواب: أنه روي: أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصارا، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ على تقدير صحة قوله وقد قيل إن قوله لأحد الخصمين: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ قبل أن يسمع حجة الآخر كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الخلطاء هم الشركاء في الأموال ولكن الخلطة أعم من الشركة ألا ترى أن الخلطة في المواشي ليست بشركة في رقابها وقصد داود بهذا الكلام الوعظ للخصم الذي بقي والتسلية بالتأسي للخصم الذي بقي عليه. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ما زائدة للتأكيد. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ظن هنا بمعنى شعر بالأمر، وقيل: بمعنى أيقن وفتناه معناه اختبرناه. ﴿وَخَرَّ

رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ معنى خر ألقى بنفسه إلى الأرض وإنما حقيقة ذلك في السجود فقيل إن الركوع هنا بمعنى السجود، وقيل: خر من ركوعه ساجدا بعد أن ركع ومعنى أناب تاب، وروي: أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكي حتى نبت البقل من دموعه، وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافا للشافعي، إلا أنه اختلف في مذهب مالك: هل يسجد عند قوله ﴿وَأَنَابَ﴾[1] أو عند قوله: ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾؟

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٦) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٧) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٨) • وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥ أَوَّابٌ (٢٩) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣٠) فَقَالَ إِنِّيَ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣١) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٣) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيَ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٤) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٥) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٦) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ (٣٧) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٣٩) وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤٠) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤١)

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ الزلفى القربة والمكانة الرفيعة، والمآب المرجع في الآخرة.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقديره: قال الله يا داود وخلافة داود بالنبوءة والملك، قال ابن عطية: لا يقال خليفة الله إلا لنبي، وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز[2].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا

(١) وهذا هو المعتمد، قال القرافي: والمذهب أنه في (ص) عند قوله تعالى: ﴿وخر راكعا وأناب﴾ الذخيرة: ٢/٤١٨، ونص عليه خليل في المختصر.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٥٧٢.

بغير الحكمة، فإن الحكمة في ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار، أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء، وفيه أيضا وعد ووعيد.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافنات جمع صافن وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى، وقيل: الصافن هو الذي يسوي يديه، والصفن علامة على فراهة الفرس، والجياد السريعة الجري، واختلف الناس في قصص هذه الآية؟ فقال الجمهور: إن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه، وقيل: أخرجتها له الشياطين من البحر وكانت ذوات أجنحة وكانت ألف فرس، وقيل: أكثر، فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشي العصر، فأسف لذلك وقال: ردوا علي الخيل، وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة ولم يترك منها إلا اليسير، فأبدله الله أسرع منها وهي الريح.

وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال: تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان، وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز، فكيف يفعله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة، فقال بعضهم: إنما عقرها ليأكلها الناس وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله، وقال بعضهم: لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل، بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار إليهم فأزالوها حتى دخلت اصطبلاتها، فلما فرغ من صلاته قال: ردوها علي فطفق يمسح عليها بيده كرامة لها ومحبة، وقيل: إن المسح عليها كان وسما في سوقها وأعناقها بوسم (حبس في سبيل الله).

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ معنى هذا يختلف على

حسب الاختلاف في القصة، فأما الذين قالوا: إن سليمان عقر الخيل لما اشتغل بها حتى فاتته الصلاة فاختلفوا في هذا على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الخير هنا يراد به الخيل، وزعموا أن الخيل يقال لها خير وأحببت بمعنى آثرت أو بمعنى فعل يتعدى بعن، كأنه قال: آثرت حب الخيل فشغلني عن ذكر ربي.

والآخر: أن الخير هنا يراد به المال؛ لأن الخيل وغيرها مال فهو كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا.

والثالث: أن المفعول محذوف، وحب الخير مصدر، والتقدير: أحببت هذه الخيل مثل حب الخير فشغلني عن ذكر ربي، وأما الذين قالوا إنه كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار بإزالتها، فالمعنى: أنه قال إني أحببت حب الخير الذي عند الله في الآخرة، بسبب ذكر ربي وشغلني ذلك عن النظر إلى الخيل.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الضمير للشمس، وإن لم يتقدم ذكرها ولكنها تفهم من سياق الكلام، وذكر العشي يقتضيها، والمعنى: حتى غابت الشمس، وقيل: إن الضمير للخيل، ومعنى توارت بالحجاب دخلت اصطبلاتها، والأول أشهر وأظهر.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي قال سليمان ردوا الخيل علي. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ السوق جمع ساق يعني سوق الخيل وأعناقهم، أي جعل يمسحها مسحا، وهذا المسح يختلف على حسب الاختلاف المتقدم: هل هو قطعها وعقرها، أو مسحها باليد محبة لها، أو وسمها للتحبيس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ تفسير هذه الآية يختلف على حسب الاختلاف في قصتها، وفي ذلك أربعة أقوال:

الأول: أن سليمان كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله فكان ينزعه إذا دخل

الخلاء توقيرا لاسم الله تعالى فنزعه يوما ودفعه إلى جارية، فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له، روي أن اسمه صخر فقعد على كرسي سليمان يأمر وينهى والناس يظنون أنه سليمان وخرج سليمان فارا بنفسه فأصابه الجوع، فطلب حوتا ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه، وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه، ففتنة سليمان على هذا هي ما جرى له من سلب ملكه، والجسد الذي ألقى على كرسيه هو الجني الذي قعد عليه وسماه جسدا؛ لأنه تصور في صورة إنسان ومعنى أناب رجع إلى الله بالاستغفار والدعاء أو رجع إلى ملكه.

والقول الثاني: أن سليمان كان له امرأة يحبها، وكان أبوها ملكا كافرا قد قتله سليمان، فسألته أن يضع لها صورة أبيها فأطاعها في ذلك فكانت تسجد للصورة ويسجد معها جواريها، وصار صنما معبودا في داره، وسليمان لا يعلم حتى مضت أربعون يوما، فلما علم به كسره فالفتنة على هذا عمل الصورة والجسد هو الصورة.

والقول الثالث: أن سليمان كان له ولد وكان يحبه حبا شديدا فقالت الجن إن عاش هذا الولد ورث ملك أبيه فبقينا في السخرة أبدا فلم يشعر إلا وولده ميت على كرسيه، فالفتنة على هذا حبه الولد والجسد هو الولد لما مات، وسمي جسدا لأنه جسد بلا روح.

القول الرابع: أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق إنسان، فالفتنة على هذا كونه لم يقل: إن شاء الله، والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له.

فأما القول الأول: فضعيف من طريق النقل، مع أنه يبعد ما ذكر فيه من سلب ملك سليمان وتسليط الشياطين عليه.

وأما القول الثاني: فضعيف أيضا مع أنه يبعد أنه يعبد صنم في بيت نبي، أو

يأمر نبي بعمل صنم.

وأما القول الثالث: فضعيف أيضا.

وأما القول الرابع: فقد روي في الحديث الصحيح[١] عن رسول الله ﷺ، لكنه لم يذكر في الحديث أن ذلك تفسير الآية.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ قدم الاستغفار على طلب الملك؛ لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدم الأولى والأهم، فإن قيل: لأي شيء قال لا ينبغي لأحد من بعدي وظاهر هذا طلب الانفراد به، حتى قال فيه الحجاج: إنه كان حسودا؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه إنما قال ذلك لئلا يجري عليه مثل ما جرى من أخذ الجني لملكه، فقصد أن لا يسلب ملكه عنه في حياته ويصير إلى غيره.

والآخر: أنه طلب ذلك ليكون معجزة ودلالة على نبوءته.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ معنى رخاء لينة طيبة، وقيل: طائعة له، وقد ذكرنا الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿عَاصِفَةً﴾ في الأنبياء وحيث أصاب: أي حيث قصد وأراد.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ الشياطين معطوف على الريح، وكل بناء بدل من الشياطين، أي سخرنا له الريح والشياطين من يبني منهم ومن يغوص في البحر.

---

(١) في صحيح البخاري وغيره: عن أبي هريرة:: قال رسول الله ﷺ قال سليمان: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيم الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» البخاري الحديث رقم: (٦٢٦٣).

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي آخرين من الجن موثقون في القيود والأغلال.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ الإشارة إلى الملك الذي أعطاه الله له، والمعنى: أن الله قال له: أعط من شئت، وامنع من شئت، وقيل المعنى: امنن على من شئت من الجن بالإطلاق من القيود، وأمسك من شئت منهم في القيود، والأول أحسن وهو قول ابن عباس(١). ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أنه لا يحاسب في الآخرة على ما فعل.

والآخر: بغير تضييق عليك في الملك

والثالث بغير حساب ولا عدد بل خارج عن الحصر.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قد ذكر في قصة داود.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قد ذكرنا قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأنبياء، والنصب يقال بضم النون وإسكان الصاد(٢) وبفتح النون وإسكان الصاد وبضم النون والصاد وبفتحهما ومعناه واحد، وهو المشقة، فإن قيل: لم نسب ما أصابه من البلاء إلى الشيطان؟ فالجواب من أربعة أوجه:

أحدها: أن سبب ذلك كان من الشيطان فإنه روي أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكرا فلم يغيره، وقيل: إنه كانت له شاة فذبحها وطبخها وكان له جار جائع فلم يعط جاره منها شيئا.

والثاني: أنه أراد ما وسوس له الشيطان في مرضه من الجزع وكراهة البلاء،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٠/١٠٤.

(٢) ﴿بنصب وعذاب﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحها، وقرأ الباقون بضم النون وإسكان الصاد. النشر: ٢/٤٠١.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

ربع

فدعا إلى الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك.

والثالث: أنه روي أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه فأهلك ماله فصبر وأهلك أولاده فصبر وأصابه الجذام والمرض الشديد فصبر فنسب ذلك إلى الشيطان لتسليط الشيطان عليه.

والرابع: روي أن الشيطان لقي امرأته فقال لها: قولي لزوجك إن سجد لي سجدة أذهبت ما به من المرض، فذكرت المرأة ذلك لأيوب فقال لها: ذلك عدو الله الشيطان، وحينئذ دعا.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ التقدير: قلنا له اركض برجلك فضرب الأرض برجله فنبعت له عين ماء صافية باردة، فشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده، واغتسل منها فذهب ما كان في ظاهر جسده، وروي: أنه ركض الأرض مرتين فنبع له عينان فشرب من أحدهما واغتسل من الأخرى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ ذكر في الأنبياء.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ الضغث القبضة من القضبان، وكان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وكان سبب ذلك ما ذكرته له من لقاء الشيطان، وقوله لها: إن سجد لي زوجك أذهبت ما به من المرض، فأمره أن يأخذ ضغثا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، فيبر

في يمينه، وقد ورد مثل هذا عن نبينا ﷺ في حد رجل زنى وكان مريضا، فأمر رسول الله ﷺ بعذق نخلة فيه شماريخ مائة، فضرب به ضربة واحدة، ذكر ذلك أبو داود[١] والنسائي، وأخذ به بعض العلماء[٢] ولم يأخذ به مالك ولا أصحابه.

﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ الأيدي جمع يد وذلك عبارة عن قوتهم في الأعمال الصالحات، وإنما عبر عن ذلك بالأيدي لأن الأعمال أكثر ما تعمل بالأيدي، وأما الأبصار فعبارة عن قوة فهمهم وكثرة علمهم، من قولك: أبصر الرجل إذا تبينت له الأمور، وقيل: الأيدي جمع يد بمعنى النعمة، ومعناه أولوا النعم التي أسداها الله إليهم من النبوءة والفضيلة، وهذا ضعيف؛ لأن اليد بمعنى النعمة أكثر ما يجمع على أيادي، وقرأ ابن مسعود[٣] أولي الأيد بغير ياء، فيحتمل أن تكون الأيدي محذوفة الياء، أو يكون الأيد بمعنى القوة، كقوله: ﴿دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ معنى أخلصناهم جعلناهم خالصين

---

(١) .. عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: ـ كَانَ بَيْنَ أَبْيَاتِنَا رُوَيْجِلٌ ضَعِيفٌ، فَخَبَثَ بِأَمَةٍ مِنْ إِمَائِهِمْ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَالَ: «اِضْرِبُوهُ حَدَّهُ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «خُذُوا عِثْكَالًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ، ثُمَّ اِضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً». فَفَعَلُوا ـ رَوَاهُ أَحْمَدُ الحديث رقم: (٥٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤/٣١٣)، وابن ماجه (٢٧٥٤).

(٢) قال ابن قدامة: وإن كان المرض مما لا يرجى برؤه، أو كان الجاني ضعيفا بالخلقة لا يحتمل السياط، فهذا يقام عليه الحد في الحال ولا يؤخر، ويضرب بسوط يؤمن معه التلف كالقضيب الصغير، وشمراخ النخل، فإن خيف عليه من ذلك، جمع ضغثا فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة، قال: وأنكره مالك استدلالا بقوله تعالى: ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ وهذا ضربة واحدة. المغني: ٨/١٧٣، وينظر تفصيل ذلك في الموسوعة الفقهية، في مصطلحي: (حدود (ف): ٤١، وجلد (ف): ١٣.

(٣) قال ابن عطية: وقرأ الحسن والثقفي والأعمش وابن مسعود أولي الأيد بحذف الياء. المحرر الوجيز: ٤/٥٧٩.

لنا، أو أخلصناهم دون غيرهم، وخالصة صفة حذف موصوفها، تقديره: بخصلة خالصة، وأما الباء في قوله بخالصة فإن كان أخلصناهم بمعنى جعلناهم خالصين فالباء سببية للتعليل، وإن كان أخلصناهم بمعنى خصصناهم، فالباء لتعدية الفعل، وقرأ نافع بإضافة خالصة[1] إلى ذكرى من غير تنوين وقرأ غيره بالتنوين، على أن تكون ذكر بدلا من خالصة على وجه البيان والتفسير لها، والدار: يحتمل أن يريد به الآخرة أو الدنيا، فإن أراد به الآخرة ففي المعنى ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ذكرى الدار يعني به ذكرهم للآخرة وجهنم فيها.

والآخر: أن معناه تذكيرهم للناس بالآخرة، وترغيبهم للناس فيما عند الله.

والثالث: أن معناه ثواب الآخرة أي أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة. والأول أظهر، وإن أراد بالدار الدنيا، فالمعنى: حسن الثناء والذكر الجميل في الدنيا، كقوله: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾.

﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خير بتشديد الياء، أو خير المخفف من خير كميت مخفف من ميت.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ ذكر في الأنبياء. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذكر الأنبياء، وقيل: الإشارة إلى القرآن بجملته، والأول أظهر، وكأن قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ ختام للكلام المتقدم، ثم شرع بعده في كلام آخر كما يتم المؤلف بابا، ثم يقول: فهذا باب، ثم يشرع في آخر.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ذكر في الصافات. ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني أسنانهن سواء، يقال:

---

(١) يقصد من السبعة، لأن أبا جعفر من العشرة قرأ مثله، قال ابن الجزري: واختلفوا في ﴿بخالصة ذكرى﴾ فقرأ المدنيان ﴿بخالصة﴾ بغير تنوين على الإضافة، واختلف عن هشام، فروى عنه الحلواني كذلك وهي رواية ابن عباد عنه، وروى عنه الداجوني وسائر أصحابه بالتنوين، وكذلك قرأ الباقون. النشر: ٢/٤٠٢.

فلان ترب فلان إذا كان مثله في السن، وقيل: يعني أن أسنانهن وأسنان أزواجهن سواء.

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي ماله من فناء ولا انقضاء.

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ تقديره: الأمر هذا، لما تم ذكر أهل الجنة ختمه بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ ثم ابتدأ وصف أهل النار، ويعني بالطاغين الكفار.

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ هذا مبتدأ وخبره حميم، فليذوقوه اعتراض بينهما، والحميم الماء الحار، والغساق قرئ[1] بتخفيف السين وتشديدها، وهو صديد أهل النار، وقيل: ما يسيل من عيونهم، وقيل: هو عذاب لا يعلمه إلا الله.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ آخر معطوف على حميم وغساق تقديره: وعذاب آخر، قيل: يعني الزمهرير، ومعنى من شكله من مثله ونوعه، أي من مثل العذاب المذكور، وأزواج معناه أصناف وهو صفة للحميم والغساق والعذاب الآخر، والمعنى: أنها أصناف من العذاب، وقال ابن عطية: آخر مبتدأ واختلف في خبره، فقيل تقديره: ولهم عذاب آخر، وقيل: أزواج مبتدأ ومن شكله خبر أزواج، والجملة خبر آخر، وقيل: أزواج خبر لآخر ومن شكله في موضع الصفة، وقرئ[2] أخر بالجمع وهو أليق أن يكون أزواج خبره؛ لأنه جمع مثله.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج الجماعة من الناس، والمقتحم الداخل في زحام وشدة، وهذا من كلام خزنة النار خاطبوا به رؤساء الكفار الذين دخلوا النار أولا، ثم دخل بعدهم أتباعهم وهو الفوج المشار إليه، وقيل: هو كلام أهل النار بعضهم لبعض، والأول أظهر. ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي لا يلقون رحبا ولا خيرا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿وغساق﴾ بتشديد السين. التيسير، ص: ١٢٢.

(٢) ﴿وآخر من شكله﴾ قرأ البصريان بضم الهمزة من غير مد على الجمع، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وألف بعدها على التوحيد. النشر: ٢/٤٠٢.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

وهو دعاء من كلام رؤساء الكفار، أي لا مرحبا بالفوج الذين هم أتباع لهم.

﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هذا حكاية كلام الأتباع للرؤساء لما قالوا لهم: لا مرحبا بهم، أجابوهم بقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ هذا أيضا من كلام الأتباع خطابا للرؤساء وهو تعليل لقولهم: بل أنتم لا مرحبا بكم، والضمير في قدمتموه للعذاب، ومعنى قدمتموه أوجبتموه لنا بما قدمتم في الدنيا من إغوائنا وأمركم لنا بالكفر.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ هذا أيضا من كلام الأتباع، دعوا إلى الله تعالى أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب، فهو كقولهم: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ والضعف زيادة المثل.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ الضمير في قالوا لرؤساء الكفار، وقيل: للطاغين، والرجال هم ضعفاء المؤمنين، وقيل: إن القائلين لذلك أبو جهل لعنه الله، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأمثالهم وأن الرجال المذكورين هم: عمار، وبلال، وصهيب، وأمثالهم واللفظ أعم من ذلك، والمعنى: أنهم قالوا في جهنم ما لنا لا نرى في النار رجالا كنا في الدنيا نعدهم من الأشرار.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرئ[1] أتخذناهم بهمزة قطع ومعناها توبيخ أنفسهم

(١) قال الداني: أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿من الأشرار اتخذنهم﴾ بوصل الألف وإذا ابتدءوا=

على اتخاذهم المؤمنين سخريا، وقرئ بألف وصل على أن يكون الجملة صفة لرجال وقرئ[1] سخريا بضم السين من التسخير بمعنى الخدمة وبالكسر بمعنى الاستهزاء. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ﴾ هذا يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون معادلا لقولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ والمعنى: ما لنا لا نراهم في جهنم فهم ليسوا فيها، أم هم فيها ولكن زاغت عنهم أبصارنا، ومعنى زاغت عنهم: مالت فلم نرهم.

الثاني: أن يكون معادلا لقولهم: ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ والمعنى: أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم أبصارنا في الدنيا، ومعنى زاغت الأبصار: مالت عن النظر إليهم احتقارا لهم.

الثالث: أن تكون أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، فلا تعادل شيئا مما قبلها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من حكاية أقوال أهل النار ثم فسره بقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وإعراب تخاصم بدل من حق، أو خبر مبتدإ مضمر.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ النبأ الخبر، ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو يوم القيامة، والأول أعم وأرجح.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة ومقصد الآية الاحتجاج على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك والضمير في يختصمون للملإ الأعلى واختصامهم هو في قصة آدم حين قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة حسبما تضمنته قصته في مواضع

= كسروها. والباقون بقطعها في الحالين. ص: ١٢٢.

(١) ﴿سخريا﴾ هنا قرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف بضم السين، وقرأ الباقون بكسرها. وتقدم الكلام عليها عند ﴿فاتخذتموهم سخريا﴾ سورة المؤمنون..

من القرآن، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى ربه فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقال: لا أدري، قال: في الكفارات وهي إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، الحديث[١] بطوله، وقيل: الضمير في يختصمون للكفار، أي يختصمون في الملإ الأعلى فيقول بعضهم: هم بنات الله، ويقول آخرون: هم آلهة تعبد، وهذا بعيد.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ إذ بدل من إذ يختصمون وقد ذكرنا في البقرة معنى سجود الملائكة لآدم، ومعنى كفر إبليس، وذكرنا في الحجر معنى قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ الضمير في قال لله ﷻ، وبيدي من المتشابه الذي ينبغي الإيمان به وتسليم علم حقيقته إلى الله، وقال المتأولون: هو عبارة عن القدرة وقال القاضي أبو بكر بن الطيب: إن اليد والعين والوجه صفات زائدة على الصفات المتقررة، قال ابن عطية: وهذا قول مرغوب عنه[٢]، وحكى الزمخشري[٣] أن معنى خلقت بيدي خلقت بغير واسطة. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل وأم هنا معادلة

---

(١) ... عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، قال أحسبه قال: في المنام، فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت لا، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، قال: في الكفارات، والكفارات المكث في المسجد بعد الصلاة والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. صحيح الترمذي للألباني الحديث رقم: (٢٥٨٠).

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٥٨٥.

(٣) الكشاف: ٤/١٠٩.

والمعنى أستكبرت الآن أم كنت قديما ممن يعلو ويستكبر وهذا على جهة التوبيخ له ﴿رَجِيمٌ﴾ أي لعين مطرود.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يعني القيامة وقد تقدم الكلام على ذلك في الحجر.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الباء للقسم أقسم إبليس بعزة الله أن يغوي بني آدم.

• قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٦﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦﴾

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الضمير في قال هنا لله تعالى، والحق الأول مقسم به وهو منصوب بفعل مضمر، كقولك: الله لأفعلن، وجوابه لأملأن جهنم وقرئ[1] بالرفع وهو مبتدأ، أو خبر مبتدإ مضمر، تقديره: الحق يميني وأما الحق الثاني فهو مفعول بأقول، وقوله: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة اعتراض بين القسم وجوابه، على وجه التأكيد للقسم.

﴿وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي الذين يتصنعون ويتحيلون بما ليسوا من أهله.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۢ﴾ هذا وعيد أي لتعلمن صدق خبره بعد حين، والحين يوم القيامة أو موتهم أو ظهور الإسلام يوم بدر وغيره.

❊❊ ❊❊ ❊❊

(١) ﴿قال فالحق﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب. النشر: ٢/٤٠٢.

سورة الزمر

﴿تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ﴾ تنزيل مبتدأ وخبره من الله، أو خبر ابتداء مضمر تقديره: هذا تنزيل، و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ على هذا الوجه يتعلق بتنزيل، أو يكون خبرا بعد خبر، أو خبر مبتدإ آخر محذوف، والكتاب هنا القرآن أو السورة، واختار ابن عطية أن يراد به جنس الكتب المنزلة، وأما الكتاب الثاني فهو القرآن باتفاق.

﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون معناه متضمنا الحق.

والثاني: أن يكون معناه بالاستحقاق والوجوب.

﴿مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ أي لا يكون فيه شرك أكبر ولا أصغر وهو الرياء.

﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ قيل: معناه من حقه ومن واجبه أن يكون له الدين الخالص، ويحتمل أن يكون معناه إن الدين الخالص هو دين الله وهو الإسلام الذي شرعه لعباده ولا يقبل غيره، ومعنى الخالص الصافي من شوائب الشرك، وقال قتادة[1] الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله، وقال الحسن[2]: هو الإسلام، وهذا أرجح لعمومه. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَآءَ﴾ يريد بالأولياء الشركاء المعبودين، ويحتمل أن يريد بالذين اتخذوا الكفار العابدين لهم، أو الشركاء المعبودين، والأول أظهر لأنه يحتاج على الثاني إلى حذف الضمير العائد على ﴿الَّذِينَ﴾ تقديره: الذين اتخذوهم، ويكون ضمير الفاعل في اتخذوا عائدا على غير مذكور، وارتفاع الذين على الوجهين بالابتداء، وخبره إما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو المحذوف المقدر قبل قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾؛ لأن تقديره يقولون ما

(١) المحرر الوجيز: ٤/٥٨٨.

(٢) الكشاف: ٤/١١٣.

نعبدهم والأول أرجح؛ لأن المعنى به أكمل. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذه الجملة في موضع معمول قول محذوف، والقول في موضع الحال أو في موضع بدل من صلة الذين، وقرأ ابن مسعود[1] قالوا ما نعبدهم بإظهار القول أي يقول الكفار ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده ويعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة أو الذين عبدوا الأصنام أو الذين عبدوا عيسى أو عزيرا فإن جميعهم قالوا هذه المقالة ومعنى زلفى قربى فهو مصدر من يقربونا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ إشارة إلى كذبهم في قولهم ليقربونا إلى الله وقوله: لا يهدي في تأويله وجهان:

أحدهما: لا يهديه في حال كفره.

والثاني: أن ذلك مختص بمن قضى عليه بالموت على الكفر، أعاذنا الله من ذلك، وهذا تأويل لا يهدي القوم الظالمين والكافرين حيثما وقع.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ الولد يكون على وجهين:

أحدهما: بالولادة الحقيقية وهذا محال على الله تعالى، لا يجوز في العقل.

والثاني: التبني بمعنى الاختصاص والتقريب كما يتخذ الإنسان ولد غيره ولدا لإفراط محبته له، وهذا ممتنع على الله بإخبار الشرع، فإن قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يعم نفي الوجهين، فمعنى الآية على ما أشار إليه ابن عطية: لو أراد الله أن يتخذ ولدا على وجه التبني، لاصطفى لذلك مما يخلق من موجوداته ومخلوقاته، ولكنه لم يرد ذلك ولا فعله، وقال الزمخشري: معناه لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك، ولكنه يصطفي من عباده من يشاء على وجه

---

(١) قال ابن عطية: وفي مصحف ابن مسعود: «قالوا ما نعبدهم» وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. المحرر الوجيز: ٤/٥٨٨.

الاختصاص والتقريب، لا على وجه اتخاذه ولدا، فاصطفى الملائكة وشرفهم بالتقريب، فحسب الكفار أنهم أولاده ثم زادوا على ذلك أن جعلوهم إناثا فأفرطوا في الكفر والكذب على الله وملائكته.

﴿سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد؛ لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكا له؟ ثم أتبع ذلك بما ذكره من خلقه السموات والأرض وما بينهما ليدل على وحدانيته وقدرته وعظمته.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ التكوير اللف واللي، ومنه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، وهو هنا استعارة ومعناه على ما قال ابن عطية: يعيد من هذا على هذا، فكان الذي يطيل من النهار أو الليل يصير منه على الآخر جزءا فيستره، وكان الذي يقصر يدخل في الذي يطول فيستتر فيه، ويحتمل أن يكون المعنى أن كل واحد منهما يغلب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه في ستره له بثوب يلف على الآخر. ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء خلقها من ضلع آدم، فإن قيل: كيف عطف قوله: ثم جعل على خلقكم بثم التي تقتضي الترتيب والمهلة، ولا شك أن خلقة حواء كانت قبل خلقة بني آدم؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو المختار أن العطف إنما هو على معنى قوله: واحدة لا على خلقكم، كأنه قال: خلقكم من نفس كانت واحدة، ثم خلق منها زوجها بعد وحدتها.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ربع

الثاني: أن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الوجود.

الثالث: أنه يعني بقوله: خلقكم إخراج بني آدم من صلب أبيهم كالذر، وذلك كله كان قبل خلقه حواء.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يعني المذكورة في الأنعام، من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وسماها أزواجا؛ لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر، وأما أنزل ففيه ثلاثة أوجه:

الأول: أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها.

الثاني: أن معنى أنزل قضى وقسم، فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه.

الثالث: أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات فتعيش منه هذه الأنعام، فعبر بإنزالها عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يعني أن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هي: البطن، والرحم، والمشيمة، وقيل: صلب الأب والرحم والمشيمة، والأول أرجح لقوله: في بطون أمهاتكم، ولم يذكر الصلب.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ أي لا يضره كفركم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ تأول الأشعرية هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن الرضا بمعنى الإرادة، ويعني بعباده من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه فهو كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

والآخر: أن الرضا غير الإرادة، والعباد على هذا على العموم، أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر، وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينا ولا شرعا، وأراده وقوعا ووجودا، وأما المعتزلة: فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة، والعباد على العموم جريا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ هذا عموم، والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ذكر في الإسراء.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ الآية يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والقصد بهذه الآية عتاب وإقامة حجة، فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله، وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله في الشدائد.

فإن قيل: لم قال هنا وإذا مس بالواو، وقال بعدها: فإذا مس بالفاء؟ فالجواب: أن الذي بالفاء مسبب عن قوله: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ فجاء بفاء السببية قاله الزمخشري، وهو بعيد. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ خوله أعطاه، والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور، أو أي نعمة كانت. ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية، أي نسي دعاءه، أو تكون بمعنى الذي والمراد بها الله تعالى.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ بتخفيف الميم على إدخال همزة الاستفهام على من، وقيل: هي همزة النداء، والأول أظهر، وقرئ[1] بتشديدها على إدخال أم على من ومن مبتدأ وخبره محذوف وهو المعادل للاستفهام تقديره أم من هو قانت كغيره وإنما

(١) ﴿أمن هو قانت﴾ قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم، وقرأ الباقون بتشديدها. النشر: ٢/٤٠٣.

حذف لدلالة الكلام عليه وهو ما ذكر قبله وما ذكر بعده من قوله. ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ والقنوت هنا بمعنى الطاعة والصلاة بالليل وآناء الليل ساعاته.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية نزلت في جعفر[1] بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ومعناها التأنيس لهم والتنشيط على الهجرة. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يحتمل أن يتعلق في هذه الدنيا بأحسنوا والمعنى الذين أحسنوا في الدنيا لهم حسنة في الآخرة أو يتعلق بحسنة والحسنة على هذا حسن الحال والعافية في الدنيا والأول أرجح. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ يراد بها البلاد المجاورة للأرض التي هاجروا منها والمقصود من ذلك الحض على الهجرة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن الصابر يوفى أجره ولا يحاسب على أعماله فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

والثاني: أن أجر الصابرين بغير حصر، بل أكثر من أن يحصر بعدد أو وزن، وهذا قول الجمهور.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ اللام هنا يجوز أن تكون زائدة أو للتعليل ويكون المفعول على هذا محذوفا، فإن قيل: كيف عطف أمرت على أمرت والمعنى واحد؟ فالجواب: أن الأول أمر بالعبادة والإخلاص، والثاني أمر بالسبق إلى الإسلام، فهما معنيان اثنان، وكذلك قوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ ليس تكرارا لقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾؛ لأن الأول إخبار بأنه مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بأنه يفعل العبادة، وقدم اسم الله تعالى للحصر واختصاص العبادة به وحده.

(١) لم أجده مسندا وذكره الثعالبي في تفسيره ٤/٥١.

قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِيَ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٤) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٥) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٦) • أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٨) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (١٩) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢٠)

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتخلية لهم على ما هم عليه.

﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظلة بالضم وهو ما غشي من فوق كالسقف، فقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بين وأما ﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾ فسماه ظلة؛ لأنه سقف لمن تحتهم فإن جهنم طبقات، وقيل: سماه ظلة لأنه يلتهب ويصعد من أسفلهم إلى فوقهم.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قيل: إنها نزلت[1] في عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير إذ دعاهم أبو بكر الصديق إلى الإيمان فآمنوا، وقيل: نزلت في أبي ذر وسلمان وهذا ضعيف؛ لأن سلمان إنما أسلم بالمدينة والآية مكية، والأظهر أنها عامة والطاغوت كل ما عبد من دون الله، وقيل: الشياطين. ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قيل: يستمعون القول على العموم فيتبعون القرآن لأنه أحسن الكلام، وقيل: يستمعون القرآن فيتبعون بأعمالهم أحسنه من العفو الذي هو أحسن من الانتصار وشبه ذلك،

---

(١) في جامع البيان: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا...﴾ الآيتين، حدثني أبي أن هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيد بن عمرو، وأبي ذرّ الغفاري، وسلمان الفارسيّ، نزل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ في جاهليتهم ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ لا إله إلا الله، ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ بغير كتاب ولا نبي ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. الطبري ٢١/٢٧٤.

وقيل: هو الذي يستمع حديثا فيه حسن وقبيح، فيتحدث بالحسن ويكف عما سواه، وهذا قول ابن عباس[١] وهو الأظهر، وقال ابن عطية: هو عام في جميع الأقوال، والقصد: الثناء على هؤلاء ببصائر ونظر سديد يفرقون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطإ فيتبعون الأحسن من ذلك، وقال الزمخشري: مثل هذا المعنى.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون الكلام جملة واحدة تقديره: أفمن حق عليه كلمة العذاب ألنت تنقذه، فموضع من في النار موضع المضمر والهمزة في قوله: أفأنت هي الهمزة التي في قوله: أفمن وهي همزة الإنكار كررت للتأكيد.

والثاني: أن يكون التقدير: أفمن حق عليه كلمة العذاب تتأسف عليه، فحذف الخبر ثم استأنف قوله: أفأنت تنقذ من في النار، وعلى هذا يوقف على العذاب، والأول أرجح لعدم الإضمار.

﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ معنى سلكه أدخله وأجراه، والينابيع جمع ينبوع وهو العين، وفي هذا دليل على أن ماء العيون من المطر. ﴿مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي أصنافه كالقمح والأرز والفول وغير ذلك، وقيل: ألوانه الخضرة والحمرة وشبه ذلك، وفي الوجهين دليل على الفاعل المختار، ورد على أهل الطبائع.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ تقديره: أفمن شرح الله صدره كالقاسي قلبه، وروي: أن الذي شرح الله صدره للإسلام علي بن أبي طالب وحمزة والمراد بالقاسية قلوبهم: أبو لهب وأولاده واللفظ أعم من ذلك. ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الزمخشري: من هنا سببية أي قلوبهم قاسية من أجل ذكر الله وهذا المعنى بعيد، ويحتمل عندي أن يكون ﴿قَاسِيَةٍ﴾ تضمن معنى خالية، فلذلك تعدى بمن، والمعنى أن قلوبهم خالية من ذكر الله.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٥٩٤.

أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن. ﴿كِتَابًا﴾ بدل من أحسن أو حال منه. ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ معناه هنا أنه يشبه بعضه بعضا في الفصاحة والنطق بالحق وأنه ليس فيه تناقض ولا اختلاف. ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع مثان، أي تثنى فيه القصص وتكرر، ويحتمل أن يكون مشتقا من الثناء لأنه يثنى فيه على الله، **فإن قيل**: مثاني جمع فكيف وصف به المفرد؟ **فالجواب**: أن القرآن ينقسم فيه إلى سور وآيات كثيرة فهو جمع بهذا الاعتبار، ويجوز أن يكون كقولهم: برمة أعشار[1]، وثوب أخلاق[2]، أو يكون تمييزا من متشابها كقولك: حسن شمائل. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إن قيل: كيف تعدى تلين بإلى؟ **فالجواب**: أنه تضمن معنى فعل تعدى بإلى كأنه قال تميل أو تسكن أو تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله **فإن قيل**: لم ذكرت الجلود أولا وحدها ثم ذكرت القلوب بعد ذلك معها؟ **فالجواب**: أنه لما قال أولا تقشعر ذكر الجلود وحدها لأن القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها ولما قال ثانيا تلين ذكر الجلود

---

(١) البرمة: هي قدر من حجر، وجمعها برم. والعرب تقول: بُرمة أعشار، أي متكسِّرة، ومنه قول امرئ القيس:

وما ذَرفت عيناكِ إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلبٍ مقتَّلِ

تهذيب اللغة للأزهري: ١/١٢٦.

(٢) قال ابن قتيبة: قال الكسائي: وإنما قالوا «ثَوْبٌ أَخْلاقٌ» أراد أن نَواحيه أخلاقٌ فلذلك جمع. أدب الكاتب، ص: ١٣٢.

والقلوب لأن اللين توصف به الجلود والقلوب، أما لين القلوب فهو ضد قسوتها وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها فاقشعرت أولا من الخوف ثم لانت بالرجاء. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى القرآن، أو إلى الخشية واقشعرار الجلود.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الخبر محذوف كما تقدم في نظائره تقديره: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب، ومعنى يتقي يلقى النار بوجهه ليكفها عن نفسه وذلك أن الإنسان إذا لقي شيئا من المخاوف استقبله بيديه وأيدي هؤلاء مغلولة فاتقوا النار بوجوههم. ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من الكفر والعصيان.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال أو بفعل مضمر على المدح. ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، وقيل: معناه غير مخلوق، وقيل: غير ذي لحن، فإن قيل: لم قال غير ذي عوج ولم يقل غير معوج؟ فالجواب: أن قوله غير ذي عوج أبلغ في نفي العوج عنه كأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلا.

﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي متنازعون متظالمون، وقيل: متشاجرون وأصله من قولك: رجل شكس إذا كان ضيق الصدر، والمعنى ضرب هذا المثل لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده، فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء يتنازعون فيه والمملوك بينهم في أسوإ حال، وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد فمعنى قوله: ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي خالصا له، وقرئ[1] سلما بغير ألف والمعنى واحد.

---

(١) ﴿ورجلا سلما﴾ قرأ ابن كثير والبصريان ﴿سالما﴾ بألف بعد السين وكسر اللام، وقرأ الباقون بغير ألف وفتح اللام. النشر: ٢/٤٠٣.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ في هذا وعد للنبي ﷺ ووعيد للكفار، فإنهم إذا ماتوا جميعا وصاروا إلى الله فاز من كان على الحق وهلك من كان على الباطل، وفيه أيضا إخبار بأنه ﷺ سيموت لئلا يختلف الناس في موته كما اختلفت الأمم في غيره، وقد جاء أنه لما مات ﷺ أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] موته حتى احتج عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية فرجع إليها.

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ قيل: يعني الاختصام في الدماء وقيل في الحقوق والأظهر أنه اختصام النبي ﷺ مع الكفار في تكذيبهم له فيكون من تمام ما قبله، ويحتمل أن يكون على العموم في اختصام الخلائق فيما بينهم من المظالم وغيرها.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال إسماعيل يعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله، قال: بأبي أنت وأمي طبت حيا ميتا، والذي نفسي بيده لا يذيقنك الله الموتتين أبدا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾. وقال ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾. فنشج الناس يبكون... إلى آخر الحديث. البخاري الحديث ر قم: (٣٤٦٧)، وغيره.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المعنى لا أحد أظلم ممن كذب على الله، ويريد بالكذب على الله هنا ما نسبوا له من الشركاء والأولاد. ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ أي كذب بالإسلام والشريعة.

﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قيل: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدق به أبو بكر، وقيل: الذي جاء بالصدق جبريل والذي صدق به محمد ﷺ، وقيل: الذي جاء بالصدق الأنبياء والذي صدق به المؤمنون، واختار ابن عطية أن يكون على العموم وجعل الذي للجنس، كأنه قال: الفريق الذي لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق، والمراد به العموم.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تقوية لقلب محمد ﷺ وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية احتجاج على التوحيد، ورد على المشركين. ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية رد على المشركين وبرهان على الوحدانية وروي: أن سببها: أن المشركين خوفوا رسول الله ﷺ من آلهتم فنزلت الآية مبينة أنهم لا يقدرون على شيء، فإن قيل: كيف قال كاشفات وممسكات بالتأنيث؟ فالجواب: أنها لا تعقل فعاملها معاملة المؤنث، وأيضا ففي تأنيثها تحقير لها، وتهكم بمن عبدها.

﴿اعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ومسالمة منسوخة بالسيف. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ذكر في أول السورة.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ هذه الآية اعتبار، ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين:

أحدها: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾

لمن

والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت في كونه لا يبصر ولا يسمع، ومنه قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ وتقديرها: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أي يمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، ومعنى إمساكها أنه لا يردها إلى الدنيا. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يرسل الأنفس النائمة وإرسالها هو ردها إلى الدنيا، والأجل المسمى هو أجل الموت الحقيقي، وقد تكلم الناس في النفس والروح وأكثروا القول في ذلك بالظن دون تحقيق، والصحيح أن هذا مما استأثر الله بعلمه لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أم هنا بمعنى بل وهمزة الإنكار، والشفعاء هم الأصنام وغيرها لقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾. ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا﴾ دخلت همزة الاستفهام على واو الحال تقديره: يشفعون وهم لا يملكون شيئا ولا يعقلون.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكها فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه، وفي هذا رد على الكفار في قولهم: إن الأصنام تشفع لهم.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ الآية، معناها أن الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به، ومعنى اشمأزت انقبضت من شدة الكراهة، وروي: أن هذه الآية نزلت حين قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم فألقى الشيطان في أمنيته حسبما ذكرنا

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ • قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

ربع

في الحج، فاستبشر الكفار بما ألقى الشيطان من تعظيم اللات والعزى، فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان استكبروا واشمأزوا.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة، قال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم، أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقيل: معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هي سيئات، وقال الحسن[1] ويل لأهل الرياء من هذه الآية، وهذا على أنها في المسلمين، والظاهر أنها في الكفار.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ معنى حاق حل ونزل وقال ابن عطية وغيره إن هذا على حذف مضاف تقديره: حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزؤون، ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن ومعناه حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزؤون لأنهم كانوا في الدنيا يستهزؤون إذا خوفوا بعذاب الله ويقولون متى هذا الوعد.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل وجهين:

---

(١) لم أجده منسوبا للحسن وهو في كتب التفسير منسوب لسفيان الثوري المحرر الوجيز: ٤/٦٠٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٦٥، والكشاف: ٤/١٣٥، وتفسير الثعلبي: ٤/٦٠، والنسفي: ٤/٥٠.

أحدهما: وهو الأظهر أن يريد على علم مني بالمكاسب والمنافع.

والآخر: على علم الله باستحقاقي لذلك وإنما هنا تحتمل وجهين:

أحدهما: وهو الأظهر أن تكون ما كافة وعلى علم في موضع الحال.

والآخر: أن تكون ما اسم إن وعلى علم خبرها وإنما قال أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ رد على الذي قال إنما أوتيته على علم.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني قارون وغيره.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ قال علي بن أبي طالب[1] وابن مسعود، هذه أرجى آية في القرآن، وروي: أن رسول الله ﷺ قال[2]: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» واختلف في سببها، فقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة، وقيل: نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم وهذا قول عمر بن الخطاب وقد كتب بها إلى هشام بن العاص،[3] لما جرى له ذلك، وقيل: نزلت في قوم من أهل الجاهلية قالوا ما ينفعنا

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/٦٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) قال ابن عباس: نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله فأنزل، وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا وكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا به فنزلت هذه الآيات وكان عمر كاتباً فكتبها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا...

أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٧٨، ٢٧٩.

الإسلام وقد زنينا وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم، ومعناها مع ذلك على العموم في جميع الناس إلى يوم القيامة على تفصيل نذكره.

وذلك أن الذين أسرفوا على أنفسهم إن أراد بهم الكفار فقد اجتمعت الأمة على أنهم إذا أسلموا غفر لهم كفرهم وجميع ذنوبهم لقوله ﷺ[1]: «الإسلام يجب ما قبله» وأنهم إن ماتوا على الكفر فإن الله لا يغفر لهم بل يخلدهم في النار، وإن أراد به العصاة من المسلمين فإن العاصي إذا تاب غفر الله له ذنوبه وإن لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فالمغفرة المذكورة في هذه الآية: يحتمل أن يريد بها المغفرة للكفار إذا أسلموا، أو للعصاة إذا تابوا، أو للعصاة وإن لم يتوبوا إذا تفضل الله عليهم بالمغفرة، والظاهر أنها نزلت في الكفار وأن المغفرة المذكورة هي لهم إذا أسلموا، والدليل على أنها في الكفار ما ذكر بعدها إلى قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يعني اتبعوا القرآن وليس المعنى أن بعض القرآن أحسن من بعض لأنه حسن كله، إنما المعنى: أن يتبعوا بأعمالهم ما فيه من الأوامر ويجتنبوا ما فيه من النواهي، فالتفضيل الذي يقتضيه أحسن إنما هو في الاتباع، وقيل: يعني اتبعوا الناسخ دون المنسوخ، وهذا بعيد. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع مفعول من أجله، تقديره: كراهة أن تقول نفس وإنما ذكر النفس لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفوس الكفار.

﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حق الله، وقيل: في أمر الله وأصله من الجنب بمعنى الجانب ثم استعير لهذا المعنى. ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي المستهزئين.

---

(١) صحيح مسلم رقم: (١٢١) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه. وقال ابن كثير في تفسيره: وفي الصحيح أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها» ٤/٥٥.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ • وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَالسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

ثمن

﴿بَلَىٰ﴾ جواب للنفس التي حكى كلامها، ولا يجاوب ببلى إلا النفي وهي هنا جواب لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في معنى النفي لأن لو حرف امتناع وتقرير الجواب بل قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل وإنزاله الكتب وقال ابن عطية: هي جواب لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ فإن معناه يقتضي أن العمر يتسع للنظر فقيل له: بلى على وجه الرد عليه والأول أليق بسياق الكلام؛ لأن قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ تفسير لما تضمنته بلى.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ يحتمل أن يريد سواد اللون حقيقة أو يكون عبارة عن شدة الكرب.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أصله من الفوز والتقدير بسبب فوزهم وقيل: معناه بحسناتهم، وقيل: بفضائلهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي قائم بتدبير كل شيء.

﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح، وقيل: خزائن واحدها مقليد، وقيل: إقليد، وقيل: لا واحد لها من لفظها وأصلها كلمة فارسية وقال عثمان[1] بن عفان: سألت رسول الله ﷺ عن مقاليد السموات والأرض فقال: هي لا إله إلا الله، والله أكبر،

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠/٣٢٥٤.

وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، فإن صح هذا الحديث فمعناه أن من قال هذه الكلمات صادقا مخلصا نال الخيرات والبركات من السموات والأرض؛ لأن هذه الكلمات توصل إلى ذلك فكأنها مفاتيح له. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، قال الزمخشري: إنها متصلة بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾وما بينهما من الكلام اعتراض.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ منصوب بأعبد. ﴿تَأْمُرُونِيَ﴾ حذفت إحدى النونين تخفيفا وقرئ[1] بنونين على الأصل، وقرئ بإدغام إحدى النونين في الأخرى.

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ دليل على إحباط عمل المرتد مطلقا خلافا للشافعي في قوله لا يحبط عمله إلا إذا مات على الكفر فإن قيل: الموحى إليهم جماعة، والخطاب بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ لواحد؟ فالجواب: أن المعنى: أنه أوحى إلى كل واحد منهم على حدته. فإن قيل: كيف خوطب الأنبياء بذلك وهم معصومون من الشرك؟ فالجواب: أن ذلك على وجه الفرض والتقدير، أي لو وقع منهم شرك لحبطت أعمالهم لكنهم لا يقع منهم شرك بسبب العصمة، ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وخوطبوا هم ليدل المعنى على غيرهم بطريق الأولى.

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه بما يجب له ولا نزهوه عما لا يليق به والضمير في قدروا لقريش وقيل لليهود. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ المقصود بهذا تعظيم جلال الله والرد على الكفار الذين ما قدروا الله حق قدره ثم اختلف الناس فيها كاختلافهم في غيرها من المشكلات فقالت المتأولة: إن القبضة واليمين عبارة عن القدرة، وقال ابن الطيب: إنها صفة زائدة على صفات الذات، وأما السلف الصالح

---

(١) ﴿تأمروني﴾ قرأ المدنيان بتخفيف النون، وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، على خلاف عن ابن ذكوان، وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة. النشر: ٢/٤٠٤.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

فسلموا علم ذلك إلى الله ورأوا أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا الله، وقد قال ابن عباس[1]: ما معناه إن الأرض في قبضته، والسموات مطويات كل ذلك بيمينه، وقال ابن عمر[2]: ما معناه إن الأرض في قبضة اليد الواحدة، والسموات مطويات باليمين الأخرى، لأن كلتا يديه يمين.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهذه النفخة نفخة الصعق وهو الموت وقد قيل إن قبلها نفخة الفزع، ولم تذكر في هذه الآية. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: يعني جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت ثم يميتهم الله بعد ذلك وقيل استثناء الأنبياء، وقيل: الشهداء.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ هي نفخة القيام. ﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ قيل: إنه من النظر، وقيل: من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني صحائف الأعمال، وإنما وحدها لأنه أراد الجنس، وقيل: هو اللوح المحفوظ ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليشهدوا على قومهم. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ يحتمل أن يكون جمع شاهد أو جمع شهيد في سبيل الله، والأول أرجح لأن فيه

---

(١) قال ابن جرير: وكان ابن عباس يقول: إنما يستعين بشماله المشغولة يمينه، وإنما الأرض والسموات كلها بيمينه، وليس في شماله شيء. الطبري في جامع البيان: ٣٢٥/٢١.

(٢) الطبري في جامع البيان: ٣٢٨/٢١.

الوعيد معنى، ولأنه أليق بذكر الأنبياء الشاهدين، والمراد على هذا أمة محمد ﷺ لأنهم يشهدون على الناس، وقيل: يعني الملائكة الحفظة. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ الضمير لجميع الخلق.

﴿زُمَرًا﴾ في الموضعين جمع زمرة وهي الجماعة من الناس، وقال رسول الله ﷺ[1]: «أول زمرة يدخلون الجنة وجوههم على مثل القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على مثل أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل». ﴿خَزَنَتُهَا﴾ جمع خازن حيث وقع. ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني القضاء السابق بعذابهم.

﴿وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ إنما قال في الجنة وفتحت أبوابها بالواو، وقال في النار فتحت بغير واو؛ لأن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل مجيء أهلها، والمعنى حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتوحة، فالواو واو الحال، وجواب إذا على هذا محذوف، وأما أبواب النار فإنها فتحت حين جاؤوها، فوقع قوله: ﴿فُتِّحَتْ﴾ جواب الشرط، فكأنه بغير واو، وقال الكوفيون: الواو في أبواب الجنة واو الثمانية[2]؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، وقيل: الواو زائدة وفتحت هو الجواب.

---

(١) في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ - الألنجوج عود الطيب - وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلاَقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ». البخاري الحديث رقم: (٣١٤٩)، ومسلم الحديث رقم: (٧٣٢٨).

(٢) ذهب قوم إلى إثبات هذه الواو منهم ابن خالويه والحريري وجماعة من ضعفة النحويين، قالوا من خصائص كلام العرب إلحاق الواو في الثامن من العدد، و ذهب المحققون إلى أن الواو في ذلك إما عاطفة وإما واو الحال، ولم يثبتوا واو الثمانية، وأنكر الفارسي واو الثمانية لما ذكرها ابن خالويه، وقال ابن هشام: إن واو الثمانية لا حقيقة لها. مغني اللبيب ص ٨٥٩.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرض الجنة، والوراثة هنا استعارة، كأنهم ورثوا موضع من لم يدخل الجنة. ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ أي ننزل من الجنة حيث نشاء ونتخذه مسكنا.

﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي محدقين به دائرين حوله. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ الضمير لجميع الخلق كالموضع الأول، ويحتمل هنا أن يكون للملائكة، والقضاء بينهم: توفية أجورهم على حسب منازلهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون القائل لذلك الملائكة، أو جميع الخلق، أو أهل الجنة، لقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

❊❊ ❊❊ ❊❊

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ
(مكية) (آياتها ٨٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

• حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

سورة غافر

﴿حمٓ﴾ تقدم الكلام على حروف الهجاء، وتختص حم بأن معناها حم الأمر أي قضي، وقال ابن عباس[1]: ألر، وحم، ون: هي حروف الرحمن. ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾: ذكر في الزمر.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإنعام، وقيل: الطول الغنى والسعة.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ جعل لا يغررك بمعنى لا يحزنك ففيه تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووعيد للكفار.

﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ يراد بهم عاد وثمود وغيرهم. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليقتلوه. ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أي ليبطلوا به الحق.

﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجب قضاؤه.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ عطف على الذين يحملون. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إن قيل: ما فائدة قوله ويؤمنون به ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله يؤمنون بالله؟ فالجواب: أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه، قال ذلك الزمخشري، وقال: إن فيه فائدة أخرى، وهي: أن معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال كسائر الخلق لا بالرؤية، وهذه نزعته إلى مذهب المعتزلة في استحالة رؤية الله. ﴿وَسِعْتَ

(١) الطبري في جامع البيان: ٢١/٣٤٥.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أصل الكلام وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فالسعة في المعنى مسندة إلى الرحمة والعلم، وإنما أسندتا إلى الله تعالى في اللفظ لقصد المبالغة في وصف الله تعالى بهما، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء[1].

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قهم السيئات نفسها بحيث لا يفعلونها، أو يكون المعنى قهم جزاء السيآت فلا تؤاخذهم بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المقت البغض الذي يوجبه ذنب أوعيب، وهذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار فإنهم إذا دخلوها مقتوا أنفسهم أي مقت بعضهم بعضا، ويحتمل أن يمقت كل واحد منهم نفسه فتناديهم الملائكة وتقول لهم: مقت الله لكم في الدنيا على كفركم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، فقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل، وحذف المفعول لدلالة مفعول مقتكم عليه، وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ ظرف العامل فيه من طريق المعنى، ويمتنع أن يعمل فيه من طريق قوانين النحو؛ لأن مقت الله مصدر، فلا يجوز أن يفصل بينه وبين بعض صلته، فيحتاج أن يقدر للظرف عامل، وعلى هذا أجاز بعضهم الوقف على قوله: أنفسكم، والابتداء بالظرف وهذا ضعيف؛ لأن المراعى المعنى، وقد جعل الزمخشري مقت الله عاملا في

---

(١) الكشاف: ٤/١٥٥.

الظرف[١] ولم يعتبر الفصل.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فالموتة الأولى عبارة عن كونهم عدما، أو كونهم في الأصلاب، أو في الأرحام، والموتة الثانية: الموت المعروف، والحياة الأولى: حياة الدنيا، والحياة الثانية: حياة البعث في القيامة، وقيل: الحياة الأولى حياة الدنيا، والثانية الحياة في القبر، والموتة الأولى: الموت المعروف، والموتة الثانية: بعد حياة القبر، وهذا قول فاسد؛ لأنه لابد من الحياة للبعث، فتجيء الحياة ثلاث مرات، فإن قيل: كيف اتصال قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين بما قبله؟ فالجواب: أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث، فلما دخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم حينئذ، فقولهم: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين إقرار بالبعث على أكمل الوجوه، طمعا منهم أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله، إذ كانوا يدعون إلى الإسلام فيكفرون.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ الفاء هنا رابطة معناها التسبب، فإن قيل: كيف يكون قولهم: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين سببا لاعترافهم بالذنوب؟ فالجواب: أنهم كانوا كافرين بالبعث، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم، علموا أن الله قادر على البعث فاعترفوا بذنوبهم، وهي إنكار البعث وما أوجب لهم إنكاره من المعاصي، فإن من لم يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ الباء سببية للتعليل، والإشارة بذلكم يحتمل أن تكون للعذاب الذي هم فيه، أو إلى مقت الله لهم أو مقتهم

---

(١) وممن منع ذلك أبو البقاء العكبري فقال: و﴿إذ﴾ ظرف لفعل محذوف تقديره: مقتكم إذ تدعون، ولا يجوز أن يعمل فيه مقت الله لأنه مصدر قد أخبر عنه، وهو قوله: ﴿أكبر من﴾ ولا مقتكم لأنهم لم يمقتوا أنفسهم حين دعوا إلى الإيمان، وإنما مقتوها في النار، وعند ذلك لا يدعون إلى الإيمان. إملاء ما من به الرحمن: ٢/٢١٧.

لأنفسهم، والأحسن أن تكون إشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام وذلك أنهم لما قالوا فهل إلى خروج من سبيل كأنهم قيل لهم: لا سبيل إلى الخروج، فالإشارة بقوله ذلكم إلى عدم خروجهم من النار.

﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني العلامات الدالة عليه من مخلوقاته ومعجزات رسله. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ يعني المطر.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى مرتفع الدرجات فيكون بمعنى العالي، أو رافع درجات عباده في الجنة وفي الدنيا ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ﴾ يعني الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور، أو الأمر بالخبر فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لابتداء الغاية، وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يعني يوم القيامة، وسمي بذلك؛ لأن الخلائق يلتقون فيه، وقيل: لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض، وقيل: لأنه يلتقي الخلق مع ربهم، والفاعل في ينذر ضمير يعود على من يشاء، أو على الروح أو على الله.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا من كلام الله تعالى تقريرا للخلق يوم القيامة، فيجيبونه ويقولون: لله الواحد القهار، وقيل: بل هو الذي يجيب نفسه لأن الخلق يسكتون هيبة له، وقيل: إن القائل لمن الملك اليوم ملك.

﴿يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يعني القيامة ومعناه القريبة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازا عبر به عن شدة الخوف، والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق. ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي محزونين حزنا شديدا، كقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وقيل: معناه يكظمون حزنهم أي يطمعون أن يخفوه والحال تغلبهم، وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب؛ لأن معناه قلوب الناس، أو من المفعول في أنذرهم، أو من القلوب، وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾

ربع

أفعال العقلاء.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يحتمل أن يكون نفي الشفاعة وطاعة الشفيع، أو نفي طاعة الشفيع خاصة، كقولك: ما جاءني رجل صالح، فنفيت الصلاح وإن كان قد جاءك رجل غير صالح، والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي استراق النظر، والخائنة مصدر بمعنى الخيانة، أو وصف للنظرة، وهذا الكلام متصل بما تقدم من ذكر الله، واعتراض في أثناء ذلك بوصف القيامة، لما استطرد إليه من قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة وهي المعجزات.

﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ هذا القتل غير القتل الذي كانوا يقتلون أولاً قبل ميلاد موسى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ المعنى أنه لا يبالي بدعاء موسى لربه، ولا يخاف من ذلك إن قتله، ويظهر من قوله: ﴿ذَرُونِىٓ﴾ أنه كان في الناس من ينازعه في قتل موسى، وذلك يدل على أن فرعون كان قد اضطرب أمره بظهور معجزات موسى ﴿وَأَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ يعني فساد أحوالهم في

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ • وَقَالَ الَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

الدنيا، وقرئ[1] وأن يظهر بالواو وبأو، ويظهر بفتح الياء ورفع الفساد على الفاعلية، وبضم الياء ونصب الفساد على المفعولية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ﴾ الآية لما سمع موسى ما هم به فرعون من قتله استعاذ بالله، فعصمه الله منه، وقال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: اسم هذا الرجل حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل: شمعون بالشين المعجمة، وروي أن هذا الرجل المؤمن كان ابن عم فرعون، فقوله: من آل فرعون صفة للمؤمن، وقيل: كان من بني إسرائيل، فقوله: من آل فرعون على هذا يتعلق بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُۥٓ﴾ والأول أرجح لأنه لا يحتاج فيه إلى تقديم وتأخير، ولقوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ لأن هذا كلام قريب شفيق، ولأن بني إسرائيل حينئذ كانوا أذلاء بحيث لا يتكلم أحد منهم بمثل هذا لكلام و﴿أَن يَقُولَ﴾ في موضع المفعول من أجله، تقديره: أتقتلونه من أجل أن يقول ربي الله ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي إن كان موسى كاذبا في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه، فلأي شيء تقتلونه؟

---

(١) قال الداني: الكوفيون ﴿أو أن﴾ بزيادة ألف قبل الواو مع إسكان الواو، والباقون بفتح الواو من غير ألف، نافع وأبو عمرو وحفص ﴿يظهر﴾ بضم الياء وكسر الهاء في الأرض ﴿الفساد﴾ بالنصب والباقون بفتح الياء والهاء والفساد بالرفع. التيسير، ص: ١٢٤، وانظر النشر: ٢/٤٠٥.

فإن قيل: كيف قال: وإن يك كاذبا بعد أن كان قد آمن به؟ فالجواب: أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له، وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير، وقصد بذلك المحاجة لقومه، فقسم أمر موسى إلى قسمين؛ ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين. ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ قيل: إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد، وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام، ويبعد عن التعصب لموسى، ويظهر النصيحة لفرعون وقومه، فيرتجي إجابتهم للحق.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ﴾ هو المؤمن المذكور أولا، وقيل: هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا بعيد، وإنما توهموا ذلك لأنه صرح هنا بالإيمان، وكان كلام المؤمن أولا غير صريح بل كان فيه تورية وملاطفة لقومه، إذ كان يكتم إيمانه، والجواب أنه كتم إيمانه أول الأمر، ثم صرح به بعد ذلك وجاهرهم مجاهرة ظاهرة؛ لما وثق بالله حسبما حكى الله من كلامه إلى قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعني يوم القيامة، وسمي بذلك لأن المنادي ينادي الناس وذلك قوله ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ﴾ وقيل: لأن بعضهم ينادي بعضا، أي ينادي أهل الجنة: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، وينادي أهل النار أن أفيضوا علينا من الماء.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي منطلقين إلى النار، وقيل: هاربين من النار ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: هو يوسف بن يعقوب، وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، والبينات التي جاء بها يوسف لم تعين لنا، واختلف: هل أدركه فرعون موسى أو فرعون آخر قبله؟ لأن كل من ملك مصر يقال له فرعون.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ كلامهم هذا لا يدل على أنهم مؤمنون برسالة يوسف، وإنما مرادهم لم يأت أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: إنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بدل من مسرف مرتاب، وإنما جاز إبدال الجمع من المفرد؛ لأنه في معنى الجمع، كأنه قال: كل مسرف ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ فاعل كبر مصدر يجادلون، وقال الزمخشري: الفاعل ضمير ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾.

﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الأسباب هنا الطرق، وقيل: الأبواب، وكررها للتفخيم وللبيان.

﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرفع[1] عطف على أبلغ وبالنصب بإضمار أن في جواب لعل؛ لأن الترجي غير واجب فهو كالتمني في انتصاب جوابه، ولا نقول إن لعل أشربت معنى ليت كما قال بعض النحاة. ﴿تَبَابٍ﴾ أي خسران.

﴿مَتَٰعٌ﴾ أي يتمتع به قليلا، فإن قيل: لم كرر المؤمن نداء قومه مرارا؟ فالجواب: أن ذلك لقصد التنبيه لهم وإظهار الملاطفة والنصيحة. فإن قيل: لم جاء بالواو في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ في الثالث دون الثاني؟ فالجواب: أن الثاني بيان للأول وتفسير، فلم يصح عطفه عليه، بخلاف الثالث فإنه كلام آخر، فصح عطفه عليه

---

(١) ﴿فأطلع﴾ روى حفص بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها. النشر: ٢/٤٠٥.

• وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ليس لي علم بربوبيته، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وإذا لم يكن إلها لم يصح علم ربوبيته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لابد ولا شك. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ قال ابن عطية: ليس له قدر ولا حق يجب أن يدعى إليه، كأنه قال: أتدعونني إلى عبادة ما لا خطر له في الدنيا ولا في الآخرة، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليس له دعوة قائمة، أي لا يدعى أحد إلى عبادته.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ دليل على أن من فوض أمره إلى الله ﷻ كان الله معه.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ النار بدل من سوء العذاب، أو مبتدأ أو خبر مبتدإ مضمر، وعرضهم عليها من حين موتهم إلى يوم القيامة، وذلك مدة البرزخ بدليل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ واستدل أهل السنة بذلك على صحة ما ورد من عذاب القبر، وروي[1]: أن أرواحهم في أجواف طيور سود، تروح بهم وتغدو إلى النار ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قيل: معناه في كل غدوة وعشية من أيام الدنيا وقيل المعنى على تقدير ما بين الغدوة والعشية لأن الآخرة لا غدوة

(١) روى الطبري من طريق الثوري عن أبي قيس عن هزيل بن شرحبيل قال: أرواح آل فرعون في طيور سود تغدو وتروح على النار، فذلك عرضها، ووصله ابن أبي حاتم من طريق ليث عن أبي قيس، فذكر عبد الله بن مسعود فيه، وليث ضعيف. فتح الباري: ٢٣٣/٣.

﴿قَالُواْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ الْكَـٰفِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ۝٥٢ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ الْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدىً وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الأَلْبَٰبِ ۝٥٤ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَٰرِ ۝٥٥ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَٰتِ وَلاَ الْمُسِيٓءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾

نصف

فيها ولا عشية.

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ إن قيل: هلا قال الذين في النار لخزنتها فلم صرح باسمها؟ فالجواب: أن في ذكر جهنم تهويلا ليس في ذكر الضمير.

﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ الْكَـٰفِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَٰلٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلام خزنة جهنم فيكون متصلا بقوله فادعوا أو يكون من كلام الله تعالى استئنافا.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن أظهره الله على الكفار، وليس بعام لأن من الأنبياء من قتله قومه كزكرياء ويحيى، والصحيح أنه عام والجواب: عما ذكروه أن زكرياء ويحيى لم يكونا من الرسل، إنما كانا من الأنبياء الذين ليسوا بمرسلين، وإنما ضمن الله نصر الرسل خاصة لا نصر الأنبياء كلهم. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ يعني يوم القيامة، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد، ويحتمل أن يكون بمعنى الحضور أو الشهادة على الناس، أو الشهادة في سبيل الله، والأظهر أنه بمعنى الشهادة على الناس، لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يحتمل أنهم لا يعتذرون أو يعتذرون، ولكن لا تنفعهم معذرتهم، والأول أرجح لقوله: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فنفى الاعتذار والانتفاع به.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني وعده لسيدنا محمد ﷺ بالنصر والظهور على

أعدائه الكفار. ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قيل: العشي صلاة العصر، والإبكار صلاة الصبح، وقيل: العشي بعد العصر إلى الغروب، والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يعني كفار قريش. ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي تكبر وتعاظم يمنعهم من أن يتبعوك أو ينقادوا إليك، وقيل: كبرهم أنهم أرادوا النبوءة لأنفسهم ورأوا أنهم أحق بها، والأول أظهر لأن إرادتهم النبوءة لأنفسهم حسد، والأول هو الكبر. ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ أي لا يبلغون ما يقتضيه كبرهم من الظهور عليك، ومن نيل النبوءة. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي استعذ من شرهم لأنهم أعداء لك، واستعذ من مثل حالهم في الكبر والحسد، واستعذ بالله في جميع أمورك على الإطلاق.

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ الخلق هنا مصدر مضاف إلى المفعول، والمراد به الاستدلال على البعث؛ لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها، وقيل: المراد توبيخ الكفار المتكبرين، كأنه قال: خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فما بال هؤلاء يتكبرون على خالقهم وهم من أصغر مخلوقاته وأحقرهم؟ والأول أرجح لوروده في مواضع من القرآن، لأنه قال بعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فقدم الدليل ثم ذكر المدلول.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الدعاء هنا هو الطلب والرغبة، وهذا وعد مقيد بالمشيئة، وهي موافقة القدر لمن أراد أن يستجيب له، وقيل: ادعوني هنا بمعنى اعبدوني بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وقوله ﷺ[1]: «الدعاء هو العبادة» ثم تلا الآية، وأستجب لكم على هذا القول بمعنى

---

(١) أخرجه أبو داود الحديث ر قم: (١٢٦٤)، والترمذي الحديث رقم: (٢٨٩٥)، وابن ماجه الحديث ر قم: (٣٨١٨)، والمسند الحديث رقم: (١٧٦٢٩).

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

ربع

أغفر لكم أو أعطيكم أجوركم، والأول أظهر ويكون قوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ بمعني يستكبرون عن الرغبة إلي، كما قال ﷺ[1]: «من لم يسأل الله يغضب عليه» وأما قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[2] فمعناه أن الدعاء والرغبة إلى الله هي العبادة؛ لأن الدعاء يظهر فيه افتقار العبد وتضرعه إلى الله. ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ذكر في يونس.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني المستلذات لأنه إذا جاء ذكر الطيبات في معرض الإنعام فيراد به المستلذات، وإذا جاء في معرض التحليل والتحريم فيراد به الحلال والحرام.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا متصل بما قبله، قال ذلك ابن عطية والزمخشري، وتقديره: ادعوه مخلصين قائلين: الحمد لله رب العالمين، ولذلك قال ابن عباس[3]: «من قال لا إله إلا الله، فليقل الحمد لله رب العالمين» ويحتمل

---

(١) الترمذي في سننه الحديث رقم: (٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد الحديث رقم: (٦٥٨) قال الشيخ الألباني: حسن...

(٢) الترمذي الحديث رقم: (٢٩٦٩)، وأبو داود في سننه، الحديث رقم: (١٤٨١)، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٥٠، والطبري في جامع البيان: ٢١/٤٠٧، وصححه الألباني.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان بلفظ: «من قال لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله ربّ العالمين...» جامع البيان: ٢١/٤١٠.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

أن يكون الحمد لله استئنافا.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أراد الجنس، ولذلك أفرد لفظه مع أن الخطاب لجماعة. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ ذكر الأشد في سورة يوسف عليه السلام، واللام تتعلق بفعل محذوف، تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا، وكذلك لتكونوا، وأما لتبلغوا أجلا مسمى فمتعلق بمحذوف آخر، تقديره: فعل ذلك بكم لتبلغوا أجلا مسمى وهو الموت، أو يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يعني كفار قريش، وقيل: هم أهل الأهواء كالقدرية وغيرهم، وهذا مردود بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ إلا إن جعلته منقطعا عما قبله، وذلك بعيد.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ العامل في إذ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وجعل الظرف الماضي من الموضع المستقبل لتحقق الأمر. ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ﴾ أي يجرون، والحميم الماء الشديد الحرارة.

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ هذا من قولك: سجرت التنور إذا ملأته بالنار، فالمعنى: أنهم يدخلون فيها كما يدخل الحطب في التنور، ولذلك قال مجاهد[1] في تفسيره توقد بهم النار.

﴿تَمْرَحُونَ﴾ من المرح وهو الأشر والبطر وقيل: الفخر والخيلاء.

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢١/٤١٦، وابن أبي حاتم في تفسيره: ١٠/٣٢٦٩.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إن قيل: قياس النظم أن يقول: بئس مدخل الكافرين لأنه تقدم قبله ادخلوا؟ فالجواب: أن الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثوى.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أصل إما نرينك إن نريك، ودخلت ما الزائدة بعد إن الشرطية، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب قرت عينك بذلك، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون فننتقم منهم أشد الانتقام.

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ روي[1] عن النبي ﷺ أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول. وفي حديث آخر: أربعة آلاف وفي حديث أبي ذر: «**إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، منهم الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر**» فذكر الله بعضهم في القرآن فهم الذين قص عليه ولم يذكر سائرهم فهم الذين لم يقصص عليه. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزمخشري: أمر الله القيامة، وقال ابن عطية: المعنى إذا أراد الله إرسال رسول قضي ذلك، ويحتمل أن يريد بأمر الله إهلاك المكذبين للرسل لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان، وأصله ظرف مكان، ثم وضع موضع الزمان.

﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ هي: الإبل والبقر والضأن والمعز، فقوله: ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ يعني الإبل، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني اللحوم والمنافع: منها اللبن، والصوف، وغير ذلك

---

(١) كل هذه الآثار ذكر ابن عطية بدون ذكر أسانيد، المحرر الوجيز: ٤/٦٣٥.

﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً﴾ يعني قطع المسافة البعيدة وحمل الأثقال على الإبل و﴿تُحْمَلُونَ﴾ يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله: ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾؛ لأنه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان، وبالحمل عليها الأسفار البعيدة، قاله ابن عطية.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ولذلك وبخهم بقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الضمير يعود على الأمم المكذبين وفي تفسير علمهم وجوه:

أحدها: أنه ما كانوا يعتدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون.

والثاني: أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها.

والثالث: أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع.

وقيل: الضمير يعود على الرسل، أي فرحوا بما أعطاهم الله من العلم بالله وشرائعه، أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم، وأما الضمير في وحاق بهم فيعود على الكفار باتفاق، ولذلك ترجح أن يكون الضمير في فرحوا يعود عليهم ليتسق الكلام.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم.

❊❊ ❊❊ ❊❊

سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

حمٓ تَنزِيلٞ مِّنَ اَ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِےٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِےٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٞ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٞ فَاعْمَلِ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٤﴾ قُلِ اِنَّمَآ أَنَا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَيٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٞ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ اَ۬لذِينَ لَا يُوتُونَ اَ۬لزَّكَوٰةَ وَهُم بِالَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ لَهُمُۥٓ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٖ ﴿٧﴾ ۞ قُلَ اَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِے خَلَقَ اَ۬لَارْضَ فِے يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَاداٗۖ ذَٰلِكَ رَبُّ اُ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِےٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٩﴾ ثُمَّ اَ۪سْتَوَيٰٓ إِلَي اَ۬لسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلَارْضِ اِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاٗۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١٠﴾

ربع

سورة حم السجدة

﴿فُصِّلَتْ﴾ أي بينت، وقيل: قطعت إلى سور وآيات. ﴿قُرْءَاناً عَرَبِيّاً﴾ منصوب بفعل مضمر على التخصيص، أو حال أو مصدر. ﴿لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها، وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف، وقيل: معناه يعلمون الحق والإيمان فالأول عام وهذا خاص والأول أولى لقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ لأن الإعراض ليس من صفة المؤمنين، وقيل: يعلمون لسان العرب فيفهمون القرآن إذ هو بلغتهم وقوله: ﴿لِّقَوْمٖ﴾ يتعلق بتنزيل أو فصلت، والأحسن أن يكون صفة لكتاب. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون، وعبر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة.

﴿فِےٓ أَكِنَّةٖ﴾ جمع كنان، وهو الغطاء. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٞ﴾ عبارة عن بعدهم عن الإسلام. ﴿فَاعْمَلِ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: معناه اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا، فهي متاركة، وقيل: اعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، فهو تهديد.

﴿اَ۬لذِينَ لَا يُوتُونَ اَ۬لزَّكَوٰةَ﴾ هي زكاة المال، وإنما خصها بالذكر لصعوبتها على الناس، ولأنها من أركان الإسلام، وقيل: يعني بالزكاة التوحيد وهذا بعيد، وإنما حمله على ذلك لأن الآيات مكية لم تفرض الزكاة إلا بالمدينة، والجواب أن

المراد النفقة في طاعة الله مطلقا، وقد كانت مأمورا بها بمكة.

﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع، من قولك: مننت الحبل إذا قطعته، وقيل: غير منقوص، وقيل: غير محصور، وقيل: لا يمن عليهم به؛ لأن المن يكدر الإحسان.

﴿أَندَادًا﴾ أي أمثالا وأشباها من الأصنام وغيرها.

﴿رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال. ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أكثر خيرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي أرزاق أهلها ومعاشهم، وقيل: يعني أقوات الأرض من المعادن وغيرها من الأشياء التي بها قوام الأرض، والأول أظهر. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين، فتلك أربعة أيام، وخلق السموات في يومين فتلك ستة أيام حسبما ذكر في مواضع كثيرة، ولو كانت هذه الأربعة الأيام زيادة على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملة ثمانية أيام، بخلاف ما ذكر في المواضع الكثيرة. ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب مصدر، تقديره: استوت استواء قاله الزمخشري، وقال ابن عطية: انتصب على الحال. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قيل: معناه لمن سأل عن أمرها، وقيل: معناه للطالبين لها، ويعني بالطلب على هذا حاجة الخلق إليها، وحرف الجر يتعلق بمحذوف على القول الأول، تقديره: يبين ذلك لمن سأل عنه ويتعلق بقدر على القول الثاني.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ أي قصد إليها ويقتضي هذا الترتيب أن الأرض خلقت قبل السماء، فإن قيل: كيف الجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾؟ فالجواب: أنها خلقت قبل السماء، ثم دحيت بعد ذلك. ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ روي[1]: أنه كان العرش على الماء فأخرج إليه من الماء دخان فارتفع فوق الماء فأيبس الماء فصار أرضا، ثم خلق السموات من الدخان المرتفع ﴿فَقَالَ لَهَا

(١) لم أجده مسندا وهو يحتاج إلى نقل صحيح.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

ثمن

﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هذه عبارة عن لزوم طاعتهما كما يقول الملك لمن تحت يده: افعل كذا شئت أو أبيت، أي لا بد لك من فعله، وقيل: تقديره ائتيا طوعا وإلا أتيتما كرها، ومعنى هذا الإتيان تصويرهما على الكيفية التي أرادها الله، وقوله لهما: ائتيا مجاز وهو عبارة عن تكوينه لها وكذلك قولهما: أتينا طائعين عبارة عن أنهما لم يمتنعا عليه حين أراد تكوينهما، وقيل: بل ذلك حقيقة، وأنطق الله الأرض والسماء بقولهما: أتينا طائعين، وإنما جمع طائعين جمع العقلاء لوصفهما بأوصاف العقلاء.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي صنعهن والضمير للسموات السبع وانتصابها على التمييز تفسيرا للضمير، وأعاد عليها ضمير الجماعة المؤنثة؛ لأنها لا تعقل فهو كقولك: الجذوع انكسرت، وجمعهما جمع المذكر العاقل في قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ لأنه وصفهما بالطوع وهو فعل العقلاء فعاملهما معاملتهم فهو كقولك: رأيتهم لي ساجدين، وأعاد ضمير التثنية في قوله: قالتا أتينا؛ لأنه جعل الأرض فرقة والسماء أخرى. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى إلى سكانها من الملائكة وإليها نفسها ما شاء من الأمور التي بها قوامها وصلاحها، وأضاف الأمر إليها لأنه فيها. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يعني الشمس والقمر والنجوم وهي زينة للسماء الدنيا سواء كانت فيها أو فيما فوقها من السموات. ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظا ويجوز أن يكون مفعولا من أجله على المعنى، كأنه قال:

وخلقنا المصابيح زينة وحفظا.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ الضمير لقريش. ﴿صَاعِقَةً﴾ يعني واقعة واحدة شديدة، وهي مستعارة من صاعقة النار، وقرئ[1] صعقة بإسكان العين وهي الواقعة من قولك: صعق الرجل.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ معنى ما بين الأيدي المتقدم ومعنى ما خلف المتأخر، فمعنى الآية أن الرسل جاؤوهم في الزمان المتقدم واتصلت نذارتهم إلى زمان عاد وثمود حتى قامت عليهم الحجة بذلك، من بين أيديهم ثم جاءتهم رسل آخرون عند اكتمال أعمارهم فذلك من خلفهم قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: معناه أتوهم من كل جانب، فهو عبارة عن اجتهادهم في التبليغ إليهم، وقيل: أخبروهم بما أصاب من قبلهم فذلك ما بين أيديهم، وأنذروهم ما يجرى عليهم في الزمان المستقبل وفي الآخرة فذلك من خلفهم. ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أن حرف عبارة وتفسير، أو مصدرية على تقدير بأن لا تعبدوا إلا الله. ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ليس فيه اعتراف الكفار بالرسالة، وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودعواكم، وفيه تهكم.

﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾ قيل: إنه من الصر وهو شدة البرد، فمعناه باردة، وقيل: إنه من قولك: صرصر إذا صوت فمعناه لها صوت هائل.

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ معناه من النحس وهو ضد السعد، وقيل: شديدة البرد وقيل متتابعة والأول أرجح، وروي: أنها كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء.

---

(١) قال ابن عطية: وقرأ النخعي وأبو عبد الرحمن وابن محيصن ﴿صعقة مثل صعقة﴾ فأما هذه القراءة الأخيرة فبينة المعنى؛ لأن الصعقة الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار، فشبهت هنا وقعة العذاب بها لأن عادا لم تعذب إلا بريح وإنما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقيعة فسر هنا الصاعقة قاله قتادة وغيره. المحرر الوجيز: ٥/٨.

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٨﴾

ربع

وقرئ[1] نحسات بإسكان الحاء وكسرها، فأما الكسر فهو جمع نحس وهو صفة، وأما الإسكان فتخفيف من الكسر على وزن فعل، أو وصف بالمصدر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بينا لهم، فهو بمعنى البيان لا بمعنى الإرشاد.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يدفعون بعنف.

﴿وَجُلُودُهُم﴾ يعني الجلود المعروفة، وقيل: هو كناية عن الفروج، والأول أظهر.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآيات يحتمل أن تكون من كلام الجلود أو من كلام الله تعالى أو الملائكة، وفي معناه وجهان:

أحدهما: لم تقدروا أن تستتروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنها ملازمة لكم، فلم يمكنكم احتراس من ذلك، فشهدت عليكم.

والآخر: لم تتحفظوا من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنكم لم تبالوا بشهادتها ولم تظنوا أنها تشهد عليكم، وإنما استترتم لأنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون، وهذا أرجح لا تساق ما بعده معه، ولما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: اجتمع ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فتحدثوا بحديث، فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ فقال الآخر: إنه يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا، فقال الآخر: إن كان

---

(١) ﴿نحسات﴾ قرأ ابن جعفر وابن عامر والكوفيون بكسر الحاء، وقرأ الباقون بإسكانها النشر: ٢/٤٠٦.

يسمع منا شيئا فإنه يسمعه كله، فنزلت الآية[١].

﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم من الردى بمعنى الهلاك.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ هو من العتب بمعنى الرضا، أي إن طلبوا العتبى ليس فيهم من يعطاها.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي يسرنا لهم قرناء سوء، من الشياطين وغواة الإنس. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما بين أيديهم ما تقدم من أعمالهم، وما خلفهم ما هم عازمون عليه، أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة، والتكذيب بها. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي سبق عليهم القضاء بعذابهم. ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي في جملة أمم، وقيل: في بمعنى مع.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ روي: أن قائل هذه المقالة أبو جهل بن هشام لعنه الله. ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ المعنى لا تسمعوا إليه وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات وإنشاد الشعر وشبه ذلك، حتى لا يسمعه أحد، وقيل: معناه قعوا فيه وعيبوه.

﴿أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ يقولون هذا إذا دخلوا جهنم فقولهم مستقبل ذكر بلفظ الماضي لتحققه ومعنى اللذين أضلانا كل من أغوانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقيل: المراد ولد آدم الذي سن القتل، وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان، وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاص، وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر. ﴿تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي في أسفل طبقة من النار.

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢] استقاموا على قولهم ربنا الله

---

(١) مسند ابن أبي شيبة الحديث رقم: (٢٥٥).

(٢) الطبري في جامع البيان: ٢١/٤٦٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فصح إيمانهم ودام توحيدهم، وقال عمر بن الخطاب[1] المعنى استقاموا على الطاعة وترك المعاصي، وقول عمر أكمل وأحوط، وقول أبي بكر أرجح؛ لما روى أنس[2] أن رسول ﷺ قرأ هذه الآية وقال: قد قالها قوم ثم كفروا، فمن مات عليها فهو ممن استقام، وقال بعض الصوفية[3]: معنى استقاموا أعرضوا عما سوى الله، وهذه حالة الكمال، على أن اللفظ لا يقتضيه. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني عند الموت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ الضمير للآخرة. ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبون.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي لا أحد أحسن قولا منه، ويدخل في ذلك كل من دعا إلى عبادة الله أو طاعته على العموم، وقيل: المراد سيدنا محمد ﷺ، وقيل: المؤذنون وهذا بعيد لأنها مكية وإنما شرع الأذان بالمدينة، ولكن المؤذنين يدخلون في العموم.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ الضمير يعود على الخلق الجميل، الذي يتضمنه قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي حظ من العقل والفضل، وقيل: حظ عظيم في الجنة.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ إن شرطية دخلت عليها ما الزائدة، ونزغ الشيطان: وساوسه

(١) المحرر الوجيز: ١٤/٥.
(٢) ابن كثير: ١٧٥/٧.
(٣) قال الشوكاني: وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. فتح القدير: ٧٣٣/٤.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

وأمره بالسوء.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير يعود على الليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن جماعة مالا يعقل كجماعة المؤنث، أو كالواحدة المؤنثة، وقيل: إنما يعود على الشمس والقمر، وجمعهما لأن الاثنين جمع، وهذا بعيد.

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ الملائكة. ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون.

﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ عبارة عن قلة النبات. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ ذكر في الحج. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ تمثيل واحتجاج على صحة البعث.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يطعنون عليها وهذا الإلحاد هو بالتكذيب وقيل: باللغو فيه، حسبما تقدم في السورة. ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ الآية، قيل: إن المراد بالذي يلقى في النار أبو جهل، وبالذي يأتي آمنا عثمان بن عفان، وقيل: عمار بن ياسر، واللفظ أعم من ذلك ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ تهديد لا إباحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الذكر هنا القرآن باتفاق، وخبر إن محذوف، تقديره: ضلوا أو هلكوا، وقيل: خبرها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وذلك بعيد. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كريم على الله، وقيل: منيع من الشيطان.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ليس فيما تقدمه ما يبطله، ولا يأتي بعده ما يبطله، والمراد على الجملة أنه لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: ما يقول الله لك من الوحي والشرائع إلا مثل ما قال للرسل من قبلك.

والآخر: ما يقول لك الكفار من التكذيب والأذى إلا مثل ما قالت الأمم المتقدمون لرسلهم، فالمراد على هذا تسلية النبي ﷺ بالتأسي، والمراد على القول الأول أنه عليه الصلاة والسلام أتى بما جاءت به الرسل فلا تنكر رسالته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يحتمل أن يكون مستأنفا أو يكون هو المقول في الآية المتقدمة وذلك على القول الأول، وأما على القول الثاني فهو مستأنف منقطع مما قبله.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ الأعجمي الذي لا يفصح ولا يبين كلامه سواء كان من العرب أو من العجم، والعجمي الذي ليس من العرب فصيحا كان أو غير فصيح، ونزلت الآية بسبب طعن قريش في القرآن، فالمعنى: أنه لو كان أعجميا لطعنوا فيه، وقالوا: هلا كان مبينا، فظهر أنهم يطعنون فيه على أي وجه كان. ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذا من تمام كلامهم والهمزة للإنكار، والمعنى أنه لو كان القرآن أعجميا لقالوا قرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي، وقيل: إنما طعنوا فيه لما فيه من الكلمات العجمية كسجين وإستبرق، فقالوا قرآن أعجمي وعربي أي مختلط من كلام العرب والعجم، وهذا يجري على قراءة أعجمي بفتح العين[1]. ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ عبارة عن إعراضهم عن القرآن، فكأنهم صم لا يسمعون وكذلك. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ عبارة عن قلة فهمهم له. ﴿أُوْلَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: عبارة عن قلة فهمهم فشبههم بمن ينادي من مكان بعيد فهو لا يسمع الصوت ولا يفقه ما يقال.

---

(١) قال ابن الجزري ﴿أعجمي وعربي﴾ في فصلت رواه بهمزة واحدة على الخبر قنبل، وهشام، ورويس، باختلاف عنهم. النشر: ١/٤١٤.

والثاني: أنه حقيقة في يوم القيامة أي ينادون من مكان بعيد ليسمعوا أهل الموقف توبيخهم، والأول أليق بالكنايات التي قبلها.

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القدر. ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم زمان وقوعها، فإذا سئل أحد عن ذلك قال: الله هو الذي يعلمها. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ جمع كم بكسر الكاف، وهو غلاف الثمرة قبل ظهورها. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ العامل في يوم محذوف، والمراد به يوم القيامة، والضمير للمشركين، وقوله: أين شركائي توبيخ لهم، وأضاف الشركاء إلى نفسه على زعم المشركين، كأنه قال: الشركاء الذين جعلتم لي. ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ المعنى أنهم قالوا أعلمناك ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكا؛ لأنهم كفروا يوم القيامة بشركائهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي ضل عنهم شركاؤهم بمعنى أنهم لا يرونهم حينئذ، فما على هذا موصولة، أو ضل عنهم قولهم الذي كانوا يقولون من الشرك، فما على هذا مصدرية. ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، والمحيص المهرب، أي علموا أنهم لا مهرب لهم من العذاب، وقيل: يوقف على ظنوا ويكون ما لهم استئنافا، وذلك ضعيف.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يمل من الدعاء بالمال والعافية وشبه ذلك، ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة، وقيل: في غيره من الكفار، واللفظ أعم من ذلك.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي هذا حقي الواجب لي وليس تفضلا من الله، ولا يقول هذا إلا كافر، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ معناه إن بعثت تكون لي الجنة وهذا تخرص وتكبر، وروي: أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ذكر في الإسراء. ﴿دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير وذكر الله هذه

حزب

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)﴾

الأخلاق على وجه الذم لها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية معناها أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به ألستم في شقاق بعيد، فوضع قوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ موضع الخطاب لهم.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ الضمير لقريش، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الآيات في الآفاق هي فتح الأقطار للمسلمين، والآيات في أنفسهم هي فتح مكة فجمع ذلك وعدا للمسلمين بالظهور، وتهديدا للكفار واحتجاجا عليهم بظهور الحق وخمول الباطل.

والثاني: أن الآيات في الآفاق هي ما أصاب الأمم المتقدمة من الهلاك وفي أنفسهم يوم بدر.

الثالث: أن الآيات في الآفاق هي خلقه السماء وما فيها من العبر والآيات، وفي أنفسهم خلقه بني آدم وهذا ضعيف؛ لأنه قال سنريهم بسين الاستقبال وقد كانت السموات وخلقة السماء مرئية، والأول هو الراجح.

﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو للإسلام.

﴿مُّحِيطٌ﴾ أي محيط بعلمه وقدرته وسلطانه.

*** *** ***

سُورَةُ الشُّورَىٰ ٤٢ — آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

سورة الشورى

﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ الكلام فيه كسائر حروف الهجاء حسبما تقدم في سورة البقرة، وقد حكى الطبري أن رجلا سأل ابن عباس عن حم عسق فأعرض عنه، فقال حذيفة: إنما كرهها ابن عباس لأنها نزلت في رجل من أهل بيته اسمه عبد الله، يبني مدينة على نهر من أنهار المشرق، ثم يخسف الله بها في آخر الزمان، والرجل على هذا أبو جعفر المنصور والمدينة بغداد وقد ورد في الحديث أنها يخسف بها[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى ما تضمنه القرآن أو السورة، وقيل: الإشارة لقوله حم عسق فإن الله أنزل هذه الأحرف بعينها في كل كتاب أنزله، وفي صحة هذا نظر.

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ اسم الله فاعل بيوحي، وأما على قراءة يوحى[2]

---

(١) الحديث أخرجه علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي ت: ٩٦٥هـ ولفظه: «تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجيء إليها خزائن الأمصار وجبابرتها، يخسف بها وبمن فيها، فلهي أسرع ذهابا في الأرض من وتد الحديد في الأرض الرخوة». الخطيب ووهاه عن جرير، الخطيب ـ عن أنس، وقال: ليس بمحفوظ. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ١٤/٢٧٩ الحديث رقم: (٣٨٧٢٤).

(٢) ﴿يوحي إليك﴾ قرأ ابن كثير بفتح الحاء على التجهيل، وقرأ الباقون بكسرها على التسمية. النشر: ٢/٤٠٧.

بالفتح فهو فاعل بفعل مضمر دل عليه يوحى، كأن قائلا قال: من الذي أوحى؟ فقيل: الله.

﴿يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن من خوف الله وعظيم جلاله وقيل: من قول الكفار: اتخذا الله ولدا، فهي كالآية التي في مريم، قال ابن عطية: وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود؛ لأن الله تعالى لا يوصف به.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ الضمير للسموات، والمعنى يتشققن من أعلاهن وذلك مبالغة في التهويل، وقيل: الضمير للأرضين وهذا بعيد، وقيل: الضمير للكفار كأنه قال: من فوق الجماعات الكافرة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن، وهذا أيضا بعيد.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عموم يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقيل: إن يستغفرون للذين آمنوا نسخ هذه الآية، وهذا باطل لأن النسخ لا يدخل في الأخبار، ويحتمل أن يريد بالاستغفار طلب الحلم عن أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم، ومعناه الإمهال لهم، وأن لا يعاجلوا بالعقوبة فيكون عاما، فإن قيل: ما وجه اتصال قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ الآية بما قبلها؟ فالجواب: أنا إن فسرنا تفطر السموات بأنه من عظمة الله فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضا تعظيما له فينتظم الكلام، وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم فيكون تسبيح الملائكة تنزيها لله تعالى عن كفر بني آدم وعن أقوالهم القبيحة.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ والمراد أهلها ولذلك عطف عليه من حولها يعني من الناس.

﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك لأن الخلائق يجتمعون فيه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أم منقطعة والأولياء هنا المعبودون من دون الله.

﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما اختلفتم فيه أنتم والكفار من أمر الدين فحكمه

فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٩﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ • شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١١﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾

ربع

إلى الله، بأن يعاقب المبطل ويثيب المحق، أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكموا فيه إلى النبي ﷺ، كقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً﴾ يعني الإناث.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجاً﴾ يحتمل أن يريد الإناث أو الأصناف.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معنى يذرؤكم يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن، وقيل: يكثركم، والضمير المجرور يعود على الجعل الذي يتضمنه قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ وهذا كما تقول: كلمت زيدا كلاما أكرمته فيه، وقيل: الضمير للتزويج الذي دل عليه قوله: ﴿أَزْوَٰجاً﴾ وقال الزمخشري: تقديره: يذرؤكم في هذا التدبير وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا، والضمير في يذرؤكم خطاب للناس والأنعام غلب فيه العقلاء على غيرهم، فإن قيل: لم قال يذرؤكم فيه وهلا قال يذرؤكم به؟ فالجواب: أن هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتكثير قاله الزمخشري.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تنزيه لله تعالى عن مشابهة المخلوقين، قال كثير من الناس: الكاف زائدة للتأكيد والمعنى ليس مثله شيء، وقال الطبري[1] وغيره:

---

(١) قال ابن جرير: وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه وجهان:
أحدهما: أن يكون معناه: ليس هو كشيء، وأدخل المثل في الكلام توكيداً للكلام إذا اختلف اللفظ به وبالكاف، وهما بمعنى واحد، كما قيل:
ما إن نديت بشيء أنت تكرهه فأدخل على «ما» وهي حرف جحد «إن» وهي أيضًا حرف جحد،=

ليست بزائدة ولكن وضع مثله موضع هو، والمعنى: ليس كهو شيء قال الزمخشري: وهذا كما تقول: مثلك لا يبخل، والمراد: أنت لا تبخل، فنفي البخل عن مثله، والمراد نفيه عن ذاته.

﴿مَقَالِيدُ﴾ قد ذكر.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ اتفق دين سيدنا محمد ﷺ مع جميع الأنبياء في أصول الاعتقادات وذلك هو المراد هنا ولذلك فسره بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ يعني إقامة الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبالدار الآخرة، وأما الأحكام الفروعية فاختلفت فيها الشرائع فليست تراد هنا.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ يحتمل أن تكون أن في موضع نصب بدلا من قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ﴾ أو في موضع خفض بدلا من به أو في موضع رفع على خبر ابتداء مضمر، أو تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي صعب الإسلام على المشركين.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ الضمير في إليه يعود على الله تعالى، وقيل: على الدين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم.

= لاختلاف اللفظ بهما، وإن اتفق معناهما توكيدا للكلام، وكما قال أوس بن حجر:

وَقَتْلَى كمِثْلِ جذُوعِ النَّخيلِ تَغَشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرُ

ومعنى ذلك: كجذوع النخيل.

والآخر: أن يكون معناه: ليس مثل شيء، وتكون الكاف هي المدخلة في الكلام، كقول الراجز:

* وَصَالِياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْنِ *

الطبري في جامع البيان: ٢١/٥٠٧.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني القضاء السابق بأن لا يفصل بينهم في الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني المعاصرين لسيدنا محمد ﷺ من اليهود والنصارى، وقيل: يعني العرب، والكتاب على هذا القرآن.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ الضمير للكتاب أو للدين أو لسيدنا محمد ﷺ.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي إلى ذلك الذي شرع الله فادع الناس فاللام بمعنى إلى والإشارة بذلك إلى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أو إلى قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ وقيل: إن اللام بمعنى أجل والإشارة إلى التفرق والاختلاف أي لأجل ما حدث من التفرق ادع إلى الله وعلى هذا يكون قوله واستقم معطوفا وعلى الأول يكون مستأنفا فيوقف على فادع واستقم.

﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي دم على ما أمرت به من عبادة الله وطاعته وتبليغ رسالته.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الضمير للكفار، وأهواؤهم ما كانوا يحبون من الكفر والباطل كله.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قيل: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه، ويحتمل أن يريد العدل في دعائهم إلى دين الإسلام، أي أمرت أن أحملكم على الحق.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة، فإن الحق قد ظهر وأنتم تعاندون.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يجادلون المؤمنين في دين الله، ويعني كفار قريش، وقيل: اليهود ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه، وقيل: يعود على الدين، وقيل: على محمد ﷺ، والأول أظهر وأحسن.

وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِيٓ أَنزَلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي الْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي زاهقة باطلة.

﴿أَنزَلَ الْكِتَٰبَ﴾ يعني جنس الكتاب.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالواجب أو متضمنا الحق.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن عباس[1] وغيره يعني العدل، ومعنى إنزال العدل إنزال الأمر به في الكتب المنزلة، وقيل: يعني الميزان المعروف، فإن قيل: ما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟ فالجواب: أن الساعة يوم الجزاء والحساب، فكأنه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل اليوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم.

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ جاء قريب بالتذكير؛ لأن تأنيث الساعة غير حقيقي ولأن المراد به وقت الساعة.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ أي يطلبون تعجيلها استهزاء بها وتعجيزا للمؤمنين.

﴿يُمَارُونَ﴾ أي يجادلون ويخالفون.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي ما تقوم به الحياة فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره، والزائد خاص بمن شاء الله.

﴿حَرْثَ الْءَاخِرَةِ﴾ عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا وهو مستعار من

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/٢٨.

حرث الأرض لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ عبارة عن تضعيف الثواب.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي نؤته منها ما قدر له؛ لأن كل أحد لا بد أن يصل إلى ما قسم له.

﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ هذا للكفار أو لمن كان يريد الدنيا خاصة، ولا رغبة له في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ، والشركاء الأصنام وغيرها، وقيل: الشياطين.

﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الضمير في شرعوا للشركاء، وفي لهم للكفار، وقيل: بالعكس والأول أظهر، ولم يأذن بمعنى لم يأمر والمراد بما شرعوا من البواطل في الاعتقادات، وفي الأعمال، كالبحيرة، والوصيلة، وغير ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لولا القضاء السابق بأن لا يقضى بينهم في الدنيا لقضى بينهم فيها.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ يعني في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ تقديره: يبشر به، وحذف الجار والمجرور.

﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أن القربى بمعنى القرابة وفي بمعنى من أجل، والمعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم، فالمقصد على هذا استعطاف قريش، ولم يكن فيهم بطن إلا وبينه وبين النبي ﷺ قرابة.

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

الثاني: أن القربى بمعنى الأقارب أو ذوي القربى، والمعنى: إلا أن تودوا أقاربي وتحفظوني فيهم، والمقصد على هذا وصية بأهل البيت.

الثالث: أن القربى قرابة الناس بعضهم من بعض والمعنى أن تودوا أقاربكم والمقصود على هذا وصية بصلة الأرحام.

الرابع: أن القربى التقرب إلى الله، والمعنى: إلا أن تتقربوا إلى الله بطاعته، والاستثناء على القول الثالث والرابع منقطع، وأما على الأول والثاني، فيحتمل الانقطاع؛ لأن المودة ليست بأجر، ويحتمل الاتصال على المجاز كأنه قال: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة، فجعل المودة كالأجر.

﴿يَقْتَرِفْ﴾ أي يكتسب.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ يعني مضاعفة الثواب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ.

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فالمقصد بهذا قولان:

أحدهما: أنه رد على الكفار في قولهم: أفترى على الله كذبا، أي لو افتريت على الله كذبا لختم على قلبك، ولكنك لم تفتر على الله كذبا فقد هداك وسددك.

والآخر: أن المراد إن يشإ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار وتحمل أذاهم.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ﴾ هذا فعل مستأنف غير معطوف على ما قبله ؛ لأن الذي قبله مجزوم ، وهذا مرفوع فيوقف على ما قبله ويبدأ به ، وفي المراد به وجهان:

أحدهما: أنه من تمام ما قبله ، أي لو افتريت على الله كذبا لختم على قلبك ، ومحا الباطل الذي كنت تفتريه لو افتريت.

والآخر: أنه وعد لرسول الله ﷺ بأن يمحو الله الباطل وهو الكفر ، ويحق الحق وهو الإسلام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ عن هنا بمعنى من ، وكأنه قال: التوبة الصادرة من عباده ، وقبول التوبة على ثلاثة أوجه:

أحدها: التوبة من الكفر فهي مقبولة قطعا.

والثاني: التوبة من مظالم العباد فهي غير مقبولة حتى ترد المظالم ، أو يستحل منها.

والثالث: التوبة من المعاصي التي بين العبد وبين الله ، فالصحيح أنها مقبولة بدليل هذه الآية ، وقيل: إنها في المشيئة.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا ، وأما العفو دون التوبة فهو على أربعة أقسام:

الأول: العفو عن الكفر ، وهو لا يكون أصلا.

والثاني: العفو عن مظالم العباد ، وهو كذلك.

والثالث: العفو عن الذنوب الصغائر إذا اجتنبت الكبائر ، وهو حاصل باتفاق.

والرابع: العفو عن الكبائر فمذهب أهل السنة في المشيئة ، ومذهب المعتزلة أنها لا تغفر إلا بالتوبة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معنى يستجيب يجيب، والذين آمنوا مفعول والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، أي يجيبهم فيما يطلبون منه، وقال الزمخشري: أي أصله يستجيب للذين آمنوا، فحذف اللام.

والثاني: أن معناه يجيب والذين آمنوا فاعل أي يستجيب المؤمنون لربهم باتباع دينه.

والثالث: أن معناه يطلب المؤمنون الإجابة من ربهم، واستفعل على هذا على بابه من الطلب، والأول أرجح لدلالة قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ولأنه قول ابن عباس، ومعاذ بن جبل[1].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يزيدهم ما لا يطلبون زيادة على الاستجابة فيما طلبوا، وهذه الزيادة روي عن النبي ﷺ أنها الشفاعة والرضوان.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي بغى بعضهم على بعض وطغوا لأن الغنى يوجب الطغيان، وقال بعض الصحابة: فينا نزلت لأنا نظرنا إلى أموال الكفار فتمنيناها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ قيل لعمر رضي الله عنه اشتد القحط وقنط الناس فقال: الآن يمطرون، وأخذ ذلك من هذه الآية ومنه قوله ﷺ: «اشتدي أزمة تنفرجي»[2].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: يعني المطر فهو تكرار للمعنى الأول بلفظ آخر،

---

(١) انظر الطبري في جامع البيان: ٥٣٤/٢١.

(٢) أخرجه القضاعي (٤٣٦/١، رقم: ٧٤٨)، والديلمي (٤٢٦/١، رقم: ١٧٣١) قال العجلوني: (١٤١/١) رواه العسكري والديلمي والقضاعي بسند فيه كذاب. والحديث موضوع، كما قال الحافظ أحمد الغماري في المغير (ص: ٢١).

وقيل: يعني الشمس، وقيل: بالعموم.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لا إشكال لأن الدواب في الأرض، وأما في السماء فقيل: يعني الملائكة، وقيل: يمكن أن تكون في السماء دواب لا نعلمها نحن، وقيل: المعنى أنه بث في أحدهما فذكر الاثنين كما تقول في بني فلان كذا، وإنما هو في بعضهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يريد جمع الخلق في الحشر يوم القيامة.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ المعنى أن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم وأموالهم إنما هي بسبب الذنوب قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]: «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفوا الله عنه أكثر» وقرئ[2] بما كسبت بغير فاء على أن يكون ما أصابكم بمعنى الذي وقرئ بالفاء على أن يكون ما أصابكم شرطا.

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ قد ذكر.

﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم وهو الجبل.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ الضمير في يظللن للجواري وفي ظهره للبحر، أي لو أراد الله أن يسكن الرياح لبقيت السفن واقفة على ظهر البحر

---

(١) قال قتادة في تفسير قوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: لا يصيب ابن آدم خدش عود و لا عثرة قدم و لا اختلاج عرق إلا بذنب و ما يعفو الله عنه أكثر) البيهقي في شعب الإيمان الحديث رقم: (٩٨١٥) والطبري في جامع البيان ٢١/٥٣٩.

(٢) ﴿بما كسبت﴾ قرأ المدنيان وابن عامر ﴿بما﴾ بغير فاء قبل الباء وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام. وقرأ الباقون بالفاء ﴿فبما كسبت﴾ وكذلك هي في مصاحفهم. النشر: ٢/٤٠٧.

ربع

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٠) • أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣١) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٢) فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٤) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٦) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ (٣٧) • وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٣٨) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٩) • وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٠) وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤١)

ثمن

فالمقصود تعديد النعمة في إرسال الرياح أو تهديد بإسكانه.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ عطف على يسكن الريح ومعنى يوبقهن يهلكهن بالغرق من شدة الرياح العاصفة والضمير فيه للسفن وفي كسبوا لركابها من الناس والمعنى أنه لو شاء لأغرقها بذنوب الناس.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي يعلمون أنه لا مهرب لهم من الله، وقرئ[1] يعلم بالرفع على الاستئناف وبالنصب واختلف في إعرابه على قولين:

أحدهما: أنه نصب بإضمار أن بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء لأنه غير واجب وأنكر ذلك الزمخشري، وقال: إنه شاذ فلا ينبغي أن يحمل القرآن عليه.

والثاني: قول الزمخشري إنه معطوف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم قال ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف في القرآن كثير، ومنه قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

﴿كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ﴾ ذكرنا الكبائر في النساء، وقيل: كبائر الإثم هو الشرك، والفواحش: هي الزنا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ قيل: يعني الأنصار لأنهم استجابوا لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، ويظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين

---

(١) ﴿ويعلم الذين﴾ قرأ ابن عامر والمدنيان برفع الميم، وقرأ الباقون بنصبها. النشر المصدر السابق.

رضي الله عنه؛ لأنه بدأ أولا بصفات أبي بكر الصديق، ثم صفات عمر بن الخطاب، ثم صفات عثمان بن عفان، ثم صفات علي بن أبي طالب، فكونه جمع هذه الصفات ورتبها على هذا الترتيب يدل على أنه قصد بها من اتصف بذلك، فأما صفات أبي بكر فقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وإنما جعلناها صفة أبي بكر وإن كان جميعهم متصفا بها؛ لأن أبا بكر كانت له فيها مزية لم تكن لغيره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحهم» وقال صلى الله عليه وسلم[2]: «أنا مدينة الإيمان وأبو بكر بابها» وقال أبو بكر[3]: «لو كشف الغطاء لما ازددت إلا يقينا»، والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان. أما صفات عمر فقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ لأن ذلك هو التقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم[4]: «أنا مدينة التقوى وعمر بابها».

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ نزلت في عمر، وأما صفات عثمان، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ لأن عثمان لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان تبعه وبادر إلى الإسلام. وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾؛ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل، وفيه نزلت: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً﴾ الآية، وروي: أنه كان يحيي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن كله، وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأن عثمان ولي الخلافة بالشورى، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله ويكفيك أنه جهز جيش العسرة. وأما صفة علي فقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنه لما قاتلته الفئة الباغية قاتلها انتصارا للحق،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفا على عمر، الحديث رقم ٣٦، والكشاف ١/٤٧٠.

(٢) لم أجده مسندا، وأورده ابن عجيبة في البحر المديد ٦/٥٧٣.

(٣) لم أجده مسندا.

(٤) لم أجده مسندا.

وانظر كيف سمى رسول الله ﷺ المقاتلين لعلي الفئة الباغية حسبما ورد في الحديث الصحيح أنه قال لعمار بن ياسر «تقتلك الفئة لباغية»[١] فذلك هو البغي الذي أصابه وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى فعل الحسن بن علي حين بايع معاوية وأسقط حق نفسه ليصلح أحوال المسلمين ويحقن دماءهم، قال رسول الله ﷺ في الحسن[٢]: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت الحسن وطلبه للخلافة وانتصاره من بني أمية وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ إشارة إلى بني أمية فإنهم استطالوا على الناس كما جاء في الحديث[٣] عنهم، أنهم جعلوا عباد الله خولا ومال الله دولا، ويكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علي بن أبي طالب على منابرهم[٤] وقوله:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ الآية إشارة إلى صبر أهل بيت النبي ﷺ على ما نالهم من الضر والذل طول مدة بني أمية.

---

(١) حديث عمار ثابت في الصحاح والسنن وغير هما ففي صحيح البخاري: حدثنا مسدد قال حدثنا عبد العزيز بن مختار قال حدثنا خالد الحذاء: عن عكرمة قال لي ابن عباس ولابنه علي انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار). قال يقول عمار أعوذ بالله من الفتن. الحديث رقم ٤٣٦ ومسلم الحديث رقم: (٧٥٠٦) وهو بلفظ: تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ وغيرهما.

(٢) البخاري الحديث رقم: (٢٥٥٧)، ومصنف ابن أبي شيبة الحديث رقم ٣٨٥١٧ وشرح السنة للبغوي ١٢٨/٧ وسنن النسائي الحديث رقم ١٤٠٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين الحديث رقم (٨٤٧٨): قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعلق الذهبي وقال على شرط مسلم.

(٤) قال المؤرخون: كان بنو أمية يسبون علي بن أبي طالب في الخطبة، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أبطله وكتب إلى نوابه بإبطاله، وقرأ مكانه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية، فاستمرت قراءتها في الخطبة إلى الآن تاريخ الخلفاء. ص٢٠١.

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١)

ربع

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سمى العقوبة باسم الذنب وجعلها مثلها تحرزا من الزيادة عليها.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار؛ لأنه ضمن الأجر في العفو وذكر الانتصار بلفظ الإباحة، في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وقيل: إن الانتصار أفضل والأول أصح، فإن قيل: كيف ذكر الانتصار في صفات المدح في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمباح لا مدح فيه ولا ذم؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المباح قد يمدح لأنه قيام بحق لا بباطل.

والثاني: أن مدح الانتصار لكونه كان بعد الظلم تحرزا ممن بدأ بالظلم، فكأن المدح إنما هو بترك الابتداء بالظلم.

والثالث: إن كانت الإشارة بذلك إلى علي بن أبي طالب حسبما ذكرنا، فانتصاره محمود لأن قتال أهل البغي واجب، لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾.

﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارة عن الذل والكآبة ومن الذل يتعلق بخاشعين. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عبارة عن الذل لأن نظر الذليل بمهابة واستكانة.

والآخر: أنهم يحشرون عميا فلا ينظرون بأبصارهم وإنما ينظرون بقلوبهم واستبعد هذا ابن عطية والزمخشري، والظرف يحتمل أن يريد به العين أو يكون مصدرا.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يتعلق بقال أو بخسروا. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا، أو مستأنفا من كلام الله تعالى.

﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ذكر في الروم.

﴿مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار، يعني لا تنكرون أعمالكم.

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ قدم الإناث اعتناء بهن وتأنيسا لمن وهبهن له، قال واثلة بن الأسقع[1]: من يمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر؛ لأن الله بدأ بالإناث[2]، وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام فشعيب ولوط كان لهما إناث دون ذكور، وإبراهيم كان له ذكور دون إناث ومحمد ﷺ جمع الإناث والذكور، ويحي كان عقيما، والظاهر أنها على العموم في جميع الناس؛ إذ كل واحد منهم لا يخلو عن قسم من هذه الأقسام الأربعة التي ذكر، وفي الآية من أدوات البيان التقسيم.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآية بين الله تعالى فيها كلامه لعباده وجعله على ثلاثة أوجه:

أحدها: الوحي المذكور أولا، وهو الذي يكون بإلهام أو منام.

---

(١) هو واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل، الليثي الكناني: صحابي، من أهل الصفة، كان، قبل إسلامه، ينزل ناحية المدينة، ودخل المسجد بالمدينة، والنبي ﷺ يصلي الصبح فصلى معه، وكان من عادة النبي إذا انصرف من صلاة الصبح، تصفح وجوه أصحابه، ينظر إليهم، فلما دنا من واثلة أنكره، فقال: من أنت؟ فأخبره، فقال: ما جاء بك؟ قال: أبايع، فقال: على ما أحببت وكرهت؟ قال: نعم، قال: فيما أطقت؟ قال: نعم. وكان رسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك، فشهدها معه، وقيل: خدم النبي ثلاث سنين، ثم نزل البصرة وكانت له بها دار. وشهد فتح دمشق، وسكن قرية «البلاط» على ثلاثة فراسخ منها، وحضر المغازي في البلاد الشامية، وتحول إلى بيت المقدس، فأقام به. ويقال: كان مسكنه ببيت جبرين، وكف بصره. وعاش: ١٠٥ سنين، وقيل: ٩٨، وهو آخر الصحابة موتا في دمشق. له: ٧٦ حديثا. ووفاته بالقدس أو بدمشق سنة: ٨٣ هـ. الاستيعاب: ٣/٦٠٦، والأعلام: ٨/١٠٧.

(٢) الأثر ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز بدون ذكر سند ٥/٣٩ وكذلك الثعالبي في الجواهر الحسان ٤/١١٧.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥١) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٢)

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية — آياتها ٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٣) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٤) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيءٍ فِي الْأَوَّلِينَ (٥) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيءٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٨) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٩)

والآخر: أن يسمعه كلامه من وراء حجاب.

والثالث: الوحي بواسطة الملك وهو قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني ملكا ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ إلى النبي وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد ﷺ، إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء كثيرًا، وقد يكون لسائر الخلق، ومنه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ومنه: منامات الناس.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرئ[1] يرسل ويوحي بالرفع على تقدير أو هو يرسل وبالنصب عطفا على وحيا لأن تقديره: أن يوحي عطف على أن المقدرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الروح هنا القرآن والمعنى مثل هذا الوحي، وهو بإرسال الملك أوحينا إليك القرآن، والأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور، أو يكون من الأمر بالشيء.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ المقصد بهذا شيئان:

أحدهما: تعداد النعمة عليه ﷺ بأن علمه الله ما لم يكن يعلم. والآخر:

(١) ﴿أو يرسل﴾، ﴿فيوحي﴾ قرأ نافع برفع اللام وإسكان الياء. واختلف عن ابن ذكوان فروى عن الصوري عن طريق الرملي كذلك... وروي عنه بنصب اللام، وبذلك قرأ الباقون. النشر: ٢/٤٠٧.

احتجاج على نبوءته لكونه أتى بما لم يكن يعلمه ولا تعلمه من أحد، فإن قيل: أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟ فالجواب: أن الإيمان يحتوي على معارف كثيرة، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه، وقد كان مؤمنا بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة، وهي التي حصلت له بالنبوءة.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً﴾ الضمير للقرآن.

❊❊ ❊❊ ❊❊

سورة الزخرف

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني القرآن والمبين يحتمل أن يكون بمعنى البين أو المبين لغيره.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أم الكتاب اللوح المحفوظ والمعنى أن القرآن وصف في اللوح بأنه علي حكيم، وقيل: المعنى أن القرآن نسخ بجملته في اللوح المحفوظ، ومنه كان جبريل ينقله، فوصفه الله بأنه علي حكيم لكونه مكتوب في اللوح المحفوظ، والأول أظهر وأشهر.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾ الهمزة للإنكار والمعنى أنمسك عنكم الذكر، ونضرب من قولك: أضربت عن كذا إذا تركته، والذكر يراد به القرآن أو التذكير والوعظ، وصفحا فيه وجهان:

أحدهما: أنه بمعنى الإعراض، تقول صفحت عنه إذا أعرضت عنه فكأنه قال: أنترك تذكيركم إعراضا عنكم، وإعراب صفحا على هذا مصدر من المعنى، أو مفعول من أجله، أو مصدر في موضع الحال.

والآخر: أن يكون بمعنى العفو والغفران فكأنه يقول: أنمسك عنكم الذكر عفوا عنكم وغفرانا لذنوبكم، وإعراب صفحا على هذا مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال.

﴿إِن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ﴾ قرئ بكسر الهمزة[1] على الشرط، والجواب في الكلام الذي قبله، وقرئ بالفتح على أنه مفعول من أجله.

﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً﴾ الضمير لقريش وهم المخاطبون بقوله إن كنتم قوما

(١) ﴿إن كنتم﴾ قرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة. وقرأ الباقون بفتحها. النشر المصدر السابق.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ
ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا
سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ
الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن
يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ
سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا
عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ
آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

مسرفين، فإن قيل: كيف قال إن كنتم على الشرط بحرف إن التي معناها الشك ومعلوم أنهم كانوا مسرفين؟ فالجواب: أن في ذلك إشارة إلى توبيخهم على الإسراف وتجهيلهم في ارتكابه فكأنه شيء لا يقع من عاقل، فلذلك وضع حرف التوقع في موضع الواقع. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي تقدم في القرآن ذكر حال الأولين وكيفية إهلاكهم لما كفروا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية احتجاج على قريش لأنهم كانوا يعترفون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وكانوا مع اعترافهم بذلك يعبدون غيره ومقتضى جوابهم أن يقولوا: خلقهن الله فلما ذكر هذا المعنى جاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم؛ لأن اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض يقتضي أن يعترفوا بأنه عزيز عليم.

وأما قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ فهو من كلام الله لا من كلامهم.

﴿مَهْدًا﴾ أي فراشا على وجه التشبيه.

﴿سُبُلًا﴾ أي طرقا تمشون فيها.

﴿مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ووزن معلوم، وقيل: معناه بقضاء.

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تمثيل للخروج من القبور بخروج النبات من الأرض.

﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني أصناف الحيوان والنبات وغير ذلك.

﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الضمير يعود على ما تركبون.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا الذكر بالقلب أو باللسان، ويحتمل أن يريد النعمة في تسخير هذا المركوب، أو النعمة على الإطلاق وكان بعض السلف إذا ركب دابة يقول: » الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ثم يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين وغالبين.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اعتراف بالحشر، فإن قيل: ما مناسبة هذا للركوب؟ فالجواب: أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف من غرق السفينة، أو سقوطه عن الدابة، فأمر بذكر الحشر ليكون مستعدا للموت الذي قد يعرض له، وقيل: يذكر عند الركوب ركوب الجنازة.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب وفي له لله تعالى وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية والمعنى: أنهم جعلوا الملائكة بنات الله فكأنهم جعلوا جزءا من عباده نصيبا له وحظا دون سائر عباده، وقال الزمخشري: معناه أنهم جعلوا الملائكة جزءا منه وقال بعض اللغويين الجزء في اللغة الإناث، واستشهد على ذلك ببيت شعر، قال الزمخشري وذلك كذب على اللغة والبيت موضوع[1].

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ أم للإنكار والرد على الذين قالوا إن الملائكة

---

(١) ومن ذلك قول الشاعر:

إنْ أَجْـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَوْمـاً فَـلاَ عَجَـب قـد تُجـزئ الحـرّة المِـذْكَارُ أحيانـا

وقال آخر:

زُوِّجْتُهـا مـن بنـاتِ الأوس مُجْزِئَـةً لِلعَوْسَـجِ الرطْـبِ فـي أبيائِهـا زَجَـل

قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتاً وبيتا.. الكشاف: ٤/٢٤٥.

بنات الله ومعنى أصفاكم خصكم أي كيف يتخذ لنفسه البنات وهن أدنى وأصفاكم بالبنين وهم أعلى.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي إذا بشر بالأنثى وقد ذكر هذا المعنى في النحل والمراد أنهم يكرهون البنات فكيف ينسبونها إلى الله تعالى عن قولهم.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ المراد بمن ينشأ في الحلية النساء والحلية هي الحلي من الذهب والفضة وشبه ذلك ومعنى ينشأ فيها يكبر وينبت في استعمالها وقرئ[1] ينشأ بضم الياء وتشديد الشين بمعنى يربى فيها والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكة بنات الله كأنه قال أجعلتم لله من ينشأ في الحلية وذلك صفة النقص ثم أتبعها بصفة نقص أخرى وهي قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقل ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص وإعراب من ينشأ مفعول بفعل مضمر تقديره أجعلتم لله من ينشأ أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ في الحلية خصصتم به الله.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب فحكى عنهم ثلاثة أقوال شنيعة:

أحدها: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

والآخر: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين.

والثالث: أنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا وقرئ[2] عند الرحمن بالنون

---

(١) ﴿ينشأ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان النون وتخفيف الشين. النشر: ٤٠٨/٢.

(٢) ﴿عند الرحمن﴾ قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿عند﴾ بالنون ساكنة وفتح الدال من=

والمراد به قرب الملائكة وتشريفهم، كقوله: ﴿قَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وقرئ عباد بالباء جمع عبد والمراد به أيضا الاختصاص والتشريف.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ هذا رد على العرب في قولهم إن الملائكة إناث والمعنى هم لم يشهدوا خلق الملائكة فكيف يقولون ما ليس لهم به علم.

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي تكتب شهادتهم التي شهدوا بها على الملائكة ويسئلون عنها يوم القيامة.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ الضمير في قالوا للكفار وفي عبدناهم للملائكة، وقال ابن عطية: للأصنام، والأول أظهر وأشهر، والمعنى: احتجاج احتج به الذين عبدوا الملائكة وذلك أنهم قالوا: لو أراد الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم، فكونه يمهلنا وينعم علينا دليل على أنه يرضى عبادتنا لهم، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني أن قولهم بلا دليل وحجة، وإنما هو تخرص منهم.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن، وهذا أيضا رد عليهم لكونهم ليس لهم كتاب يحتجون به.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على دين وطريقة، والمعنى: أنهم ليس لهم حجة وإنما هم مقلدو آبائهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية المعنى كما اتبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة اتبع كل من كان قبلهم من الكفار آباءهم بغير حجة بل بطريق التقليد المذموم.

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ هذا رد على الذين

= غير ألف على أنه ظرف، وقرأ الباقون بالباء وألف بعدها ورفع الدال جمع عبد. النشر: ٢/٤٠٨.

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٢) • قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٣) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٥) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٦) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٨) وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٩) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣٠) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣١) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٢)

اتبعوا آباءهم، والمعنى قل لهم أتتبعونهم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم وقرئ[1] قال أو لو جئتكم والفاعل ضمير يعود على النذير المتقدم وأما قراءة قل بالأمر فهو خطاب لمحمد ﷺ أمره الله أن يقول ذلك لقريش، وقيل: هو للنذير المتقدم أمره الله أن يقول ذلك لقومه والأول أظهر وعلى هذا تكون هذه الجملة اعتراضا بين قصة المتقدمين فإن قوله قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون حكاية عن الكفار المتقدمين وكذلك قوله فانتقمنا منهم يعني من المتقدمين.

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ أي بريء وبراء في الأصل مصدر ثم استعمل صفة، ولذلك استوى فيه الواحد والجماعة كعدل وشبهه.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يحتمل أن يكون استثناء منقطعا وذلك إن كانوا لا يعبدون الله، أو يكون متصلا إن كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، وإعرابه على هذا بدل مما تعبدون، فهو في موضع خفض أو منصوب على الاستثناء فهو في موضع نصب.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ قال هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وقال مرة أخرى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ليدل على أن الهداية في الحال والاستقبال.

---

(١) ﴿قل أولو﴾ قرأ ابن عامر وحفص ﴿قال﴾ على الخبر، وقرأ الباقون ﴿قل﴾ على الأمر. النشر: ٤٠٩/٢.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ ضمير الفاعل في جعلها يعود على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: على الله تعالى، والأول أظهر، والضمير يعود على الكلمة التي قالها وهي ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ومعناها التوحيد، ولذلك قيل: يعود على الإسلام لقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ وقيل: يعود على لا إله إلا الله، والمعنى متقارب، أي جعل إبراهيم تلك الكلمة ثابتة في ذريته لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد، والعقب هو الولد وولد الولد ما تناسلا أبدا.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الإشارة بهؤلاء إلى قريش، وهذا الكلام متصل بما قبله؛ لأن قريشا من عقب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فالمعنى لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم بالنعم والعافية فلم يشكروا عليها واشتغلوا بها عن عبادة الله.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الضمير في قالوا لقريش، والقريتان مكة والطائف، ومن القريتين معناها من إحدى القريتين، كقولك: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، أي من أحدهما، وقيل: معناه على رجل من رجلين من القريتين فالرجل الذي من مكة الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة، والرجل الذي من الطائف عروة بن مسعود، وقيل: حبيب بن عمير، ومعنى الآية أن قريشا استبعدوا نزول القرآن على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقترحوا أن ينزل على أحد هؤلاء وصفوه بالعظمة، يريدون الرئاسة في قومه وكثرة ماله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني أن الله يخص بالنبوءة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين، ولا بإرادتهم ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الفانية

الحقيرة فأولى وأحرى أن لا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ وهو من التسخير في الخدمة، أي رفعنا بعضهم فوق بعض ليخدم بعضهم بعضا. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هذا تحقير للدنيا والمراد برحمة ربك هنا النبوءة، وقيل: الجنة.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية تحقير أيضا للدنيا، ومعناها لولا أن يكفر الناس كلهم لجعلنا للكفار سقفا من فضة وذلك لهوان الدنيا على الله، كما قال رسول الله ﷺ[1]: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء».

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج الأدراج والسلالم ومعنى يظهرون يرتفعون ومنه: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ والسرر جمع سرير، والزخرف الذهب، وقيل: أثاث البيت من الستور والنمارق وشبه ذلك، وقيل: هو التزويق والنقش وشبه ذلك من التزيين كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ يعش من قولك عشي الرجل إذا أظلم بصره، والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة، وقال الزمخشري: يعش بفتح الشين[2] إذا حصلت الآفة في عينيه، ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى وليس به آفة، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك: عمي وتعامى، فمعنى

---

(١) شرح السنة للبغوي: ١٩٦/٧، وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار مرسلا الحديث رقم: (٢٥٥٦).

(٢) قال الزمخشري: قرئ ﴿ومن يعش﴾ بضم الشين وفتحها... الكشاف: ٢٥٤/٤، وقال ابن عطية: وقرأ قتادة ويحيى بن سلام البصري «ومن يعش» بفتح الشين وهي من قولهم عشي يعشى، والأكثر عشى يعشو ومنه قول الشاعر (الحطيئة):

(متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد)

المحرر الوجيز: ٤٩/٥.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ • فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

ثمن

القراءة بالضم يتجاهل ويجحد مع معرفته بالحق، والظاهر أن ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النظر

و﴿ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ قال الزمخشري يريد به القرآن، وقال ابن عطية: يريد به ما ذكر الله به عباده من المواعظ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله، ومعنى الآية أن من غفل عن ذكر الله يسر الله له شيطانا يكون له قرينا، فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان، كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الضمير في إنهم للشياطين، وضمير المفعول في يصدونهم لمن يعش عن ذكر الرحمن، وجمع الضميرين؛ لأن المراد به جمع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا﴾ قرئ[1] جاءانا بضمير الاثنين، وهما من يعش وشيطانه وقرئ بغير ألف، على أنه ضمير واحد وهو من يعش والضمير في قال لمن يعش، وقيل: للشيطان.

﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه يعني المشرق والمغرب وغلب أحدهما في التشبيه كما قيل: القمران.

---

(١) ﴿حتى إذا جاءانا﴾ قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر وأبو بكر بألف بعد همزة على التثنية، وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد. النشر: ٢/٤٠٨.

والآخر: أنه يعني المشرقين والمغربين، وحذف المغربين لدلالة المشرقين عليه.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا كلام يقال للكفار في الآخرة، ومعناه أنهم لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا، إذا رأى غيره قد أصابه مثل الذي أصابه، والفاعل في ينفعكم قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإذ ظلمتم تعليل معناه بسبب ظلمكم، وقيل: الفاعل مضمر وهو التبري الذي يقتضيه قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وأنكم على هذا تعليل، والأول أرجح.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الآية خطاب للنبي ﷺ، والمراد بالصم والعمي الكفار إذ كانوا لا يعقلون براهين الإسلام.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة، ومقصد الآية وعيد للكفار، والمعنى: إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك، وإن أخرنا وفاتك إلى حين الانتقام منهم فإنا عليهم مقتدرون، وهذا الانتقام يحتمل أن يريد به قتلهم يوم بدر وفتح مكة وشبه ذلك من الانتقام في الدنيا، أو يريد به عذاب الآخرة، وقيل: إن الضمير في منهم منتقمون للمسلمين، وأن معنى ذلك أن الله قضى أن ينتقم منهم بالفتن والشدائد، وأنه أكرم نبيه عليه السلام بأن توفاه قبل أن يرى الانتقام من أمته، والأول أشهر وأظهر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الضمير في إنه للقرآن أو للإسلام، والذكر هنا بمعنى الشرف، وقوم النبي ﷺ هم: قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وصارت منهم الخلافة والملك، وورد عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية علم رسول الله ﷺ أن الأمر بعده لقريش[1]، ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة، فقومه على هذا أمته

(١) وجاءت عن النبي ﷺ آثار بهذا المعنى، فمن ذالك ما رواه أحمد وغيره بأسانيد قوية: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا سليمان بن داود ثنا سكين ثنا سيار بن سلامة سمع أبا برزة يرفعه=

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥١﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٢﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٥٩﴾

كلهم وكل من بعث إليهم.

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي تسئلون عن العمل بالقرآن، وعن شكر الله عليه.

﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ إن قيل: كيف أمر النبي ﷺ أن يسأل الرسل المتقدمين وهو لم يدركهم؟ فالجواب: من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه رآهم ليلة الإسراء.

الثاني: أن المعنى اسأل أمة من أرسلنا قبلك.

الثالث: أنه لم يرد سؤالهم حقيقة وإنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله بحيث لو سئلوا: أهل مع الله آلهة يعبدون؟ لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الآيات هنا المعجزات كقلب العصا حية، وإخراج اليد بيضاء، وقيل: البراهين والحجج العقلية، والأول أظهر، ومعنى أكبر من أختها أنها في غاية الكبر والظهور، ولم يرد تفضيلها على غيرها من الآيات، إنما المعنى أنها إذا نظرت وجدت كبيرة، وإذا نظرت غيرها وجدت كبيرة فهو كقول الشاعر[1]:

= إلى النبي ﷺ قال: الأئمة من قريش إذا استرحموا رحموا، وإذا عاهدوا وفوا، وإذا حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. المسند الحديث رقم: (١٩٧٩٢)، وفي معناه ما رواه الحاكم في المستدرك الحديث رقم: (٦٩٦٢)، وصححه الألباني وغيره.

(١) الشاعر يسمى العرندس: والبيت بتمامه:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُم ... مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

ديوان الحماسة، ص: ٢/ ٢٧٠.

من تلق منهم فقل لاقيت سيدهم

هكذا قال الزمخشري: ويحتمل عندي أن يريد ما نريهم من آية إلا هي أكبر مما تقدمها، فالمراد أكبر من أختها المتقدمة عليها.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ظاهر كلامهم هذا التناقض فإن قولهم يا أيها الساحر يقتضي تكذيبهم له، وقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يقتضي تصديقه والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القائلين لذلك كانوا مكذبين، وقولهم: ادع لنا ربك يريدون على قولك وزعمك، وقولهم: إننا لمهتدون وعد نووا إخلافه.

والآخر: أنهم كانوا مصدقين وقولهم يا أيها الساحر إما أن يكون عندهم غير مذموم؛ لأن السحر كان علم أهل زمانهم، وكأنهم قالوا يا أيها العالم، وإما أن يكون ذلك اسما قد ألفوا تسمية موسى به من أول ما جاءهم فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ يحتمل أنه ناداهم بنفسه، أو أمر مناديا ينادي فيهم ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ قصد بذلك الافتخار على موسى ومصر هي البلد المعروف وما يرجع إليه، ومنتهى ذلك من نهر أسكندرية إلى أسوان بطول النيل. ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يعني الخلجان الكبار الخارجة من النيل كانت تجري تحت قصره، وأعظمها أربعة أنهار: نهر الأسكندرية، وتنيس، ودمياط، ونهر طولون. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مذهب سيبويه أن أم هنا متصلة معادلة، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فإنهم عنده بصراء، وهذا من وضع السبب موضع المسبب، وكان الأصل أن يقول: أفلا تبصرون أم تبصرون، ثم اقتصر على أم وحذف الفعل الذي بعدها واستأنف قوله: أنا خير على وجه الإخبار، ويوقف على هذا القول على

أم وهذا ضعيف، وقيل: أم بمعنى بل فهي منقطعة. ﴿مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير قاله الزمخشري وغيره.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلي ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة، وذلك أنها كانت قد أحدثت في لسانه عقدة، فلما دعا أن تحل أجيبت دعوته وبقي منها أثر، كان معه لكن، وقيل: يعني العي في الكلام، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يقتضي أنه كان يبين؛ لأن كاد إذا نفيت تقتضي الإثبات.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ يريد لولا ألقاها الله إليه كرامة له ودلالة على نبوءته، والأساورة جمع سوار وأسوار، وهو ما يجعل في الذراع من الحلي وكان الرجال حينئذ يجعلونه. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي مقترنين به لا يفارقونه أو متقارنين بعضهم مع بعض ليشهدوا له ويقيموا الحجة.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ أي طلب خفتهم بهذه المقالة واستهوى عقولهم.

﴿آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ السلف بفتح السين واللام جمع سالف وقرئ[1] بضمهما جمع سليف، ومعناه متقدم، أي تقدم قبل الكفار ليكون موعظة لهم ومثلا يعتبرون به؛ لئلا يصيبهم مثل ذلك.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ روي عن ابن عباس[2] وغيره في تفسيره هذه الآية أنه لما نزل في القرآن ذكر عيسى ابن مريم والثناء عليه قالت قريش: ما يريد محمد إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلا، حكى ذلك ابن عطية[3] والذي ضرب المثل على هذا هو الله في القرآن، ويصدون بمعنى يعرضون، وقال الزمخشري: لما قرأ

---

(١) ﴿سلفا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٢/٤٠٩.

(٢) لم أجده مسندا.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/٥٤.

رسـول الله ﷺ علـى قـريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ امتعضوا من ذلك وقال عبد الله بن الزبعري: أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ[1] هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا، وقد علمت أن النصارى عبدوه؟ فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرحت قريش بذلك وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ونزلت هذه الآية، فالمعنى على هذا لما ضرب ابن الزبعري عيسى مثلا وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه، إذا قريش من هذا المثل يصدون أي يضحكون ويصيحون من الفرح، وهذا المعنى إنما يجري على قراءة يصدون بكسر الصاد[2] بمعنى الضجيج والصياح.

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون بهو عيسى والمعنى أنهم قالوا آلهتنا خير أم عيسى، فإن كان عيسى يدخل النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه؛ لأنه خير من آلهتنا وهذا الكلام من تمام ما قبله على ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية التي قبله، وأما على ما ذكر ابن عطية فهذا ابتداء معنى آخر وحكى الزمخشري في معنى هذه الآية قولا آخر وهو أنهم لما سمعوا ذكر عيسى قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة وقالوا آلهتنا وهم الملائكة خير أم عيسى، فمقصدهم تفضيل آلهتهم على عيسى، وقيل: إن قولهم ﴿أَمْ هُوَ﴾ يعنون به محمدا ﷺ فإنهم لما قالوا إنما يريد محمد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يريدون تفضيل آلهتهم على محمد، والأظهر أن المراد بهو عيسى وهو قول الجمهور، ويدل على ذلك تقدم ذكره.

---

(١) الكشاف: ٤/٢٦٢.

(٢) ﴿يصدون﴾ قرأ ابن كثير والبصريان وعاصم وحمزة بكسر الصاد، وقرأ الباقون بضمها. النشر: ٢/٤٠٩.

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ۞ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

ربع

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني عيسى، والإنعام عليه بالنبوءة والمعجزات وغير ذلك.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ في معناها قولان:

أحدهما: لو نشاء لجعلنا بدلا منكم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون فيها بني آدم، فقوله منكم يتعلق ببدل المحذوف أو بيخلفون.

والآخر: لو نشاء لجعلنا منكم أي لولدنا منكم أولادا ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم فإنا قادرون على أن نخلق من أولاد الناس ملائكة فلا تنكروا أن خلقنا عيسى من غير والد، حكى ذلك الزمخشري.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير لعيسى وقيل لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقيل للقرآن فأما على القول بأنه لعيسى أو لمحمد فالمعنى أنه شرط من أشراط الساعة يوجب العلم بها فسمى الشرط علما لحصول العلم به ولذلك قرئ[1] لعلم بفتح العين

(١) وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة وأبو هند الغفاري ومجاهد وأبو نضرة ومالك بن دينار=

واللام أي علامة، وأما على القول بأنه للقرآن فالمعنى أنه يعلمكم بالساعة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إنما بين البعض دون الكل لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا، وقيل: بعض بمعنى كل، وهذا ضعيف.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ ذكر في مريم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي ينتظرون والضمير لقريش أو للأحزاب.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الأخلاء جمع خليل وهو الصديق، وإنما يعادي الخليل خليله يوم القيامة؛ لأن الضرر دخل عليه من صحبته، ولذلك استثنى المتقين لأن النفع دخل على بعضهم من بعض.

﴿يَٰعِبَادِ﴾ الآية تقديره: يقول الله يوم القيامة للمتقين: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تنعمون وتسرون.

﴿فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي يائسون من الخير.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ المعنى أنهم طلبوا الموت ليستريحوا من العذاب، وروي: أن مالكا يبقى بعد ذلك ألف سنة، وحينئذ يقول لهم: إنكم ماكثون، أي دائمون في النار.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الآية من كلام الله تعالى لأهل النار، أو من كلام الله لقريش في الدنيا.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الضمير لكفار قريش، والمعنى: أنهم إن

= والضحاك لعلم بفتح العين واللام، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس «للعلم» بلامين الأولى مفتوحة. المحرر الوجيز: ٥/٥٥.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

أحكموا كيد النبي ﷺ فإنا محكمون نصره وحمايته.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآية، روي: أنها نزلت في الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث اجتمعا، وقال الأخنس: أترى الله يسمع سرنا؟ فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا.

﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ السر ما يحدث الإنسان به نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي نسمع ورسلنا مع ذلك تكتب ما يقولون، والرسل هنا الملائكة الحافظون للأعمال.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ في تأويل الآية أربعة أقوال:

الأول: أنها احتجاج ورد على الكفار على تقدير قولهم، ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، كما يعظم خدم الملك ولد الملك لتعظيم والده، ولكن ليس للرحمن ولد فلست بعابد إلا الله وحده، وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم؛ لأنه علق عبادة الولد بوجوده ووجوده محال فعبادته محال، ونظير هذا أن يقول المالكي إذا قصد الرد على الحنفي في تحريم النبيذ: إن كان النبيذ غير مسكر فهو حلال، لكنه مسكر فهو حرام.

القول الثاني: إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم في قولكم أن له ولدا، والعابدين على هذين القولين بمعنى العبادة.

القول الثالث: أن العابدين بمعنى المنكرين، يقال عبد الرجل إذا أنف وتكبر وأنكر الشيء، والمعنى: إن زعمتم أن للرحمن ولدا فأنا أول المنكرين لذلك، وإن على هذه الأقوال الثلاثة شرطية.

القول الرابع: قال قتادة[١] وابن زيد: إن هنا نافية بمعنى ما كان للرحمن ولد وتم الكلام، ثم ابتدأ قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، والأول هو الصحيح لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة، وهو الذي عول عليه الزمخشري، وقال الطبري: هو ملاطفة في الخطاب ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقال ابن عطية: منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ يعني شركائي على قولكم.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الآية موادعة منسوخة بالسيف.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء، والمجرور يتعلق بإله لأن فيه معنى الوصفية.

﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم زمان وقوعها.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يملك كل من عبد من دون الله أن يشفع عند الله لأن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فهو المالك للشفاعة وحده.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ اختلف هل يعني بمن شهد بالحق الشافع أو المشفوع فيه؟ فإن أراد المشفوع فيه فالاستثناء منقطع، والمعنى لا يملك المعبودون شفاعة لكن من شهد بالحق وهو عالم به فهو الذي يشفع فيه، ويحتمل على هذا أن يكون من شهد مفعولا بالشفاعة على إسقاط حرف الجر، تقديره:

(١) المحرر الوجيز: ٥/٥٨.

الشفاعة فيمن شهد بالحق، وإن أراد بمن شهد بالحق الشافع فيحتمل أن يكون الاستثناء منقطعا، وأن يكون متصلا إلا فيمن عبد عيسى والملائكة، والمعنى على هذا: لا يملك المعبودون شفاعة إلا من شهد بالحق.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ القيل مصدر كالقول، والضمير يعود على النبي ﷺ، وقرئ: قيله بالنصب[1] والخفض وقرئ[2] في غير السبع بالرفع فأما النصب، فقيل: هو معطوف على سرهم ونجواهم، وقيل: هو معطوف على موضع الساعة لأنها مفعول أضيف إلى المصدر، وقيل: معطوف على مفعول محذوف، تقديره: يكتبون أقوالهم وقيله، وأما الخفض فقيل: إنه معطوف على لفظ الساعة، ويحتمل أن يكون معطوفا على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وأما على الرفع، فقيل: إنه مبتدأ وخبره ما بعده وضعف الزمخشري ذلك كله، وقال: إنه من باب القسم فالنصب والخفض على إضمار حرف القسم كقولك: الله لأضربن زيدا، والرفع كقولهم: أيمن الله، ولعمرك وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قال: أقسم بقيله أن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ منسوخ بالسيف.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ تقديره: أمري سلام، أي مسالمة، وقيل: سلام عليكم على جهة الموادعة، وهو منسوخ على الوجهين.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

*** *** ***

(١) قال الداني: عاصم وحمزة ﴿وقيله﴾ بخفض اللام وكسر الهاء، والباقون بنصب اللام وضم الهاء، ص: ١٢٧.

(٢) قال ابن عطية: وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد ﴿وقيله﴾ بالرفع على الابتداء وخبره في قوله: ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ أي قيله هذا القول أو يكون التقدير: وقيله يا رب مسموع ومتقبل (ف) «يا رب» على هذا منصوب الموضع (ب) قيله. المحرر الوجيز: ٥/٦٠.

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

سورة الدخان

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ذكر في الزخرف، وهو قسم جوابه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ وقيل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وهو بعيد.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يعني ليلة القدر من رمضان، وكيفية إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئا بعد شيء، وقيل: معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، وقيل: يعني بالليلة المباركة ليلة النصف من شعبان، وذلك باطل لقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ مع قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معنى يفرق يفصل ويخلص، والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم في ذلك العام، ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة، وقيل: إن هذا يكون ليلة النصف من شعبان، وهذا باطل لما قدمنا.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ مفعول بفعل مضمر على الاختصاص قاله الزمخشري، وقال ابن عطية: نصب على المصدر، وقيل: على الحال.

﴿مُرْسِلِينَ﴾ إرسال الرسل عليهم السلام، وقيل: من إرسال الرحمة، والأول أظهر.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في هذا قولان:

أحدهما: قول علي بن أبي طالب وابن عباس[١] أن الدخان يكون، قبل: يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين وهو من أشراط الساعة، وروى حذيفة أن رسول الله ﷺ قال[٢]: «إن أول أشراط الساعة الدخان».

والثاني: قول ابن مسعود، إن الدخان عبارة عما أصاب قريشا حين دعا عليهم رسول الله ﷺ بالجدب، فكان الرجل يرى دخانا بينه وبين السماء من شدة الجوع، قال ابن مسعود[٣]: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم.

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى، أو من قول الناس

---

(١) قال ابن عطية: واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقابه، فقالت فرقة، منها علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وأبو سعيد الخدري: هو دخان يجيء قبل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين حتى تكون كأنها مصلية حنيذة.

وقالت فرقة، منها: عبد الله بن مسعود، وأبو العالية، وإبراهيم النخعي: هو الدخان الذي رأته قريش حين دعا عليهم النبي ﷺ بسبع كسبع يوسف، فكان الرجل يرى من الجدب والجوع دخانا بينه وبين السماء، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل. المحرر الوجيز: ٦١/٥.

(٢) لم أجده مسندا وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز: ٦٢/٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (٤٤٨٩)، ومسلم الحديث رقم: (٧٢٤٦)، وقوله خمس: أي خمس علامات قد مضين أي وقعن الأولى: الدخان، قال الله تعالى: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان: ١٠]، والثانية: القمر، قال الله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١]، والثالثة: الروم، قال الله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم﴾ [الروم: ١]، والرابعة: البطشة، قال الله تعالى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ [الدخان: ١٦]، وهو القتل الذي وقع يوم بدر، والخامسة: اللزام، ﴿فسوف يكون لزاما﴾ قيل: هو القحط، وقيل: هو التصاق القتلى بعضهم ببعض في بدر، وقيل: هو الأسر فيه، وقد أسر سبعون قرشيا فيه. التعليق مأخوذ من عمدة القاري للعيني.

لما أصابهم الدخان، وهذا أظهر لأن ما بعده من كلامهم باتفاق، فيكون الكلام متناسقا.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هذا من كلام الله تعالى ومعناه استبعاد تذكير الكفار مع تكذيبهم للنبي ﷺ، والواو في قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ واو الحال ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يعني محمدا ﷺ.

﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾ أي يعلمه بشر.

﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال ابن عباس[1]: هي يوم القيامة، وقال ابن مسعود: هي يوم بدر.

﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أن هنا مفسرة نائب مناب القول، وأدوا فعل أمر من الأداء، وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل، والمعنى أرسلوا بني إسرائيل كما قال في طه ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ﴾ وقيل: عباد الله منادي، والمعنى: أدوا إلي الطاعة والإيمان يا عباد الله، والأول أظهر.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ﴾ أي لا تتكبروا. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي حجة وبرهان.

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ اختلف هل معناه الرجم بالحجارة أو السب، والأول أظهر.

﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي اتركون وخلوا سبيلي.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ هذا أمر من الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعباد هنا بنو إسرائيل، أي اخرج بهم بالليل. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إخبار أن فرعون وجنوده يتبعونهم.

---

(١) قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة، وهذا إسناد صحيح عنه. الطبري في جامع البيان: ٢٢/٢٣.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّيَ ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿١٩﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢٠﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾ • كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٦﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٩﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٣﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٦﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

ربع

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكنا على هيئته، وقيل: يابسا وروي: أن موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فقال الله له: اتركه كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه، وقيل: معنى رهوا سهلا، وقيل: منفرجا.

﴿وَعُيُونٍ﴾ يحتمل أن يريد الخلجان الخارجة من النيل وكانت ثم عيون في ذلك الزمان، وقيل: يعني الذهب والفضة وهو بعيد.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قولان، المنابر والمساكن الحسان.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ من التنعم بالأرزاق وغيرها. ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي متنعمين، وقيل فرحين، وقيل: أصحاب فاكهة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو في موضع رفع تقديره: الأمر كذلك. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل حكاه الزمخشري والماوردي وضعفه ابن عطية، قال لأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في ذلك الزمان، وقد قال الحسن[1]: إنهم رجعوا، إليها ويدل على أن المراد بنو إسرائيل قوله في الشعراء: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾.

---

(١) لم أجده مسندًا، وذكره الألوسي في تفسيره: ٢٢٣/١٤.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه عبارة عن تحقيرهم وذلك أنه إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيمه: بكت عليه السماء والأرض، على وجه المجاز والمبالغة، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم أحقر من أن يبالى بهم.

الثاني: قيل إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عبادته، ومن السماء موضع صعود عمله، فالمعنى: أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم كفار، أو ليس لهم عمل صالح.

الثالث: أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض، والأول أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي مؤخرين.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب. ﴿عَالِيًا﴾ أي متكبرا.

﴿ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي كنا عالمين بأنهم مستحقون لذلك. ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي على أهل زمانهم.

﴿بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أي اختبار. ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار قريش.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خاطبت قريش بذلك النبي ﷺ وأصحابه على وجه التعجيز، روي: أنهم طلبوا أن يحيي لهم قصي بن كلاب يسألوه عن أحوال الآخرة.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ كان تبع ملك من حمير، وكان مؤمنا وقومه كفارا فذم الله قومه ولم يذمه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال[1]: «ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي» ومعنى الآية أقريش أشد وأقوى أم قوم تبع والذين من قبلهم من

(١) لم أجده مسندا، وقال الألوسي: لم يثبت: ١٨/٤٦٩.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٠﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤١﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٢﴾ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٣﴾ خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٥﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٤٧﴾ • إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٤٨﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٩﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٠﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥١﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٢﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٣﴾ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٤﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

الكفار؟ وقد أهلكنا قوم تبع وغيرهم لما كفروا فكذلك نهلك هؤلاء، فمقصود الكلام تهديد.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطف على قوم تبع، وقيل: هو مبتدأ فيوقف على ما قبله، والأول أصح.

﴿لَعِبِينَ﴾ حال منفية ذكرت في الأنبياء.

﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلىً عَن مَّوْلىً﴾ المولى هنا يعم الولي والقريب وغير ذلك من الموالي.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع إن أراد بقوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الكفار، ومتصل إن أراد بذلك جميع الناس.

﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ أي الفاجر وهو من الإثم، وقيل: يعني أبا جهل فالألف واللام للعهد، والأظهر أنها للجنس فتعم أبا جهل وغيره.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو دُرْدِيّ الزيت[1]، وقيل: ما يذاب من الرصاص وغيره.

﴿فَاعْتُلُوهُ﴾ أي سوقوه بتعنيف.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ المصبوب في الحقيقة إنما هو الحميم وهو الماء الحار، ولكن جعل المصبوب هنا العذاب المضاف إلى الحميم مجازا؛ لأن ذلك أبلغ وأشد تهويلا، وقد جاء الأصل في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

(١) دُرْدِيُّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله. المختار الصحاح مادة: (درد).

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ يقال هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به، أي كنت العزيز الكريم عند نفسك وروي: أن أبا جهل قال ما بين جبليها أعز مني ولا أكرم فنزلت الآية.

﴿تَمۡتَرُونَ﴾ تفتعلون من المرية وهي الشك.

﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرئ[1] بضم الميم أي موضع إقامة، وفتحها أي موضع قيام، والمراد به الجنة، والأمين من الأمن أي مأمون فيه، وقيل: من الأمنة وصف به المكان مجازا.

﴿مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ السندس الرقيق من الديباج، والإستبرق الغليظ منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع أي الأمر كذلك أو في موضع نصب أي مثل ذلك زوجناهم.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ أي يدعون خدامهم.

﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لا يذوقون فيها الموت، لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى خاصة قبل ذلك، ولولا قوله ﴿فِيهَا﴾ لكان متصلا لعموم لفظ الموت، وقيل: إلا هنا بمعنى بعد، وذلك ضعيف.

﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ أي سهلناه والضمير للقرآن. ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك وهي لسان العرب.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ أي ارتقب نصرنا لك وإهلاكهم فإنهم مرتقبون ضد ذلك، ففيه وعد له ووعيد لهم.

*** *** ***

---

(١) ﴿مقام أمين﴾ قرأ المدنيان وابن عامر ﴿مقام﴾ بضم الميم، وقرأ الباقون بفتحها. النشر: ٤١١/٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٢) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٣) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٥) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٦) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٨) مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩) ۞ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١٠) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٢)

ربع

سورة الجاثية

﴿تَنزِيلُ﴾ ذكر في الزمر وما بعد ذلك تنبيه على الاعتبار بالموجودات، وقد ذكر معناه في مواضع.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك: مبالغة من الإفك وهو الكذب والأثيم من الإثم، وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، ولفظها على العموم.

﴿يُصِرُّ﴾ أي يدوم على حاله من الكفر، وإنما عطفه بثم لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي إذا بلغه منها شيء ولم يرد العلم الحقيقي.

﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ كقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقد ذكر في إبراهيم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني الشمس والقمر والملائكة وبني آدم والحيوانات والنبات وغير ذلك.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي كل نعمة فمن الله تعالى والمجرور في موضع الحال أو خبر ابتداء مضمر، وقرأ ابن عباس[1] «منة».

(١) قال ابن عطية: وقرأ ابن عباس: بكسر الميم وفتح النون المشددة ونصب التاء على المصدر، قال أبو حاتم: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، وعبد الله بن عمر، والجحدري، وعبد الله بن عبيد بن عمير. المحرر الوجيز: ٥/٧٢.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ولا يؤاخذوهم إذا آذوهم، وكان ذلك في صدر الإسلام، قيل: إنها منسوخة بالسيف، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال، وأما القتال على الإسلام فليس من ذلك، وروي: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب شتمه رجل من الكفار، فأراد عمر أن يبطش به، وأيام الله هي نعمه، فالرجاء على أصله، وقيل: أيام الله عبارة عن عقابه، فالرجاء بمعنى الخوف، ويغفروا مجزوم في جواب شرط مقدر، دل عليه قل، قال الزمخشري: حذف معمول القول، والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فاعل يجزي ضمير يعود على الله وقرئ[1] بنون المتكلم وقال ابن عطية: إن الآية وعيد فالقوم على هذا هم الذين لا يرجون أيام الله، ويكسبون يعني السيئات، وقال الزمخشري: القوم هم الذين آمنوا وجزاؤهم الثواب بما كانوا يكسبون بكظم الغيظ واحتمال المكروه.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكر في البقرة. ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي معجزات من أمر الدين.

(١) ﴿لنجزي قوما﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بالنون، وقرأ الباقون بالياء وقرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الزاي مجهلا. وكذا قرأ شيبة وجاءت أيضاً عن عاصم وهذه القراءة حجة على إقامة الجار والمجرور وهو (بما) مع وجود المفعول به الصريح وهو ﴿قوما﴾ مقام الفاعل كما ذهب إليه الكوفيون وغيرهم. النشر: ٢/٤١٢.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي ملة ودين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أم هنا للإنكار واجترحوا اكتسبوا والمراد بالذين اجترحوا السيئات الكفار لمقابلته بالذين آمنوا، ولأن الآية مكية وقد يتناول لفظها المذنبين من المؤمنين، ولذلك يذكر أن الفضيل بن عياض قرأها بالليل فما زال يرددها ويبكي طول الليل ويقول لنفسه: من أي الفريقين أنت، ومعناها إنكار ما حسبه الكفار من أن يكونوا هم والمؤمنون سواء في المحيا والممات، وفي تأويلها مع ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد ليس المؤمنون سواء مع الكفار لا في المحيا ولا في الممات، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية وكذلك ملتهم ليست سواء.

والقول الآخر: أنهم استووا في المحيا في أمور الدنيا من الصحة والرزق فلا يستوون في الممات، بل يسعد المؤمنون ويشقى الكافرون، فالمراد بها إثبات الجزاء في الآخرة، وتفضيل المؤمنين على الكافرين في الآخرة، وهذا المعنى هو الأظهر والأرجح، فيكون معنى الآية كقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وكقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ هذه الجملة بدل من الكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهي مفسرة للتشبيه وهي داخلة فيما أنكره الله مما حسبه الكفار، وقيل: هي كلام مستأنف، والمعنى على هذا أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء، وأن محيا الكفار ومماتهم سواء؛ لأن كل واحد يموت على ما عاش عليه، وهذا المعنى بعيد، والصحيح أنها من تمام ما قبلها على المعنى الذي اخترناه، وأما إعرابها:

ثمن

• أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

فمن قرأ سواء بالرفع[1] فهو مبتدأ وخبره محياهم ومماتهم، والجملة بدل من الجار والمجرور الواقع مفعولا ثانيا لنجعل، ومن قرأ سواء بالنصب فهو حال أو مفعول ثان لنجعل ومحياهم فاعل بسواء لأنه في معنى مستو. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معطوف على قوله: بالحق لأن فيه معنى التعليل، أو على تعليل محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس بما كسبت.

﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أطاعه حتى صار له كالإله. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم من الله سابق، وقيل: على علم من هذا الضال بأنه على ضلال، ولكنه يتبع الضلال معاندة. ﴿وَخَتَمَ﴾ ذكر في البقرة. ﴿يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ قال ابن عطية: فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إضلال الله إياه، ويحتمل أن يريد فمن يهديه غير الله.

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه، أو لقريش. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيه أربع تأويلات:

---

(١) ﴿سواء محياهم﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع. النشر: ٢/٤١٢.

أحدها: أنهم أرادوا يموت قوم ويحيا قوم.

والآخر: نموت نحن ويحيا أولادنا.

الثالث: نموت حين كنا عدما أو نطفا، ونحيا في الدنيا.

والرابع: نموت الموت المعروف ونحيا قبله في الدنيا، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير، ومقصودهم على كل وجه إنكار الآخرة، ويظهر أنهم كانوا على مذهب الدهرية بقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ ٱلدَّهْرُ﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الآية.

﴿قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا﴾ ذكر في الدخان. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية رد على المنكرين للحشر والاستدلال على وقوعه بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي تجثو على الركب وتلك هيئة الخائف الذليل. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحائف أعمالها، وقيل: الكتاب المنزل عليها، والأول أرجح لقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى؟ فالجواب: أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه، وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر الملائكة الحافظين بكتب أعمالكم، وقيل: إن الله يأمر الحفظة أن تنسخ أعمال العباد من اللوح المحفوظ، ثم يمسكونه عندهم فتأتي أفعال العباد على ذلك فتكتبها الملائكة، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس[1]: يحتج على ذلك بأن يقول لا يكون الاستنساخ إلا من أصل.

---

(١) الطبري في جامع البيان: ٢٣/٥٢٥.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾
وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

• حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى
وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا
تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِي السَّمَٰوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا
يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

حزب

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ تقديره: يقال لهم ذلك.

﴿وَحَاقَ﴾ ذكر مرارا. ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ النسيان هنا بمعنى الترك، وأما في قوله نسيتم فيحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الذهول.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العتبى وهي الرضا.

*** *** ***

سورة الأحقاف

﴿تَنزِيلُ﴾ ذكر في الزمر.

﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ذكر مرارا. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ﴾ احتجاج على التوحيد ورد على المشركين فالأمر بمعنى التعجيز. ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي نصيب. ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراك بالله، بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد. ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم قديم يدل على ما يقولون، وقيل: معناه من علم تثيرونه أي تستخرجونه، وقيل: هو الإسناد، وقيل: هو الخط في الرمل، وكانت العرب تتكهن به، وقال رسول الله ﷺ: **«كان نبي من الأنبياء يخط في الرمل فمن وافق خطه فذاك»**[1].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآية معناها لا أحد أضل ممن يدعو إلها لا يستجيب له وهي الأصنام فإنها لا تسمع ولا تعقل ولذلك وصفها بالغفلة عن دعائهم لأنها لا تسمعه.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي كان الأصنام أعداء للذين عبدوها ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ الضمير في كانوا للأصنام أي تتبرأ الأصنام

---

(١) مسلم الحديث رقم: (١٢٢٧)، وصحيح ابن خزيمة الحديث رقم: (٨٥٩)، وابن حبان الحديث رقم: (٢٢٤٨)، وسنن أبي داود الحديث رقم: (٣٩١١)، قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على مسلم ٤/١٧٤٩ في شرح هذا الحديث: واختلف العلماء في معناه، والصحيح أن معناه من وافق خطه فهو مباح له ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقين بالموافقة فلا يباح، والمقصود أنه حرام؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: «فمن وافق خطه فذاك»، ولم يقل: وهو حرام، بغير تعليق على الموافقة لئلا يتوهم متوهم أن هذا النص يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا وهذا إشارة إلى علم الرمل.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

من الذين عبدوها وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة والعداوة.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لو افتريته لعاقبني الله على الافتراء عقوبة لا تقدرون على دفعها ولا تملكون شيئا من ردها عليه، فكيف أفتريه وأتعرض لعقاب الله؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي بما تتكلمون به، يقال أفاض الرجل في الحديث إذا خاض فيه واستمر.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ البدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله، أي ما كنت أول رسول ولا جئت بأمر لم يجئ به أحد قبلي، بل جئت بما جاء به ناس كثيرون قبلي، فلأي شيء تنكرون ذلك؟ ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فيها أربعة أقوال: الأول: أنها في أمر الآخرة، وكان ذلك قبل أن يعلم أنه في الجنة، وقبل أن يعلم أن المؤمنين في الجنة، وأن الكفار في النار، وهذا بعيد؛ لأنه لم يزل يعلم ذلك من أول ما بعثه الله. والثاني: أنها في أمر الدنيا أي لا أدري بما يقضي الله علي وعليكم، فإن مقادير الله مغيبة وهذا هو الأظهر. الثالث: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تلزمه الشريعة. الرابع: أن هذا كان في الهجرة إذ كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض بها نخل فقلق المسلمون لتأخير ذلك فنزلت هذه الآية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ معنى الآية: أرأيتم إن كان

القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ثم حذف قوله: ألستم ظالمين وهو الجواب؛ لأنه دل على أن الله لا يهدي القوم الظالمين. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فالمعنى: أرأيتم إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع شهادة شاهد من بني إسرائيل على مثله، ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟، واختلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عبد الله بن سلام، فقيل على هذا إن الآية مدنية لأنه إنما أسلم بالمدينة، وقيل: إنها مكية وأخبر بشهادته قبل وقوعها، ثم وقعت على حسب ما أخبر، وكان عبد الله[١] بن سلام يقول: في نزلت الآية.

الثاني: أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة.

الثالث: أنه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورجح ذلك الطبري[٢] والضمير في مثله للقرآن، أي يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بين، وإن كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبشيره به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي لو كان الإسلام خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء، والقائلون لهذه المقالة هم أكابر قريش لما أسلم الضعفاء كبلال وعمار وصهيب، وقيل: بل قالها كنانة وقبائل من العرب لما أسلمت غفار ومزينة وجهينة، وقيل: بل قالها اليهود لما أسلم عبد الله ابن سلام

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف قال سمعت مالكا يحدث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن وقاص، عن أبيه قال: ما سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام. قال وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾. البخاري الحديث رقم: (٣٦٠١). والطبري في جامع البيان: ٢٢/١٠٦.

(٢) جامع البيان: ٢٢/١٠٣.

والأول أرجح؛ لأن الآية مكية وكانت مقالة قريش بمكة وأما مقالة الآخرين فإنما كانت بعد الهجرة ومعنى للذين آمنو من أجل الذين آمنوا أي قالوا ذلك عنهم في غيبتهم وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام لأنه لو كان خطابا لقالوا ما سبقتمونا. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي لما لم يهتدوا قالوا هذا إفك قديم ونحو هذا ما جاء في المثل: من جهل شيئا عاداه، ووصفه بالقدم لأنه قد قيل قديما فإن قيل كيف تعمل فسيقولون في إذ وهي للماضي والعامل مستقبل فالجواب أن العامل في إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون قال ذلك الزمخشري، ويظهر لي أن إذ هنا بمعنى التعليل لا ظرفية بمعنى الماضي فلا يلزم السؤال، والمعنى: أنهم قالوا هذا إفك بسبب أنهم لم يهتدوا به، وقد جاءت إذ بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب ومنه: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي بسبب ظلمكم.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الضمير في قبله للقرآن، وكتاب موسى هو التوراة، و﴿إِمَامًا﴾ حال، ومعناه يقتدى به. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن ومعنى مصدق مصدق بما قبله من الكتب، وقد ذكرنا ذلك في البقرة، ولسانا حال من الضمير في مصدق، وقيل: مفعول بمصدق، أي صدق ذا لسان عربي وهو محمد ﷺ واختار هذا ابن عطية.

﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ذكر في حم السجدة.

﴿حُسْنًا﴾ ذكر في العنكبوت. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بمشقة ووضعته بمشقة، ويقال كره بفتح الكاف وضمها بمعنى واحد. ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا، وهذا لا يكون إلا بأنه ينقص من أحد الطرفين، وذلك إما أن يكون مدة الحمل ستة أشهر، ومدة الرضاع حولين كاملين، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الرضاع حولين غير

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

ثلاثة أشهر، ومن هذا أخذ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والعلماء: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وإنما عبر عن مدة الرضاع بالفصال وهو الفطام لأنه منتهى الرضاع. ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ذكر في يوسف. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ هذا حد كمال العقل والقوة ويقال إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: إنها عامة.

﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي في جملة أصحاب الجنة، كما تقول رأيت فلانا في الناس أي مع الناس. ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ قال مروان بن الحكم[1] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، حين كفره كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ويقول لهما أف، وأنكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك وقالت: «والله ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي»[2] ويبطل ذلك قطعا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أسلم وكان من خيار المسلمين، وكان له في الجهاد غناء عظيم، وقال السدى[3]: ما رأيت أعبد منه، وقال ابن عباس[4]: نزلت في ابن لأبي بكر ولم يسمه، ويرد

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: من زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. تفسير القرآن العظيم: ٧/٢٨٣.

(٢) صحيح عن عائشة وقد تقدم تخريجه.

(٣) لم أجده مسندا.

(٤) روى العَوْفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق. وفي صحة هذا نظر، والله أعلم.

ذلك ما ذكرناه عن عائشة، وقيل: هي على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه، ويدل على أنها عامة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بصيغة الجمع ولو أراد واحدا بعينه لقال: ذلك حق عليه القول، وقد ذكرنا معنى أف في الإسراء. ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أتعدانني أنا أن أخرج من القبر إلى البعث. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي وقد مضت قرون من الناس ولم يبعث منهم أحد. ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ الضمير لوالديه أي يستغيثان بالله من كراهتهما لما يقول ابنهما، ثم يقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ ثم يأمرانه بالإيمان فيقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قد سطره الأولون في كتبهم وذلك تكذيب بالبعث والشريعة.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي للمحسنين والمسيئين درجات في الآخرة بسبب أعمالهم، فدرجات أهل الجنة إلى علو ودرجات أهل النار إلى سفل، وليوفيهم تعليل بفعل محذوف، وبه يتعلق، تقديره: جعل جزاءهم درجات ليوفيهم أعمالهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ العامل فيه محذوف، تقديره: اذكر. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ تقديره يقال لهم: أذهبتم طيباتكم، والطيبات هنا الملاذ من المآكل وغيرها وقرئ[(١)] أذهبتم بهمزة واحدة على الخبر وبهمزتين على التوبيخ، والآية في الكفار بدليل قوله: ﴿يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر[(٢)] لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحما، أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية؟ ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب الذي يقترن به هوان.

---

(١) ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ في سورة الأحقاف قرأه بهمزة واحدة على الخبر: نافع وأبو عمرو والكوفيون، والباقون بهمزتين على الاستفهام وهم ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر: ١/٤١٤.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٧/٤٤٦.

ربع

● وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن
مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟
يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا
ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودا عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو الكدس من الرمل، واختلف أين كانت؟ فقيل بالشام، وقيل: بين عمان ومهرة، وقيل: بين عمان وحضرموت، والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي تقدمت من قبله ومن بعده والنذر جمع نذير، فإن قيل: كيف يتصور تقدمها من بعده؟ فالجواب: أن هذه الجملة اعتراض وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلا متقدمين قبل هود وبعده، وقيل: معنى من خلفه في زمانه.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي قل إن العذاب الذي قلتم: ائتنا به ليس لي علم متى يكون؟ وإنما يعلمه الله، وما علي إلا أن أبلغكم ما أرسلت به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ العارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء، والضمير في رأوه يعود على ما تعدنا أو على المرئي المبهم الذي فسره قوله: عارضا، قال الزمخشري: وهذا أعرب وأفصح، وروي: أنهم كانوا قد قحطوا مدة، فلما رأوا هذا العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به، فقال لهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: بل هو ما استعجلتم به من العذاب، وقوله: ريح بدل من ما استعجلتم، أو خبر ابتداء مضمر.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عموم يراد به الخصوص.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

ثمن

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد، أي مكنا عادا فيما لم نمكنكم فيه من القوة والأموال وغير ذلك، ثم أهلكناهم لما كفروا، وإن هنا نافية بمعنى ما، وعدل عن ما كراهية لاجتماعها مع التي قبلها، وقيل: إن شرطية وجوابها محذوف، تقديره: إن مكناكم فيه طغيتم، قال ابن عطية: وهذا تنطع في التأويل.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني بلاد عاد وثمود وسبإ وغيرها، والمراد إهلاك أهلها.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ الآية عرض معناه النفي، أي لم تنصرهم آلهتهم التي عبدوا من دون الله. ﴿قُرْبَانًا﴾ أي تقربوا بهم إلى الله، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وانتصاب قربانا على الحال، ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا لاتخذوا، وآلهة بدل منه لفساد المعنى، قاله الزمخشري، وقد أجازه ابن عطية. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي تلقوا لهم، وغابوا عن نصرهم حين احتاجوا إليهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي أملناهم نحوك، والنفر دون العشرة وروي: أن الجن كانوا سبعة، وكانوا كلهم ذكرانا لأن النفر الرجال دون النساء، وكانوا من أهل نصيبين، وقيل: من أهل الجزيرة، واختلف هل رآهم النبي ﷺ؟ قيل: إنه لم يرهم ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك، وقيل: بل علم بهم واستعد لهم واجتمع معهم، وقد ورد في ذلك عن عبد الله بن مسعود

أحاديث مضطربة[١] وسبب استماع الجن أنهم لما طردوا من استراق السمع من السماء برجم النجوم، قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث، فطافوا بالأرض ينظرون ما أوجب ذلك، حتى سمعوا قراءة رسول الله ﷺ في صلاة الفجر في سوق عكاظ، فاستمعوا إليه وآمنوا به.

﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ في هذا دلالة على أنهم كانوا على دين اليهود، وقيل: كانوا لم يعلموا ببعث عيسى. ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ذكر في البقرة.

﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله ﷺ. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من هنا للتبعيض على الأصح أي يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام، وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله، وقيل: معنى التبعيض أن المظالم لا تغفر، وقيل: إن من زائدة. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي من النار، واختلف الناس هل للجن ثواب زائد على النجاة من النار[٢] أم ليس لهم ثواب إلا النجاة خاصة؟.

---

(١) روى عامر الشعبي قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم؛ فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه». الجامع لأحكام القرآن: ٣/١٩.

٢) قال القرطبي: مسألة: هذه الآي تدل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابا مثل البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يعاقبون في الإساءة يجازون في الإحسان، مثل الإنس، وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلي. وقد قال الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. قال القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء، قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة، لأنه قال في أول الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ إلى أن قال ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾. والله أعلم. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢١٧.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام الجن، أو من كلام الله تعالى، ومعنى ليس بمعجز أي لا يفوت.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ الآية احتجاج على بعث الأجساد بخلق السموات والأرض. ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرفه، فالمعنى: أنه تعالى علم كيف خلق السموات والأرض وأحكم خلقتها، فلا شك أنه قادر على إحياء الموتى ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في موضع رفع لأنه خبر أن، وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وخبرها. ﴿بَلَىٰٓ﴾ جواب لما تقدم، أي هو قادر على أن يحيي الموتى.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، أي اصبر على تكذيب قومك، وأولوا العزم: هم نوح، وإبراهيم، وعيسى، وموسى، وقيل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام، لقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقيل: كل من لقي من أمته شدة، وقيل: الرسل كلهم أولوا عزم، فمن الرسل على هذا لبيان الجنس، وعلى الأقوال المتقدمة للتبعيض. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تستعجل نزول العذاب بهم فإنهم صائرون إليه فإنهم إذا هلكوا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لاستقصار أعمارهم ﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر ابتداء مضمر، تقديره: هذا الذي وعظتم به بلاغ بمعنى كفاية في الموعظة، أو بلاغ من الرسول عليه الصلاة والسلام، أي بلغ هذا المواعظ والبراهين.

❊❊ ❊❊ ❊❊

= وقال ابن القيم: عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وفي الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة كما أن كافرهم في النار ويبوب عليه البخاري في صحيحه فقال: باب ثواب الجن وعقابهم، ونص عليه غير واحد من السلف، قال ضمرة بن حبيب وقد سئل هل للجن ثواب؟ فقال: نعم! وقرأ هذه الآية ثم قال: الإنسيات للإنس، والجنيات للجن. التفسير القيم لابن القيم، ص: ١٢٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

ربع

سورة محمد ﷺ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار قريش، وعموم اللفظ يعم كل كافر كما أن قوله بعد هذا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني الصحابة، وعموم اللفظ يصلح لكل مؤمن. ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صدوا بمعنى أعرضوا فيكون غير متعد أو يكون بمعنى صدوا الناس فيكون متعديا وسبيل الله الإسلام والطاعة. ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها، وقيل: المراد بأعمالهم هنا ما أنفقوا في غزوة بدر، فإن هذه الآية نزلت بعد بدر، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا تجريد للاختصاص والاعتناء بعد عموم قوله ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولذلك أكده بالجملة الاعتراضية، وهو قوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قيل: معناه أصلح حالهم وشأنهم، وحقيقة البال الخاطر الذي في القلب، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله[1] فالمعنى إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى.

﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، ثم حذف الفعل وأقام

---

(١) يشير للحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». رواه البخاري الحديث رقم: (٥٢)، ومسلم الحديث رقم: (٤١٧٨)، وغيرهما.

المصدر مقامه، والمراد اقتلوهم ولكن عبر عنه بضرب الرقاب لأنه الغالب في صفة القتل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي هزمتموهم، والإثخان أن يكثر فيهم القتل والأسر. ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ عبارة عن الأسر. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ المن العتق والفداء فك الأسير بمال وهما جائزان، فإن مذهب مالك أن الإمام مخير في الأسارى بين خمسة أشياء: وهي المن، والفداء، والقتل، والاسترقاق، وضرب الجزية، وقيل: لا يجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا يجوز على هذا إلا قتلهم، والصحيح أنها محكمة، وانتصب منا وفداء على المصدرية، والعامل فيهما فعلان مضمران. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الأوزار في اللغة الأثقال، فالمعنى حتى تذهب وتزول أثقالها وهي آلاتها، وقيل: الأوزار الآثام لأن الحرب لابد أن يكون فيها إثم في أحد الجانبين، واختلف في الغاية المرادة هنا، فقيل: حتى يسلم الجميع فحينئذ تضع الحرب أوزارها، وقيل: حتى تقتلوهم وتغلبوهم، وقيل: حتى ينزل عيسى ابن مريم، قال ابن عطية: ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبدا كما تقول: أنا فاعل ذلك إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ تقديره الأمر ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أو لو شاء الله لأهلك الكفار بعذاب من عنده ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين وأن يبلو بعض الناس ببعض.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي جعلهم يعرفون منازلهم فيها فهو من المعرفة، وقيل: معناه طيبها لهم فهو من العرف وهو طيب الرائحة، وقيل: معناه شرفها ورفعها فهو من الأعراف التي هي الجبال.

﴿فَتَعْسًا﴾ لهم أي عثارا وهلاكا وانتصابه على المصدرية والعامل فيه فعل مضمر، وعلى هذا الفعل عطف وأضل أعمالهم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ أي لكفار قريش أمثال عاقبه الكفار المتقدمين من الدمار والهلاك.

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وليهم وناصرهم وكذلك ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ معناه لا ناصر لهم، ولا يصح أن يكون المولى هنا بمعنى السيد لأن الله مولى المؤمنين والكافرين بهذا المعنى، ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ لأن معنى المولى مختلف في الموضعين، فمعنى مولاهم الحق ربهم، وهذا على العموم في جميع الخلق بخلاف قوله: ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه خاص بالمؤمنين؛ لأنه بمعنى الولي والناصر.

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ عبارة عن كثرة أكلهم وعن غفلتهم عن النظر كالبهائم.

﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني مكة، وخروجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وقت الهجرة، ونسب الإخراج إلى القرية والمراد أهلها لأنهم آذوه حتى خرج. ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ الضمير للقرى المتقدمة المذكورة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وجمعه حملا على المعنى، والمراد أهلكنا أهلها.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على حجة ويعني به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما يعني قريشا بقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ واللفظ أعم من ذلك.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ذكر في الرعد. ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي غير متغير. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ تقديره: أمثل أهل الجنة المذكورة كمن هو خالد في النار، فحذف هذا التقدير المراد به النفي وإنما حذفه لدلالة التقدير المتقدم وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين، وجاء يستمعون بلفظ الجمع رعيا لمعنى من. ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ روي[1] أنه عبد الله بن مسعود. ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كانوا يقولون ذلك على أحد وجهين إما احتقارا لكلامه كأنهم قالوا: أي فائدة فيه؟ وإما جهلا منهم ونسيانا لأنهم كانوا وقت كلامه معرضين عنه، وآنفا معناه الساعة الماضية قريبا، وأصله من استأنفت الشيء إذا ابتدأته.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ يعني المؤمنين، والضمير في زادهم لله تعالى أو للكلام الذي قال فيه المنافقون ماذا قال آنفا، وقيل: يعني بالذين اهتدوا قوما من النصارى آمنوا بسيدنا محمد ﷺ، فاهتداؤهم هو إيمانهم بعيسى، وزيادة هداهم إسلامهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير للمنافقين، والمعنى: هل ينتظرون إلا الساعة؟ لأنها قريبة. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتها والذي كان قد جاء من ذلك مبعث سيدنا محمد ﷺ لأنه قال[2]: «أنا من أشراط الساعة» و«بعثت أنا والساعة كهاتين»[3] ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي كيف لهم الذكرى إذا

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة رضي الله عنه: ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ قال: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. الدر المنثور: ٤٦٦/٧.

(٢) لم أجده مسندا وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٠٢/٥.

(٣) في البخاري حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا أبو حازم حدثنا سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام «بعثت أنا والساعة كهاتين...» الحديث رقم: (٤٦٥٢)، ومسلم الحديث رقم: (٢٠٤٢)، وغيرهما.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

جاءتهم الساعة بغتة فلا يقدرون على عمل، ولا تنفعهم التوبة، ففاعل جاءتهم الساعة، وذكراهم مبتدأ وخبره الاستفهام المتقدم، والمراد به الاستبعاد.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي دم على العلم بذلك، واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النظر والعلم قبل العمل[1] لأنه قدم قوله: ﴿فَاعْلَمْ﴾ على قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ قيل: متقلبكم تصرفكم في الدنيا، ومثواكم إقامتكم في القبور، وقيل: متقلبكم تصرفكم في اليقظة، ومثواكم منامكم.

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ كان المؤمنون يقولون ذلك على وجه الحرص على نزول القرآن والرغبة فيه لأنهم كانوا يفرحون به ويستوحشون من إبطائه. ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ يحتمل أن يريد بالمحكمة ليس فيها منسوخ، أو يريد متقنة، وقرأ ابن مسعود[2] سورة محدثة. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين، ونظرهم ذلك من شدة الخوف من القتل؛ لأن نظر الخائف قريب من نظر المغشي عليه. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ في معناه قولان:

---

(١) في صحيح البخاري: باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم. الحديث رقم: (١٠) الجامع الصحيح المختصر: ١/٣٧.

(٢) في الطبري: وذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ﴾ جامع البيان: ٢٢/١٧٤.

أحدهما: أنه بمعنى أحق وخبره على هذا طاعة، والمعنى أن الطاعة والقول المعروف أولى لهم وأحق.

والآخر: أن أولى لهم كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم، كقولك: ويل لهم ومنه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيوقف على أولى لهم على هذا القول، ويكون طاعة ابتداء كلام تقديره: طاعة وقول معروف أمثل، أو المطلوب منهم طاعة وقول معروف، أو قولهم لك يا محمد طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسند العزم إلى الأمر مجازا كقولك: نهاره صائم وليلة قائم. ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يريد صدق اللسان أو صدق العزم والنية وهو أظهر.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب ليكون أبلغ في التوبيخ، والمعنى: هل يتوقع منكم الإفساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم، ومعنى توليتم صرتم ولاة على الناس وصار الأمر لكم، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني أمية، وقيل: معناه أعرضتم عن الإسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ نزلت في المنافقين الذين نافقوا بعد إسلامهم، وقيل: نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا نبوءة سيدنا محمد ﷺ من التوراة ثم كفروا به. ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ورجاهم ومناهم. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي مد لهم في الأماني والآمال والفاعل هو الشيطان، وقيل: الله تعالى، والأول أظهر لتناسب الضمير بين الفاعلين في سول وأملى.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ذلك اليهود للمنافقين، وبعض الأمر يعنون به مخالفة رسول الله ﷺ ومحاربته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

ربع

يعني ملك الموت ومن معه، والفاء رابطة للكلام مع ما قبله، والمعنى هذا جزعهم من ذكر القتال فكيف يكون حالهم عند الموت؟. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ ضمير الفاعل للملائكة، وقيل: إنه للكفار أي يضربون وجوه أنفسهم وذلك ضعيف.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآية معناها ظن المنافقون أن لن يفضحهم الله والضغن الحقد ويراد به هنا النفاق والبغض في الإسلام وأهله.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لو نشاء لأريناك المنافقين بأعيانهم حتى تعرفهم بعلامتهم، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين، وروي: أن الله لم يذكر واحدا منهم باسمه. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ معنى لحن القول مقصده وطريقته، وقيل: اللحن هو الخفي المعنى كالكناية والتعريض، والمعنى: أنه ﷺ سيعرفهم من دلائل كلامهم، وإن لم يعرفه الله بهم على التعيين.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي نختبركم. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي نعلمه علما ظاهرا في الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الله الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض[1] إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوه وعادوه ونزلت الآية في المنافقين وقيل في اليهود.

(١) السراج المنير: ٤/١٢، والكشاف: ٤/٣٣٠، والمحرر الوجيز: ٥/١٠٧.

﴿وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يحتمل أربعة معان:

أحدها: لا تبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان.

والثاني: لا تبطلوا حسناتكم بفعل السيئات، ذكره الزمخشري وهذا على مذهب المعتزلة خلافا للأشعرية، فإن مذهبهم أن السيئات لا تبطل الحسنات.

والثالث: لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والعجب.

والرابع: لا تبطلوا أعمالكم بأن تقتطعوها قبل تمامها، وعلى هذا أخذ الفقهاء الآية، وبهذا يستدلون على أن من ابتدأ نافلة لم يجز له قطعها، وهذا أبعد هذه المعاني، والأول أظهر لقوله قبل ذلك في الكفار أو المنافقين ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثل هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسول.

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ هذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ﴾ أي لا تضعفوا عن مقاتلة الكفار وتبتدئوهم بالصلح، فهو كقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم أجور أعمالكم يقال وترت الرجل أترة إذا نقصته شيئا، أو أذهبت له متاعا.

﴿وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يسألكم جميعها إنما يسألكم ما يخف عليكم مثل ربع العشر وذلك خفيف.

﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ معنى يحفكم يلح عليكم، والإحفاء أشد السؤال، وتبخلوا جواب الشرط. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ الفاعل الله تعالى أو البخل، والمعنى يخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منصوب على التخصيص أو منادى. ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني الجهاد والزكاة. ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي إنما ضرر بخله على نفسه، فكأنه بخل على نفسه بالثواب الذي يستحقه بالإنفاق. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي يأت بقوم على خلاف صفتكم، بل راغبين في الإنفاق في سبيل الله، فقيل: إن هذا الخطاب لقريش، والقوم غيرهم هم الأنصار، وهذا ضعيف؛ لأن الآية مدنية نزلت والأنصار حاضرون، وقيل: الخطاب لكل من كان حينئذ بالمدينة، والقوم هم أهل اليمن، وقيل: فارس.

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع والأخير وأوله سورة الفتح

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

❊❊ ❊❊ ❊❊